جان بول سارتر

مواقف

٦

مكتبة
الفكر الجديد
07-06-2017

شبح ستالين

دار الآداب

شبح ستالين

مكتبة
الفكر الجديد

حقوق الطبع محفوظة
لدار الآداب – بيروت

الطبعة الأولى
تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٥

مكتبة
الفكر الجديد

جان بول سارتر

مواقف
٦

شبح ستالين

ترجمة جورج طرابيشي

منشورات دار الآداب - بيروت

مكتبة الفكر الجديد

عملية « كانابا »

في ٢٢ شباط نشرت « الاومانيته » تحت عنوان « تحريفية « جديـــدة » مخصصة لاستعمال المثقفين » المقال التالي الذي تنشره بنصه الحرفي :

« ان مجلة « بروف» الاميركية الصادرة في فرنسا تنظم مساجلة إثر مساجلة. فقد نظمت واحدة في ٥ كانون الثاني ، واخرى في ٩ شباط . وقـــد كرست صحيفة « بوبولير – ديمـــانش » عدة صفحات مزدوجة ، واحدة لـ « تقرير موجز » عن « أيام » بحث المثقفين الشيوعيين في ايفري ، واخرى لنقاش جان تكسييه المطول عن « عصاب » المثقفين الذين يملكون جرأة الاعلان عن انهم ليسوا اعداء للشيوعية . وقد اثيرت ضجة منظمة حول كتـاب المرتد ديونيس ماسكولو المسمى، على طريقة من يقولون دوماً عكس الحقيقة، بـ « الشيوعي». وقد كثفت السيدة كوليت اودري زبدة المناقشات بهدف التبسيط في « الازمنة الحديثة » ، كما ضمت « المجلة الفرنسية الجديدة » صوتهـا الى الجوقة ، وساهمت في الحفلة « المدرسة التحريرية » ... والى آخر ما هنالك .

« ما الأمر ؟ عم يتناقش هؤلاء الناس؛ عن العلاقات بين المثقفين والشيوعية، ولا سيما الحزب الشيوعي الفرنسي . ان قناعاتهم لما تتحدد بعد تمامـاً : فرانيس سبيربر يقول انه لا وجود للمثقفين في الحزب الشيوعي ، وريمون آرون يقول ان المثقفين « مسحورون » بالشيوعة ، وماسكولو يقول انه ليس بالامكان ان يكون هناك مثقف شيوعي ، وانه ليس بالامكان أيضاً ان يكون هناك مثقف غير شيوعي . انهم ليسوا متفقين إلا على نقطة واحدة : وجوب « إبعـــاد »

مكتبة الفكر الجديد

المثقفين عن الشيوعية . (اذا كان ابعادهم عنهـــا واجباً ، فهذا معناه انهم منجذبون اليها فعلياً في الوقت الراهن ... هذا لأخذ العلم فقط) . فما العمل ؟ انهم يقولون جميعهم ايضاً : لا بد من « ثورة فلسفية » . ان مانيس سبيربر يطلب ذلك ، وماسكولو يحاول اداء المهمة ، والسيدة كوليت اودري تهنئه . ان ماسكولو قـــد « ابتكر من جديد » مذهباً ماركسياً صالحـــاً لاستعمال البورجوازيين، مذهباً لا يعدو باكمله ان يكون اكثر من «نظرية عن الحاجات»، واحدى النتائج التي ينتهي اليها هي ان على المثقفين ان « ينيروا » و « يرشدوا » الحركة العاملة .

« انها لقصة قديمة ، يا سادة ! انها نفس الخلفية التي وقفتم عليها قبـــل بضع سنوات : وقد فُضحت من قبل اللجنة المركزية عام ١٩٤٨ ، كما عبر عن ذلك ، بعد دورتها ، الرفيق لوران كازانوفا في « دفاتر الشيوعية »(ايلول ١٩٤٨)[1]، على اساس التعاليم اللينينية . ان ما عرّضتم به آنذاك ، وان ما يثير استنكاركم الى اليوم ، هي هذه الحقيقة اللامتناهية البساطة التي تقول ان الحزب الشيوعي هو حزب البروليتاريا ، وان « البروليتاري مسلح منذ قرن من الزمن بمذهب علمي ، مكتمل ، حي ، غني بتجارب متجددة باستمرار » ، وان المطلب الاول المطروح على المثقف الشيوعي هو ان ينضم الى المواقف السياسية و الايديولوجية للبروليتاريا ، لا الى فلاسفة سان جرمان دي بري ، لا الى المثقف – الجاسوس . وانت تعلم حق العلم يا ماسكولو انك قد طُردت من الحزب الشيوعي لأنـــك آثرت على هذا المطلب (الذي يقتضي ، هذا صحيح ، « عملاً شاقاً احياناً لنقد القيم المقبولة حتى ذاك ») ، لأنك آثرت عليه التفاهم والتسوية مـــع العدو الطبقي .

« لهذا رحت تحاول ان تخيف المثقف الشريف الذي يرى في مذهب الحزب الشيوعي وحياته منبع تجديد لا مثيل له لامكاناته الخلاقة . رحت تحاول أن

---

١ – اعيد نشره في « الحزب الشيوعي والمثقفون والأمة » – المنشورات الاجتماعية – الطبعة الثانية – ص ٥٩ .

مكتبة الفكر الجديد

تجعله يعتقد بأنه اذا ما اصبح شيوعياً، فلن يعود مثقفاً، بل يصبح « تكنيكياً » في احسن الاحوال ، وصفراً في اسوأها . انها لكذبة يشهد ضدها آلاف المثقفين الاعضاء في الحزب الشيوعي . انها لكذبة ترد عليها ، على سبيل المثال ، رفيقتنا آني بيس في مقال نشرته مؤخراً مجلة « النقد الجديد » (العدد ٥٢) : « إن المثقفين الشيوعيين ، علاوة على مسؤولياتهم السياسية الصرف ... مدعوون الى مواجهة ومقارعة ما هو من اختصاصهم الأول : اعني الفكر والعلم والثقافة . ان عليهم ، هم المدعومين بالحركة العاملة قاطبة ، ان يعملوا باندفاعة واحدة على تجميع المثقفين سياسياً للدفاع عن الثقافة ، التي هي عامل توحيد شتى المعارك التي يخوضها المثقفون للدفاع عن السلم والاستقلال الوطني والحريات ، والتي هي الخلفية التي تقوم عليها وحدة المثقفين ؛ وان يخوضوا حرباً ايديولوجية هدفها تأمين النصر في ميدان الادب والعلم والفن لأفكار الحزب ، الافكار الماركسية — اللينينية ، بحيث يبعثون تراث شعبنا الثقافي ويرفعونه الى مرتبة اعلى ، لصالح الطبقة العاملة ، لصالح الوطن ... والحقيقة هي ان ماسكولو يحتقر رسالة المثقفين الشيوعيين هذه ، لأنه يجهلها اولاً ويعجز عنها ، ولأنه يحتقر ثانياً بعمق التفكير النظري .

« ان جريدة « كومبا » التي جعلت من نفسها الحامل المتحمس لكل الماسكوليات الممكن تخيلها ، تؤكد بلا ضحك اننا « بُكم » تجاه كل هذه المسائل .. فلنُحِلْها الى مقال رفيقتنا ذاك، لنحلها الى كل عدد «النقد الجديد»، لنحلها الى نصوص ديتروف التي نشرناها مؤخراً ، [1] والى التعليق الذي كتبه عنها ههنا بالذات ، منذ خمسة عشر يوماً ، جان فريفيل ! الحقيقة انهم ما عادوا يملكون تلك الذرة من الاحتشام الفكري التي تفصل بين العمى وسوء النية .

« انهم يريدون القيام بـ « ثورة فلسفية » ؛ واحسرتاه ! ان مصيبتهم هي ان هذه الثورة الفلسفية قد حدثت ، وانه بدلالتها على وجه التحديد يلتفت المثقفون ، المتزايد عددهم باستمرار ، نحو الشيوعية . انهم « يطلقون من جديد»،

---

١ — منشورات « النقد الجديد » .

مكتبة الفكر الجديد

تحت بهرج جديد، نزعة تحريفية بالية تتغذى من ينابيع الاشتراكية–الديموقراطية البلومية [1] وتتجمل بريش الوجودية .

« وفي الوقت الذي تمثل فيـــه في رأس جدول اعمال مثقفي فرنسا مسألة تجمعهم للدفاع أولاً عن القيم القومية المهددة من قبل اميركا الامبريالية ومن قبل حكومة خانعة – هذه القيم التي اسمها السلم والسيادة القومية والديموقراطيـة والثقافة الفرنسية – في هذه الساعة بالذات لا همّ لجماعة « بروف » ومن على شاكلة ماسكولو وتكسييه سوى الانتاج العجول لإحراجات كاذبة يريدون ان تتيه في ظلماتها خطوات جميع اولئك الذين يريدون ، مـــع الشيوعيين ، سياسة اخرى . ولهذا فإن هؤلاء جميعاً ، لا الشيوعيين وحدهم ، يدحضون افتراءاتهم ويعتبرون مشروعهم تخريبياً ، لأنه تحركه اولاً روح الانقسام، ولأنه يناوىء مصالح البروليتاريا والأمة المتعانقة » .

« جان كانابا »

* * *

إن عودة الربيع تحتاج إلى أكثر من سنونو واحد ، وتلويث شرف الحزب يحتاج الى أكثر من كانابا واحد : فإذا كان المقال المنشور أعلاه لا يلزم غير كاتبه، فهو لا يستأهل غير سلة المهملات مآلاً وبدون أي تعليق . انما المشكل انه نشر في الصفحة الثانية من « الاومانيته » : اذن فمن حقنا ان نخشى ان تكون ادارة هذه الصحيفة تعلق عليه بعض الاهمية . انني اغتنم هذه المناسبة دون ان اقطع بيقين في الموضوع – وما دمت ادير احدى المجلات التي ذكرها كانابا – لأتوجـه إلى أولئك الذين يوجهون نشاطات الحزب الشيوعية الفكريـــة ولأخاطبهم بصراحة . « إذا كان هذا المقال لا يلزمكم ، فماذا تنتظرون حتى تتبرأوا منه ؟ أو لتجعلوا كانابا نفسه يتبرأ منه : فهو قد اعتاد على التبرؤ ، ووقاحته لا يعادلها شيء غير هوانه . اما اذا كنتم ، على العكس ، تمحضونـه موافقتكم ، فلنرَ إلى

---

١ – نسبة الى ليون بلوم . « هـ. م »

مكتبة الفكر الجديد

أين يقودنا هذا » .

إن مقال كانابا يعالج « العلاقات بين المثقفين والشيوعية » . ومن هذا الزاوية — وإذا تركنا جانباً أعداء الشيوعية — هناك ثلاثة أنواع من المثقفين : من هم مسجلون في الحزب ، ومن هم يفكرون بالانتساب اليه ، ومن هم لا يفكرون بذلك . وكانابا هو ممثل الفئة الأولى ، ويتوجه إلى الثانية ، ويحدثها عن الثالثة . فلنتكلم قليلاً عن أعضاء الفئة الثانية : انهم مثقفون « شرفاء لكن مذعورون » يتمنون الانضمام إلى الحزب، لكن جماعة من المتآمرين تثنيهم عن الانتساب اليه . هل تريدون حقاً ان تبعثوا الاطمئنان في قلوبهم ؟ أتنوون فعلاً ان تبرهنوا لهم انهم لن يصبحوا « اصفاراً » ؟ اذن ابدأوا بإخفاء كانابا عن انظارهم ، وإلا اكتشفوه قبل الأوان بكثير . انتم ترغبون في ان تبينوا لهم انهم سيجدون « في مذهب الحزب الشيوعي وحياته منبع تجديد لا مثيل له لامكاناتهم الخلاقة » . نعما : لكن كيف لا ترون ان هذا المقال يثبت لهم العكس بالضبط ؛ لقد كان عليكم أولاً ألا تختاروا أجف ثمار الاحزاب الشيوعية الأوروبية قاطبة لترسلوه مبشراً اليهم . انكم انتم انفسكم لا تؤمنون بإمكانات كانابا « الخلاقة » ! كانابا خلاق ؟ كانابا متجدد ؟ هيا ! لو كان ذلك صحيحاً لذاع صيته . ولو استثنينا روايتين في غاية الرداءة ، فلا يتبقى منه سوى حزمة من الافتراءات لم يحسن ربطها . وليس مقاله في شباط هو الذي سيغير رأي قرائه : إذا كان المثقفون « مذعورين » فهل تعتقدون انكم تضربون لهم قدوة صالحة بهذا الادعاء السكولائي الذي يحل الصعوبات بالاستشهادات العشواء ، بهذا العرض الرتيب لشتائم « بالية » ، بهذه اللفظية التي تخفي تحت الكلمات الكبيرة فراغ الفكر ؟ وإذا كانوا « شرفاء » فأي انطباع تعتقدون انه سيتركه فيهم هذا العرض الساذج لقلة الشرف ؟ انتم تعرفون بلا شك ما يسمى بالملغمة — هذا اذا لم نشأ ان نضرب سوى مثال واحد : فهي تمارس بكثرة لدى فرانكو ، وأحياناً لدينا ، وغالباً ما فضحتموها بأنفسكم . إذن فلماذا تتركون معاونكم « يلغم » « بروف » و « الازمنة الحديثة » و « المجلة الفرنسية الجديدة » و « المدرسة

مكتبة الفكر الجديد

التحريرية» و « البوبولير – ديمانش» ؟ لماذا تتركونه يضع في سلة واحدة رؤوس تكسيبه وكوليت اودري وآرون وماسكولو وسبيربر المقطوعة حديثاً ؟ أترون ، كما كان يرى جزارو تولوز ، ان « الله سيتعرف اتباعه » ؟ ان الجميع يعرفون ان هؤلاء الناس ليس لهم رأي مشترك (ولا حتى الرأي الذي ينسبه اليهم كانابا) . والفروق بينهم صارخة للغاية حتى ان واضع المقال ، بعد ان وحّد بينهم بخفة ، وجد نفسه مكرهاً على الاقرار بأن قناعاتهم « لما تتحدد بعد تماماً » . اني اعلم انكم ستقولون لي انهم جميعهم اعداء للبروليتاريا ، وانتم تعلمون حق العلم انني لن اسلم لكم بذلك ما دام كانابا قد تدبر أمره ليضعني ضمنياً في الملغمة . لكن افترضوا ان هذا صحيح . ان المثقف الشريف والخجول الذي يريد الانضمام الى حزبكم قد قرأ ماركس ولا بد . اذن فهو يعلم ان البورجوازية ليست قطعة واحدة ، وانها تضم اوساطاً كبيرة التباين ، وان فيها تناحرات عنيفة وصراعات بين المصالح ، وبالتالي طرقاً متفاوتة في التفكير . وأن تحول ضرورات العمل أحياناً دون اجراء التمييز الضروري ، فأنا لا اعترض على ذلك. لكنكم اذا كنتم تريدون اقناع المثقفين فاحذروا من الشطط في التبسيط : لأن ما سيرونه بين السطور ليس «منبع امكانات خلاقة» بل هاوية البلادة الأخاذة . من الممكن ان يكون هدفكم كسب انتماء المترددين بوصفكم بعض زملائهم بأنهم مثقفون – جواسيس . لكن اذا كنتم تريدون النجاح لهذه المناورة الغريبة ، فاختاروا ناطقاً بلسانكم لا مآخذ عليه : فمهما يكن العمل دنيئاً فهو دونه ، ذلك الواشي الذي يدس على كلود روا داخل حزبه بالذات ثم يسأله الصفح بعد فشل محاولته .

يقيناً ، في مقدوركم أن تردوا علينا بأن هذا كله لا يعنينا ، وانتم محقون في ذلك بصورة ما . ذلك اننا ننتمي نحن إلى الفئة الثالثة ، ولا نفكر بالدخول الى الحزب الشيوعي بقدر ما لا تفكرون انتم بقبولنا فيه . لكن ما يعنينا بالمقابل هو الطريقة التي تنظرون بها الى العلاقة بين مثقفي الفئة الثالثة وبين حزبكم . فكما كتب كانابا بنفسه ، نحن الآن « في الساعة التي تمثل فيها في رأس

مكتبة الفكر الجديد

جدول أعمال مثقفي فرنسا مسألة تجمعهم للدفاع **اولاً** عن القيم القومية المهددة من قبل اميركا الامبريالية ومن قبل حكومة خانعة ... هذه القيم التي اسمها السلم والسيادة القومية والديموقراطية والثقـــافة الفرنسية ...». حسناً . لقد وقفت كوليت اودري مع الكثير من المثقفين ضد مشروع شومان للوحـدة الاوروبية واتفاقيـات بون وباريس ، وضد الحلف الأطلسي ، وايدت افتتاح مفاوضات فورية في الهند الصينية ، والدفاع عن الحريات الديموقراطية . اما « الأزمنـــة الحديثة » فوجهة نظرها معروفة بما فيه الكفاية . والحال انـكم تسمحون بوضع اودري في سلة واحـــدة مع ريمون آرون الذي يكتب مقالات « الفيغارو » الرئيسية ، ويحرق « الازمنة الحديثة » في محرقة واحدة مع « المجلة الاميركية في فرنسا ، بروف » . ماذا فعلنا ؟ حسناً ، لقد كتب ماسكولو ، الذي ليس من الحزب الشيوعي ، كتاباً (كتابـــاً لم يكن البتة مضاداً للشيوعية لكنـكم أدنتموه لأسباب خاصة بكم) ، وسمحت كوليت اودري لنفسها ان تقرظه في « الازمنة الحديثة » تقريظاً بالغ الحذر . تلكم هي اذن الصورة التي تفهمون بها « تجمع المثقفين الشرفاء » . فلا يكفي المرء ان يكون متفقاً معكم على جميـع الفصول الكبرى في سياستكم ، بـــل يجب ايضاً أن يغطي بالزهور الكتب التي تحبون وان يمرغ في الوحل الكتب التي لا تحبون . وإذا ما سمح لنفسه بأن يقيّم المؤلفات من وجهة نظر ليست هي بالدقة وجهة نظركم ، صنفتموه بسرعة في فئة المثقفين — الجوسيس او فلاسفة سان جيرمان دي بري . أأنتم مجانين ؟ ألم تتعلموا شيئاً ؟ هل ستضحون مرة أخرى بالتحالفـات لصالح تلك العجرفة الغبية التي تصممون على التظاهر بها تجاه حلفائـكم ؟ ألا ترون تناقضات موقفكم في الوقت الذي تفقأ فيه أعين الجميـع ؟ ثم يتكلم كانابا عن الانقسام ؟ وتتركونه يتكلم ! لكن قولوا لي اذن : اين هم الانقساميون ؟ ان الأسطر الاخيرة من هذا المقال ، أطبقها كلمة كلمة على عمليـة كانابا ، وأقول ان المثقفين الشرفاء الذين يريدون في النهاية « سياسة اخرى » ، سياسة ينفذها بتفاهم وثقة متبادلة يسار غير شيوعي والحزب الشيوعي ، « يدحضون هذه الافتراءات ويعتبرون هذه العملية تخريبية

مكتبة الفكر الجديد

لأنها تحركها أولاً روح الانقسام ، ولأنها تنـــاوىء مصالح الامة والبروليتاريا المتعانقة » .

أما ألا يشاطر المثقفون الشيوعيون دوماً رأي المثقفين غير الشيوعيين ، فهذا امر بدهي . وان يناقشوا بحزم ، وبقسوة اذا ارادوا ، فهذا شيء مرجو ، ولن نقـل قسوة عنهم : لكن مـــا نأباه عليكم **كل الاباء** هو الحق في ان تشتمونا. أتسخرون من ذلك ؟ أستلجؤون اليه دونما إذن ؟ على رسلكم : لكنكم تكونون قد خربتم من تلقاء انفسكم التجمع الذي تتمنون ان تشكلوه . ثم انكم ستظهرون ، على الاخص ، بمظهر مضحك : فـإذا كنت أدير مجلة « اميركية » – اتحدث عن نفسي حتى لا نضيع في اكثر من حالة واحـــدة – وإذا كنت مثقفاً – جاسوساً ، وإذا كنت أعير « ريش الوجودية » لنزعة «تحريفية بالية» ، فلمَ قبلتم بحضوري في مؤتمر فيينا وفي المهرجانات التي شاركتم فيهـــا ؟ لا بد من الاختيـــار : اذا كنت جاسوساً . فأنتم بلهاء . وإذا لم يكن الشيوعيون الذين التقيت بهم والذين اقدرهم أغبياء ، وإذا كان على الحزب على الاخص ان يكون « منبع تجديد بالنسبة الى المثقفين » ، اذن فلست بجاسوس ولا كوليت اودري بـ « تحريفية بلومية » ، انما الابله الوحيد هو كاتابا .

« الازمنة الحديثة » – العدد ١٠٠ – آذار ١٩٥٤ .

مكتبة الفكر الجديد

النزعة الاصلاحية والأصنام

من يتكلم ؟ هرفيه ؟ اشك في ذلك . فقد قرأت في الصفحة ١٠٤ : « ما عاد أحد يجهل ، باعتبار ان الصحافة والادب السوفياتيين قد اهتما بالموضوع ، ان التحريض والدعاية اللذين رافقا اكتشاف « مؤامرة الاطباء » ، قد حركا نوعاً من اللاسامية ، لا على الصعيد النظري بالطبع ، بل بشكل تسربات الى بعض قطاعات الحياة الاجتماعية [1] » . وانني لا أكاد أصدق ان هذه الانتقادات جاءت باطمئنان على قلم الرجل الذي وقّع في حينه اكثر مقالات الصحافة الشيوعية مدعاة للأسف .

الى من يتكلم ؟ انه لسر : فالقارىء مهما يكن لا يشعر انه هو المقصود . ان هناك افكاراً تظهر وتختفي تحت أنظاره ، وهو يشهد ألعابها ، لا أكثر .

وعمن يتكلم ؟ يقيناً، لا بد أن يكون المرء ساذجاً حتى لا يقرأ بين السطور: فمعروف من يقصد المؤلف . لكنه يتحفظ كبير التحفظ من ان يقول لنا ذلك . انه يتكلم عن الاشتراكية وامراضها ، واحياناً عن أحزاب شيوعية . أما عن الشيوعية الفرنسية ، فبالمرة تقريباً . انظروا المقدمة : « ان الميتافيزياء ، التي يمكن ان نسميها تطرفاً ايديولوجياً او ميلاً الى الايديولوجية المطلقة ، تنظر إلى الامور بغير هذا المنظار . فهي تنسب اولاً قيمة مطلقة ... » الخ . فما هذه الميتافيزياء ؟ من أين نبعت ؟ وفي مواضع أخرى يكون اشد غموضاً ايضاً :

---

١ – بصدد كتاب بيير هرفيه « الثورة والأصنام » – منشورات المائدة المستديرة .

مكتبة الفكر الجديد

« يحدث ... على ما يقال » . لمن ؟ اين ؟ لماذا ؟ انه لا يقول لنـــا ذلك . وإذا كان يشير الى اخطاء ، الى اغـــلاط ، فهو يفعل ذلك بشكل افتراضي : « ألا يمكن ان نتصور ان تقف قيادة حزب من الأحزاب الشيوعية موقفـــاً ذا طابع انقسامي...بل نستطيع ان نتصور بسهولة ان ظل الكتلة التي ارتفعت الى قيادة الحزب وفية لروحها ... ومن الواضح ان قيادة الحزب هذه ستسيء ، في هـذه الشروط ، الى فعالية سياستها اساءة فادحة وإن كانت هــذه السياسة صحيحة مبدئياً ... » . ان هذه الاحتياطات تخلق فراغـات في الجملة نفسها وتوحي في النهاية بشعور غريب بالغياب . أهو يريد أن يتكلم عن التزمت الاخـــلاقي السوفياتي ؟ اذن فهو سيبدأ بالاستشهاد بجملة لايلي فور[1]. ثم يدحضها ويضيف: « بيد اننا سنسلم لإيلي فور بأن التزمت الأخلاقي يعقم الفن والحضارة . وحـين يسيطر التطرف الاخلاقي النزعة على المجتمع ، فإننا نتردد في الاعتقاد بأن البشر قد زادوا خيراً عن ذي قبل ... ». اما عن الاتحاد السوفياتي فلا كلمة واحدة : بل على العكس ، انه سيؤيد الأطروحة التي تتعلق به بمثـــال الولايات المتحدة الطهرانية . وكل الظواهر تـــدل على انه يريد الكلام عن المجتمع في ذاته ، عن البشر في ذاتهم ، عن التزمت الاخلاقي في ذاته .

قد يقال : أين العجب في ذلـــك ! ان المسألة لا تعدو ان تكون أكثر من مسألة اسلوب . وصحيح ان هذه الصيغ عامة للغاية لكن تطبيقها ليس صعبـاً البتة : فخلف كل صيغة منها ، يكمن مأخذ محدد ، تكمن واقعة .

انني لست من هـــذا الرأي واعتقد ان الإنسان لا يحصر نفسه بارادته في التجريدات . ان هذا الكتيب المرتبط اوثق الارتباط بتاريخ محدد – لم يكن من الممكن ان يظهر في غير الظرف الراهن – يبدو وكأنه يقيم محاكاته من وجهة نظر الابدية . انه يلعب بالمفاهيم ، ويتفنن في تلوينها وتقليبها ، ويبدو وكأنـه يريد ان يستبدل ثقل التاريخ المظلم بلعبة من العلاقات الوظيفية بين المفاهيم . وانا لا اشك في ان للاشتراكية اصناماً، لكن لا يكفيني ان اعلم انها ظهرت « في قلب

---

١ – مؤرخ فن فرنسي (١٨٧٣ – ١٩٣٧) م . ه .

مكتبة الفكر الجديد

الثورة » : انما اود ان اعرف كيف ولماذا . واذا كان الحزب الشيوعي الفرنسي هو المقصود ، فلمَ تحاشى الكاتب بعناية بالغة الرجوع الى **واقعه الموضوعي** ؟ فبدلاً من ان يظهر لنا في الصنمية كلحظة محددة من لحظات التطور الاشتراكي ، يصورها كمرض انتقلت عدواه بعامل الصدفة ، مرض لا يحتاج البرء منه إلى أكثر من التوجه الى الحس السليم . اننا نستطيع ان نأخذ بشيء من العنف موقفاً مع أو ضد مؤلف يفضح شراً من الشرور ويدلنا على علله وعلاجاته . لكننا نقرأ دونما حماسة هذه الملاحظات المبهمة غير المحددة التي تختتم بمجرد امنية على شكل تساؤل : « ألن تتحرر الاشتراكية من سكولائية صنمية لتعود إلى روحها الاصيلة ؟ » . وأغرب ما في الأمر ان هذه المثالية تتجاوز المضمون : فبحجة العودة الى المصادر يُقترح علينا نوع من تجديد الماركسية يبدو لي ضعيف القدرة على اقناع الماركسيين انفسهم . فنظرية المعرفة التي يعارض بها نظرية الانعكاس ، لا أرى فيها أنا سوى نزعة منظورية اداتية[1] . والافكار حول المذهب الاصلاحي تبدو تبسيطية النزعة . ولقد نوهنا نحن انفسنا بالأخطار التي تتهدد الحزب الشيوعي في مجتمع تنعدم عملياً فيه انعداماً تاماً تقريباً حظوظ الثورة في الوقت الراهن : فعليه ان يجد طريقة بين نزعة ثورية تجازف بأن تكون فارغة من مضمونها وبين نزعة اصلاحية تنذر بتدمير ماهية الحزب . لكن التنويه بالمشاكل لا يكفي لحلها : ونظراً الى عجز هرفيه عن رؤية الصعوبات ، يتبنى في النهاية « نزعة اصلاحية ثورية » تبدو لي قريبة غاية القرب من النزعة التي كان يدعو اليها جوهو[2] . ان هذا المؤلف يأخذ على القادة الشيوعيين تفاؤلهم الدوغمائي ، لكن ليقع في التفاؤل النسبي الطابع .

ما سبب ذلك ؛ ما السبب في انه لم يكتب واحداً من الكتابين اللذين كان

---

١ – المنظورية نظرية تقول ان كل معرفة نسبية ومنوطة بمنظور الذات العارفة وبحاجاتها . والاداتية مذهب يعتبر الذكاء والنظريات ادوات تستهدف العمل أولاً . «ه.م.»

٢ – ليون جوهو : نقابي فرنسي – سكرتير الاتحاد العام للشغل – (١٨٧٩ – ١٩٥٤) – جائزة نوبل للسلام . «ه.م.»

مكتبة الفكر الجديد

بإمكانه ومن واجبه ان يكتبها : تاريخه او تاريخ حزبه ؛ ان تفسير ذلك لا يحتاج الى كلام كثير : لقد اراد ان يقوم بمناورة .

لست اقصد بهذه الكلمة ان اقيّم النهج : انما احدده . ان هدف المؤلف ان يوقظ بعض الصدى في الحزب ، وان يقنع او يعزز قناعات . ولهذا كان بحاجة الى **واقعة** . ولم يتأخر هرفيه عن ركوب المجازفة : فعرض نفسه عن عمد للاستبعاد آملاً ان يثير هذا التدبير الانضباطي نقاشاً يمكن ان يكون اساساً لإعادة تجمع ، ووضع افكاره في مؤلف انزل الى السوق . اذن فحتى يصل الى بعض الافراد ، اختار ان يخاطب الجميع . ووجه الى رفاقه في الحزب الشيوعي **من الخارج** الرسالة التي قدر – عن صواب أو خطأ – انه لا يستطيع ان ينقلها اليهم **من داخل** الحزب . وهكذا تلقوا الكتاب من العالم البورجوازي ، كما لو انه دليل هاتف او آخر جائزة من جوائز غونغور ، في الوقت نفسه الذي تلقاه فيه البورجوازيون انفسهم .

والى هذا يرجع التباس الكتاب . فهرفيه لم يكن يجهل ، عندما كتبه ، انه سيُقرأ لا من قبل اراغون وفايان وكلود روا فحسب ، بل ايضاً من قبل اناس مختلفين اختلاف جان بيير دافيد ومارتينه . فكيف كان يمكنه ألا يأخذ بعين الحساب هذا الجمهور ؟ ان مؤلفنا يرفض منح الخصوم اسلحة ، ولا يؤلمه ان يقدم للاصدقاء السياسيين حججاً . ومن هنا اصبحت هذه الرسالة الموجهة من شيوعي الى شيوعيين كتاباً يتكلم علاوة على ذلك **عن** الشيوعية لقراء ليسوا من الحزب . وهذا هو المظهر الثاني للمناورة : انه محاولة لإحراج الحزب الشيوعي . فهل سيجرؤ على ان يدلل على التسامح تجاه وجود كل ذلك اليسار اللاعضوي او المنظم جزئياً الذي يأمل ان ينضم الى الجبهة الشعبية عاجلاً أو آجلاً ؛ واذا ما تردد واذا ما ناقش، أفليس هذا تحرراً ، تقدماً ؟ وهكذا يجد اليسار المستقل نفسه وقد عهد اليه بدور الحكم [1] . لقد جاء الكتاب في حينه : فحين كان

---

١ – بديهي ان الحزب الشيوعي يرفض الاقرار له بهذه الصلاحية . وسوف اعود الى المسألة فيما بعد .

مكتبة الفكر الجديد

الحزب منطوياً على نفسه نظراً الى عزلته وحصاره ، هـــل كان هرفيه يفكر بكتابته ؟ لكن عندما يكون اتحاد اليساريين مطروحـاً على بساط البحث ، فإن عدداً لا بأس به من الشيوعيين يتعرضون ، كما هو طبيعي ، الى جاذبية من يريدون ان يجذبوهم اليهم . ان فحوى رجاء هرفيه هو : « هل سيسمع فرنسيون غـــير شيوعيين هذا الصوت ... ؟ هل سيسمع فرنسيون شيوعيون هـــذا النداء ... ؟ » . ان هرفيه يتوجه الى جبهة شعبية مستقبلة ويتخذها حكماً على مشاداته مع الحزب . ومن هنا بالذات يحدد مستوى ودلالة الجبهة الشعبية التي يتمناها : انها ستكون عبارة عن يسار اصلاحي النزعة . فتحت ضغـــط الشيوعيين سيكسب فيها غير الشيوعيين مبادىء وروحاً منطقية متماسكة ونظرة واقعية الى الامور . وتحت ضغط غير الشيوعيين ستتراخى في النهايـــة قبضة « دوغمائية » الشيوعيين الصارمة المترفعة » .

هذه هي المناورة ، وهي لا تستأهل الشنق . لقد دلل المؤلف على عـــدم انضباطه لكنه لم يهاجم الحزب البتة ، بل على العكس تماماً : فجلّ مناه ان تناقش فيه أفكاره لانه يراها مفيدة وصحيحة . وإذا مـا أخطأ ، فعن خلوص نية . بيد انني افهم غضبة بعض المناضلين حـــين رأوا « أصدقاءهم » اليساريين يطيرون لنجدة هرفيه . فقد نشر هؤلاء الاصدقاء المخلصون مقاطع من « الثورة والاصنام » في الوقت الذي كان فيه هذا الكتاب مختفياً من المكتبات . وهذه المقاطع التي جرى اختيارها بعدم حذاقة او بحذاقة أكبر مما ينبغي ، عززت الاعتقاد بأن الكتاب ذو أسلوب جدالي حاد ، في حين ان هرفيه ، كما رأينـا ، قد تحفظ من الانجرار وراء ذلك . وتكفل بالباقي اهتمام زائد عن حده بشكل ملحوظ وتوجسات جرى التعبير عنها جهاراً : وهكذا خلق اليسار غير الشيوعي بدعمه القوي للمناورة قضية هرفيه . ومهما يكن رأي المناضل في هذه القضية ، فإنه يقول في نفسه ان أصدقاءه يريدون له الخير اكثر مما ينبغي ، ويجد نفسه ميالاً الى مخاطبتهم بهذه العبارات : « نستطيع ان نتفق للحال حول الفصول الكبرى في السياسة الفرنسية . لكن هـــذا الاتفاق لا يمكن ، لطبيعته بالذات ، ان يمس

مكتبة الفكر الجديد

القضايا الداخلية لكل جماعـــة دخلت في الاتفـــاق ، وتفاهمنا حول السياسة الخارجية او الاجتماعية لا يعطيكم حق النظر الى ما يجري عندنا » . وبصدد هذه النقطة ، لا استطيع إلا ان ارى ان الحق معـه . ان إقصاء هرفيه سيكون مؤسفاً [1] . لكنـه سيكون مؤسفاً بالنسبة الى اعضاء الحزب : انهـــا مسألة انضباطية لا تعنينا .

لكن قضية هرفيه ، من وجهة نظر أخرى ، تعنينا جميعاً . فأولاً ينبغي ان نطلب من الشيوعيين أن يسيروا بواقعيتهم حتى النهايـة : فما تم ومـــا لا يمكن الرجوع عنه هو الكتاب الذي يخصنا بقدر مـا يخصهم . لقد ظهر ، فاشتريناه وقرأناه . ومن الممكن ان يُفضح ويُشهَّر به ، لكن من غير الممكن ان يُهرس ويعدم من الوجود . لقد علقت عليه الصحافة البورجوازية ، وكرست له صحف اليسار عدداً من المقالات ، واتخذ موقفاً منه اثنان من أعضاء الحزب الشيوعي ، أحدهما في « الاومانيته » والثـــاني في « فرانس نوفيل » : وهذا كله علناً وجهاراً . إذن فقد أصبحت القضية من اختصاص الحق العام . والحال ان كل مثقف ، كل جماعة من المثقفين ، كل حركة فكرية تحدد نفسها بصورة مباشرة او غير مباشرة ، وبقدر ما تكون « يسارية » بدلالة الماركسية وبالنسبة إليهـا . إن من هم في سني يعلمون ذلك حق العلم : ان الحدث الاكبر في حيـاتهم لم يكن الحربين العالميتين بقدر ما كان تواجهاً دائمـاً مع الطبقة العاملة ومع ايديولوجيتها التي تقدم لهم رؤية لا يمكن دحضها عن العالم وعن انفسهم : ان الماركسية بيننا ليست مجرد فلسفة : بل هي مناخ افكارنا ، الوسط الذي تتغذى منـه ، الحركة الحقيقية لما يسميه هيغل **الفكر الموضوعي** . اننا نرى فيها ثروة ثقافية لليسار . بل انها وحدها **الثقافة** منذ ان مات الفكر البورجوازي ، لأنها هي وحدها التي تسمح بفهم البشر والأعمال والأحداث .

تلكم هي الماركسية ، على الاقل كما يجب ان تكون . لكننا مرغمون مـع الأسف على ان نراها أيضاً كما هي . ان الحزب الشيوعي ، المحمول من قبـــل

---

١ – كتب قبل قرار اللجنة المركزية .

مكتبة الفكر الجديد

التاريخ ، يظهر ذكاء موضوعياً استثنائياً : فمن النادر ان يخطىء ، وهو يفعل ما فِعلُه واجب . لكن هذا الذكاء – الذي يختلط بالممارسة – لا يتجسد في غالب الأحيان في مثقفيه . ولكم نتمنى لو ان الاداة المدهشة التي يملكونها تمنحهم تفوقاً ساحقاً على الذين يفكرون كيفما اتفق ! ان عالم **الفكر** لهم : فليس عليهم إلا ان يأخذوه . لكنهم يتمنعون : فلكأنهم يقيمون حصاراً ، ولكأن الماركسية قلعة بحاجة الى دفاع . ومن حين لآخر يطلون إطلالة ، بهدف اعادة توكيد المبادىء ورد المهاجمين لا اكثر . لكنهم لا يتوصلون الى إيهامهم : فهم لم يحتفظوا بمفردات الهجوم إلا ليذرّوا الرماد في العيون عن موقفهم **الدفاعي** . وبودنا لو نسألهم : من يهاجمكم ؟ من يحاصركم ؟ ان الخصم ، في ميدان الصراع العيني والمعارك السياسية والاجتماعية ، قوي ،ومآل المعركة غير مؤكد أحياناً . لكن البورجوازية في سبيلها الى هجر الثقافة : فهي ما عادت تفكر بشيء البتة ، وافكارها ، عند الاحتكاك بالماركسية ،تموت من غير ان يحتاج الماركسيون الى تحريك اصبع صغير . وحين يسعى فلاسفتها الى دحض الفكر العدو ، يتبينون انه مقيم عندهم . وبودنا لو نقول لمثقفي الحزب : ان هذه الحيوية المدهشة هي حيوية ماركس ولينين ، حيوية ايديولوجية يعززها التاريخ باستمرار . انها ليست حيويتكم ، ومع ذلك لو صمم الفكر الشيوعي على التفتح لما لاقى أي مقاومة . لقد آن الأوان بالنسبة اليه ليقارع الفلسفات البورجوازية الاخيرة وليفسرها وليحطم قوقعتها وليتمثل جوهرها . فماذا ينتظر ؟ ان الوحيد الذي حاول في فرنسا محاربة الخصم ، في ميدانه بالذات ، هو تران دوك تاو ، عضو الحزب الشيوعي الفيتنامي . والوحيد في أوروبا الذي يحاول ان يفسر حركات الفكر المعاصرة بأسبابها هو شيوعي مجري ، لوكاش الذي لم يُترجم له كتابه الاخير . ان العالم الماركسي مليء بالصحارى والاراضي غير المستكشفة : أفلم يعد هناك شيء يقال عن الاقتصاد الرأسمالي ؟ والاقتصاد الاشتراكي ؟ إن السوفياتيين يتكلمون عن تناقضاته : فهل ينبغي ان يترك اصدقاؤهم الفرنسيون للبورجوازيين مهمة دراستها ؟ لو تمعنّا في العلوم التاريخية

مكتبة الفكر الجديد

لوقعنا على المفارقة التالية : ان المؤرخين يميلون الى الماركسية رغماً عنهم ، لكن الماركسيين لا يؤدون عمل مؤرخين . ان الكتب التي خطت بالمعرفة الى أمام ، كتب بلوخ وجورج لوفيفر وغيومان ، ومؤلفات ليفي شتراوس الباحثة في السلالات البشرية ، وأعمال فرانكا ستل عن الرسم ، الخ .. لم يؤلفها **البتة** شيوعيون . قد يقال بالطبع انها بعيدة عن ان تكون مرضية بالنسبة الى الماركسيين : لكن هذا على وجه التحديد لأن الماركسيين ألقوا على عاتق غيرهم مهمة كتابتها . لقد أكد لي مؤخراً أحد مثقفي الحزب الشيوعي ان الانطلاق من منظور الماركسية يتيح الفرصة ، اكثر من أي منظور آخر ، لفهم لا الجماعات فحسب ، بل ايضاً الأفراد الذين تتكون منهم . وليس أحلى على قلبي من ان أصدقه ، لكن ماذا ينتظر الماركسيون ليبرهنوا على ذلك بدراسات عينية ؟ ان تأريخاً ماركسياً لسيرة روبسبيير أو تيير أو ليون بلوم ، ألا يفسح المجال أمام ابتكار منهج جدلي لما يوجد بعد أو يتلخص في بعض صيغ موجزة مفتقرة الى التطبيق العملي ؟ ان اعمال هنري لوفيفر لا تخلو من الفائدة ، ويفيدها أن تتعمق ، فما الذي يثبط عزيمته ؟ إن علم النفس ، منذ دراسات بوليتزر الجديرة بكل اهتمام ، آسن في مكانه لا يتحرك : فلماذا ؟ ان الثقافة الفرنسية ، بين آخر شعوذات البورجوازية التي فقدت كل كبريائها وبين صمت المثقفين الشيوعيين العنيد ، تستحيل **آثاراً دارسة** . واننا لنحيا ، نحن المثقفين ، في غاز قليل الكثافة . ولا شيء يأتي ، من انى كان . وبدون أوكسجين نشعر بالاختناق يدب فينا . ولا يقل أحد إننا نطالب ، كما فعلت مجلة « اسبري » ، بماركسية « مفتوحة » اننا لا نطلب شيئاً من الماركسية سوى أن **تعيش** ، أن تنفض عنها غبار كسلها الفكري المجرم لتعطي الجميع ، دونما امتيازات ، ما يتوجب عليها أن تعطيه .

في لحظة الانتظار هذه ظهر كتاب هرفيه . إنه يساوي ما يساوي . إنه ليس فرصة كبيرة لكن كل فرصة صالحة . أهو مثالي ؟ اصلاحي ؟ هذا صحيح . لكننا نتمنى جميعاً ان يناقشه خصومه . لأن النقاش في رأينا يعني

مكتبة الفكر الجديد

الفهم والتجاوز ، وبالتالي الاغتناء . ولا يكفي أن نُعطى هـذا « الكتيب الفاضح » كمجرد تعبير خالص عن انحراف انتهازي يميني . فالانحراف الانتهازي ليس مفهوماً مجرداً ولا كياناً مماثلاً لنفسه دوماً . والواقع أن هناك انحرافات ، لكل منها طبيعته الخاصة ، يولدها الزمن ويلونها التاريخ بألوان مختلفة . واذا ما حاول المثقف الشيوعي أن يسلط الضوء على أسباب هـذا الانحراف ، تبين بـلا شك ان له مبرره للوجود في الظرف الدولي وفي تطور الصراع الطبقي في فرنسا وفي **الواقع الراهن** للحزب في آن واحد . ذلك ان المرء لا يستطيع ان يدحض شيئاً دحضاً قيماً بدون أن يضع ذاته موضع تساؤل .

وبدلاً من ذلك ، ماذا يفعلون ؟ انهم يتناولون الكتاب بـلاقط ، ويرمونه باشمئزاز ، بدون ان يمسوه . والنتيجة : انهم يزعمون انهم يردون عليه فإذا بهم يظهرون انه على حق ، كل الحق . لقـد كتب هرفيه : « ان نتيجة التطرف الايديولوجي هي حظر الانتقادات والنقاش ... ومـا دامت هناك حاجة الى إنهاء حظوة الرجال الذين يرتكبون أخطاء ، أفلا يتعرض الانسان ، اذا مـا وجه انتقاداً طفيفاً ، الى أشد الاتهامات تلويثاً للشرف ؟ ». لقد كنت واثقاً من أنه يبالغ ، وان هذا المأخذ اذا كان صحيحاً ذات يوم فهو لم يعد كذلـك اليوم . والحال انني قرأت مقال السيد غي بيس المنشور في « الاومانيته» في ٢٥ كانون الثاني ، ووجدت ما يلي : « الحقيقة ان السيد دالس ما كان في مقدوره أن يحلم بمعلق أكثر وداعة ... ان الرجعية تستخدم هرفيه كما استخدمت غيره من قبل ... ما اضحكها وأصعبها من محاولة رجعية ! » . حسناً ، انني اقولها بكل صداقة للسيد بيس ، إن خمود الهمة العابر الذي سقطت فيه قـد سببه هو نفسه لا كتاب هرفيه .

ان هرفيه لم يخدم الرجعية : اقرأ مقالات السيدين سيران ومونرو . أهـا يفركان أيديهما سروراً ؟ على الاطلاق. بل يقولان لنا ما معناه: « اننا لا نتدخل في هذه القضية ، فهي خصومة بين شيوعيين » . وقد نُقلت ألي هذه العبارة اللذيذة السذاجة التي فاه بها واحد من اعداء الشيوعية المـأذونين : « حذار من

مكتبة الفكر الجديد

اتخاذ موقف: فالمسألة لا تعدو ان تكون اكثر من مناورة . ان الحزب الشيوعي يريد أن يتحرر كيما يجـــذب الاشتراكيين : فضحّى هرفيه بنفسه . وسوف يتبرأون منه، لكن المسألة تظل مطروحة ». وخلاصة القول ان الرجعية تغسل يدها من القضية . أو تعرف السبب ، يا سيد بيس ؟ لأنها تخشى أن تناقشوا . ذلك ان المهم ليس الكتاب، وليس هو الذي يستطيع أن يخدم قضيتكم أو يلحق بها الأذى : بل هو الموقف الذي سيتخذه حياله المثقفون المسؤولون في حزبكم .

ثم ماذا ؟ وعلى فرض ان الرجعية ستستفيد قليلاً من النزاع ؟ اي أهمية لذلك اذا كان الكسب الاكبر سيعود اليكم ؟ أتجهـــل أن الصحف الرجعية تتغذى من « البرافـــدا » ، الصحيفة الرسمية للحزب الشيوعي السوفياتي ؟ فما ان تشير الى حادث من حوادث سوء استعمال السلطة ، وما ان توجه انتقاداً الى البيروقراطية حتى يعاد نشر المقـــال في « الفيغارو » او في « باريس – بريس » . أهي إذن خدمة للرجعية ؟ لقد أجاب على ذلك مؤخراً احد القـادة السوفياتيين : « لن نكف عن انتقاد انفسنا وعن تصحيح أنفسنا ، حتى ولو قدمنا غذاء الصحافة البورجوازية » . فكيف تجرؤ ، في هذه الشروط ، ان تطلق اسم « معلق تابع لدالس» على رفيق من رفاقك أخطأ عن حسن نية وصدق؟أصحيح إذن أنّ هناك « حاجة الى انهاء حظوة الرجـــال الذين يرتكبون اخطاء » ؟ كيف تجرؤ على الكتابة بأن الرجعية « تستخدم هرفيه كما استخدمت غـــيره من قبل » ، وهي جملة ملتبسة توحي بأن الرجعية تدفع له ؟ ثم كيف تنتقل ، بقفزة مدوخة ، الى القول بأن الكتاب هو في حد ذاته محاولة رجعية ؟ إذا كنت تؤمن بما تكتبه ، وإذا كنت تعتقد اننا سنصدق ذلك ، فهذا معناه انك ما عدت تستطيع تمييز النملة من الحصان . اما اذا كنت لا تؤمن بما تكتبه، واذا كنت تعرف ان قراءك لن يصدقوا ذلك هم أيضاً ، فماذا يتبقى اللهم سوى ثرثرة لاغية ، او بعبـــارة أخرى ، سوى صمت يثير ضجة اكبر مما ينبغي ؟

بعد بضعة أيام قرأت توبيخات السيد اندريه فوغيه في « فرانس نوفيل » ، واكتشفت فيها ، بدون مرح ، أقسم على ذلك ، هذه السذاجة الفظيعة : « لقد

مكتبة الفكر الجديد

امتنع عن عرض هذه **النظريات** على الحزب قبل نشر كتابه . لا لأن النقاش غير موجود في الحزب كما يزعم بل لأنه كان يعلم انه سيهزم في مناقشة تسير في مجرى طبيعي » . حسناً ، اجل : هذا هو على وجه التحديد ما يتشكى منه هرفيه : فالنقاش بالتأكيد حر ، لكنه حين « يُسيّر » في مجرى « طبيعي »، فمن الممكن سلفاً معرفة من الذي سينهزم . وكنت قد بدأت أتساءل اذا كان أصدقاؤنا الشيوعيون لا يزالون يعرفون معنى كلمة « نقاش » حين وقعت ، وانا أفتح « الأومانيته » ، على رد السيد فاجون على كلود مورغان . فقلت في نفسي : « مرحى ! تبادل رسائل : هذا شيء رائع . فالقارىء سيصدر حكمه وهو على بينة من أمره » . لكني بعد أن قرأت رد فاجون ، بحثت عبثاً عن رسالة مورغان التي رد عليها . بيد ان ما نشرته « الاومانيته » كان ادانة لا تقبل استئنافاً لنص أبقته طي الكتمان . ان هذه الطريقة التي لا تصدق ، لا تستخدم بكل اطمئنان إلا لأنها لا تصدم . وإذا كانت لا تصدم ، فأين نحن سائرون ؟

ان هرفيه يشير الى « تململ » يقول انه لاحظه لدى مثقفي الحزب . فيجيبونه : « هات أدلة ! » . وهو بالطبع لا يستطيع أن يقدمها : فميزة التململ انه يفلت من كل استقصاء او تحقيق . لكننا نحن الذين لسنا في الحزب ، نقدم دليلين على هذا الداء المتكتم الخفي . وهذان الدليلان هما غي بيس وبيير هرفيه . واسمحوا لي بأن أدعوهما مسخين : فالأول يجسد الدوغمائية الضيقة والادانة الفظة ورفض التمحيص، والثاني قد جسد هذا كله في حينه هو الآخر : فقد رأى من غير ان ينفعل ادانات تصدر في الوقت الذي كان فيه فم الدفاع مكموماً . لكن تحت درع المعتقدات الجامدة ، وتحت كل صلابتها ، وعبر مئة تواطؤ ومشاركة في الذنب ، تبرعمت في رأسه فكرة جديدة . فنقض في العزلة ، في الصمت ، ولاشعورياً في البداية او بصورة شبه لاشعورية ، نقض بعض المبادىء التي كانت **ايضاً** مبادئه ، وبعض المواقف التي وقفها هو ايضاً . وقد حاول ان يعيد طرح كل شيء على بساط البحث ، وان يعود الى المصادر والمنابع ، وان يتحرر ليحرر حزبه . فما كانت النتيجة ؟ نزعة اصلاحية مثالية :

مكتبة الفكر الجديد

فقد كان يريد ان يدفع الحزب ، ان يجعله يتقدم ، فإذا به يسقط الى وراء . ولن أتردد في القول ان هذين المسخين قد صنع كل منهما الآخر: فالذين على شاكلة بيس هم الذين صنعوا من هم على شاكلة هرفيه . وما كان سيحمي بيير هرفيه من النزعة الاصلاحية هو وجود ماركسية **حية**، انا اكرر ذلك . لا أعني مناقشات وخطباً ثرثارة : بل **اعمالاً** . ابحاث ، تنقيبات ، فتوحات ، وفي النهاية ثقافة . لكن ههنا يكمن لب المشكلة : فالماركسية في فرنسا قد توقفت . واذا اراد الانسان ان يسير وحده الى ما وراء المعتقدات الجامدة ، سقط فيها من جديد . لكنه إذا رفض اغراء الحركة بدافع الوفاء للحزب ، لا يبقى امامه غير ان يتشبث بالمبادىء ، وتوجب عليه الاكتفاء **بالتكرار** . غي بيس وبيير هرفيه : نصفا انسان ، تناقض جامد بين السكون المجرد والحركية المفتقرة الى قاعدة .

انها لمناسبة سنحت لنا لنقول لاصدقائنا الشيوعيين دفعة واحدة ما نتمناه منهم : « ان حرية النقاش ، داخل الحزب ، مسألة لا تعني أحداً غيركم . وعلى كل فإن اللاشيوعيين الذي يطالبون بها قد ضللتهم الليبيرالية . فهم يضعون المحاريث امام الجواميس : فحتى يناقش المثقفون ، لا بد أن يكون هناك **شيء ما** يتوجب نقاشه . لكن بالضبط لا وجود لأي شيء سوى كتاب هرفيه . اننا لنود في الحقيقة ، ان توفروا للمثقفين الشيوعيين شروط ثقة وأمان حتى يمكن للفيلسوف ، للاقتصادي ، لعالم السلالات البشرية ، للمؤرخ ، لعالم النفس ، ان يستعيدوا الرغبة في الشروع بأبحاث عينية، وفي رفد الماركسية ، اي **ثقافتنا** ، بمساهمتهم . انني اعرف الكثيرين من الشبان الذين جاءوا الى الحزب الشيوعي او الذين سيجيئون اليه لأن الماركسية هي بالنسبة اليهم الحقيقة المتحركة والطريق الملكي الى المعرفة في آن واحد : ان ما يعهدون به اليكم هو مصيرهم كباحثين علماء . انهم ممتلئون طاقات ، ممتلئون قدرة ، ممتلئون أملاً : فإذا اتاحت لكم القضية الراهنة فرصة للحيلولة دون ان يصبحوا ذات يوم على شاكلة هرفيه او بيس ، وإذا اتاحت لنا الفرصة لرؤية زمن من هم من امثال بوليتزر من جديد ، فأعتقد اننا نكون قد ربحنا جميعاً » .

« الازمنة الحديثة » -- العدد ١٢٢ – شباط ١٩٥٦ .

مكتبة الفكر الجديد

رد على بيير نافيل

بصدد « قضية هرفيـــه » ، شاء السيد بيير نافيل ان يكرّس عني بضع صفحات في « الأوبسرفاتور » بتاريخ ٨ آذار الماضي تحت عنوان : « مغامرات نكراسوف العاثرة » . وقد وجدت فيها مناسبة للعودة الى مقـــالي المنشور في عدد الشهر الماضي ، وسأستغل المناسبة أيضاً لإبداء بعض ملاحظات عن طبيعة العلاقات التي يتوجب على « اليساريين » ان يحافظوا عليها أو يقيموها فيما بينهم .

(١)

نافيل متفق معي بصدد عدة نقاط : فهرفيه قد كتب ، بدافع الانتهازية ، مقالات « لا تعذر » في الماضي ، كما كتب ، بدافع الانتهازيـــة أيضاً ، مؤلّفاً « زهيداً » عن أصنام الثورة . لكن من هذه المقدمات المشتركة يزعم نافيل انـه يستخلص نتائج معاكسة لنتائجي . ففي الوقت الذي « يسعى فيـه هرفيه الى التملص من الأوامر البيروقراطية ويقبـــل بأن على الماركسية ان تتقدم ، أمن المناسب تبكيته باسم أورثوذكسية الحزب ؟ » . انني انفي ان أكون قـــد « بكّتُّ » هرفيه : فليس ذلك من شأني . إنمـا قلت مـا رأيي في كتابه الذي يكن أكبر عيوبه ، في نظري ، في رداءته . وإذا كنت قد وصفت فكره بأنه « إصلاحي » ، فليس ذلك باسم أورثوذكسية الحزب ، بل بكل بساطة لان الإصلاحية موقف موضوعي يعلن من تلقاء نفسه عن ماهيته دونما إحالة الى اي مذهب رسمي . إننا حيال مشكلة لم تجد بعد حلهـــا الفعلي ، فقد كتبت : في

مكتبة الفكر الجديد

سنوات التعايش السلمي (إن كان هناك تعايش) كيف سيجد الحزب الشيوعي طريقه بين « نزعة ثوريـة تجازف بأن تكون فارغة من مضمونها وبين نزعـة إصلاحية تنذر بتدمير ماهيـة الحزب ؟ » . ذلكم هو السؤال : والمناقشات التي جرت مؤخراً في قلب الاتحاد العام للشغل هي التي طرحته . والمحاولات جارية على قدم وساق منذ ذاك لحجبه عن الأنظار ، لكنه يولد من جديـد باستمرار ، وأحداث الجزائر تعطيه صفة عاجلة للغاية . ولقد زعم هرفيه انه أجاب عليه ، لكنه لم يفعل ذلك ، هذا كل شيء . فهل كان من الواجب التستر على فشله ؟

يتساءل نافيل بصراحة ساذجة : « لمَ لا ؟ » . وهذه الصراحة لا تدهشني : فنافيل حسير النظر ، وحتى يوهم نفسه بأنه يفهم ، لا بد أولاً ان يبسط الأمور . اما ما يدهشني حقاً فالحجج التي يستند إليها . انـه يقول : « ليس المطلوب أن نعرف ما يقال فحسب ، بل ايضاً باسم اي شيء يقال ، وفي اي وقت ، وبأي هدف ، الخ » . إن الناس أجمعين متفقون على هـذه الحقائق البديهية . ولكن كيف لم يرَ انها تنقلب ضده ؟ وإني لاستنتج انا ان توكيداً واحـداً يمكن ان يكون حيـاً وصحيحاً او خاطئاً وجامداً تبعاً للعرض الذي ولده ، وللسياق الذي يحيط به ، وللمستقبل الذي يعلن عنه . لقد تمنى هرفيه « ان يُسمح بشيء من حرية النقاش (في الحزب) » . هـذا حسن : لكن اللاشيوعيين جميعاً ، من المعلقين البورجوازيين الى السيد نافيل ، لم يكفّوا قط عن إبداء أسفهم من غياب هذه الحرية . بيد ان حياة السيد نافيل وتآليفه والنضالات التي خاضها وموقفه الراهن ، ومئة اعتبار آخر تحول دون مقارنتـه بأي صورة من الصور مع محرر من محرري « الفيغارو » . إذن فلا بد من ألا يكون لهذا المطلب معنى واحـد على لسانه ولسان السيد بريسون[1] . والواقـع أن البعض « يطالب بحريـة النقاش » من قبيل التحدي ولانه يعلم انهـا مستحيلة ابـداً في الحزب . ويرى آخرون انـه لا يمكن الحصول عليها إلا بثمن قطيعة بـين الحزب الشيوعي والاتحاد السوفياتي . وآخرون هم من أنصار ليبرالية اصلاحية . وفريق رابـع

---

١ – بيير بريسون : مدير الفيغارو . « ه . م »

مكتبة الفكر الجديد

واخير يبحث عن هذه الحرية في « عودة الى اللينينية ». وفي مثل هذه الشروط لا يكفي ، كما كتب السيد نافيل ، ان نعرف مـا يقوله هرفيه بل **باسم أي شيء** يقول مـا يقوله . ولا يكفي ان يهاجم ستالين لنقف بلا شروط الى جانبـه . يقول السيد نافيل : « آه ! لكن هذا لأن هذا الكتيب يبين عن ازمـة الحزب الشيوعي » وهذا ما كتبته أنا نفسي تقريباً في المقـال الذي يكيل إليه التهم : لكن كتاب هرفيه قد يكون « مبيناً » عن هذه الازمة ، من غير ان يعني هذا انه يعكسها بأمانة . انه معلولها لا تعبيرها . ان المثقفين الشيوعيين يعيشون في حالة من الحرج لكن معظمهم لا يوافق على موقف هرفيه . إنهم يتمنون مثله ان تتقـدم الماركسية لكنهم لا ينظرون الى هـذا التقدم بمنظار واحد : انمـا في الحزب ، ومن اجـل الحزب ، وبدون الخروج على الانضباط وبـدون تناسي تقاليدهم، يريدون ان يخوصوا النضال ويتجاوزوا التناقضات الآنية. ومهما تكن التبدلات التي يشهدون ولادتهـا ، بمزيج من الامـل والتطير ، فإنهم يريدون ان يعيشوها في استمرارية تاريخهم وان يدمجوهـا بتاريخ حزبهم . وليس هدفهم لا ان يوجهوا انتقـادات سلبية ولا ان يطلقوا إدانات مجردة [1] ، بـل ان يغيروا

---

١ – اذا كانت « الأرمانيته » قد اتخذت احتياطات كثيرة لنشر أحكام المؤتمر العشرين على ستالين ، فليس ذلك فقط ولا على الأخص لأن قـادة الحزب يمكن أن يجدوا فيهـا استهجاناً لنشاطهم الماضي : وانما أولاً لأن عبادة ستالين ، التي مورست عشرين عاماً ، لها جذور عميقة في قسم من البروليتاريا الفرنسية. ان دوام هذه العبادة وهـذه الأسطورة يجب ان يفسر بأسباب خاصة بفرنسا ، ما دام شيوعيو ايطاليـا – على سبيل المثال – لم يحرجوا بالقدر نفسه . وأنا ، من جهتي ، أرى ان سبب ذلك يكمن في جمود اقتصادنا الذي أبد الانقسام داخل الطبقة العاملة وأرغم العمال الشيوعيين والمناصرين للشيوعية لمدة عشرين عاماً على الوقوف موقفاً دفاعياً حيـال رفاقهم الاشتراكيين او المناصرين للاشتراكية . ان التوقف المصطنع في الحركة الاقتصادية قد عزل العمال المنتسبين الى « الاتحاد العام للشغل » في قلب الأمة : فأصبحت الأسطورة الستالينية – التي شجعها ونماها بالطبع القادة – بالنسبة الى كثيرين رد فعل دفاعياً ضد هذا الانعزال وهذا الجمود . والى اليوم أيضاً – مـا دام الجمود والانعزال مستمرين بالرغم من الآفـاق الجديدة – ليست المشكلة في فرنسا مشكلة ادانة عبادة الشخصية جهاراً (وهذا شيء لا بد من فعله بادىء ذي بدء بالطبع) ، بقدر ما هي مشكلة تحويل الحزب تدريجياً بدلالة هذه الادانة .

مكتبة الفكر الجديد

الوضع الراهن بإغناء إيجابي وعيني للمعرفة . امـا إذا خلطنا كل شيء ، كما يفعل نافيل ، ولزمنا الصمت متعمدين عن الاطروحات الاصلاحية والمثالية النزعة في مؤلف من المؤلفات لمجرد اننا نجد فيه وسيلة لمهاجمة عبادة الشخصية او معصومية الحزب ، فنكون قد اثبتنا اننا نعتبر كل مناسبة صالحة للثلب والتعيير . ولا بد للمرء من ان يكون دوغمائياً فعلاً ومكابراً حقاً حتى يكتب : « لعل الفرصة التي يتيحها له كتاب هرفيه والمؤتمر العشرون للحزب الشيوعي ليقول ... » من دون ان يدرك انه لا يمكن ان يُستخلص من الكتاب المذكور ما يمكن استخلاصه من خطابات خروتشيف وميكويان .

وعلى كل الأحوال ، ليس على هذه النقطة يصبّ هرفيه جام غضبه ، فمثـل هذا العمل سيتطلب منه جهداً شاقاً : ذلك انني كتبت ، في النهايـة ، ومهما تكن التحفظات التي ابديتها بصدد « المناسبة » ، كتبت في المقال الذي يهاجمـه ان العلم لا يمكن ان يتطور بدون حرية . لكن لما كان لا بد له من الصراخ ، فقد اختار ان يركز كل مقاله حول نقطة تفصيلية ؛ كنت قد كتبت : « ان الحزب الشيوعي ، المحمول من قبل التاريخ ، يظهر ذكاء موضوعياً استثنائياً : فمـن النادر ان يخطىء ، وهو يفعل ما فِعلُه واجب . لكن هذا الذكاء – الذي يختلط بالممارسة – لا يتجسد في غالب الأحيان في مثقفيه » . ثم اضفت : «ان الماركسية في فرنسا قد توقفت » . وهذا يكفي لتبرير ثلاثة اعمدة ساخطة : إذ يبدو انني ناقضت نفسي ولم افهم شيئاً من كل القضية . يا للادّعاء ! ان أدعياء الماركسية لا يعيرون الآخرين شيئاً ابداً – وعذرهم هـو فقرهم – وعندما لا يفهمون نصاً من النصوص ، يتصورون ان مؤلفه غبي على شاكلتهم .

غني عن البيان انني أخـذت « الماركسية » بمعناها الشائع ، بالمعنى الذي كتب لينين على أساسه – ذلك انه لا بد من تثبيت الاستشهادات مع الادعياء : « ان واحـداً من اسوأ التشويهات التي اصابت الماركسية ... هـو الكذب الانتهازي ... فقد (اتهم) برنشتاين الماركسية بالبلانكية[1] » ، أو : «المظاهر

---

١ – « الماركسية والتمرد » – ٢٦ ايلول ١٩١٧ .

مكتبة الفكر الجديد

المختلفة للماركسية التي هي مذهب حي ... » و « على وجـــه التحديد لأن الماركسية ليست معتقداً ميتاً ، مذهباً مكتملاً ، جاهزاً ، ساكناً ، بـــل هي دليل حي للعمل ، لا يمكنها ألا تعكس التغير السريع للغايـة الذي يطرأ على شروط الحياة الاجتماعية . ولقد ادى هذا التغير الى تفسخ عميق ، وإلى الفوضى ، وإلى التخبطات المتباينة ، وبكلمة واحـــدة : الى أزمة **داخلية** خطـــيرة في الماركسية[1] » . وحين كتبت ان الماركسية **في فرنسا** قد توقفت ، كان قصدي ان اشير الى أزمة داخلية مغايرة في طبيعتها لكنها لا تقل عمقـاً . ففي ١٩١١ كان التطور السريع للمجتمع الروسي يسبب حيرة الماركسيين الذين ما كان يتوفر لهم الوقت للسيطرة على تجربتهم . وقد كان واجباً ، كما شرح ذلك لينين فيما بعد ، « الدفاع عـن المبادىء » . وفي عـــام ١٩٥٦ ، في فرنسا ، أبطأت المالتوسية الاقتصادية حركة التطور الاجتماعي ، وشطرت البروليتاريا الى شطرين ، وحجّرت المجتمع : هـــذا كله قد أبنته في « الشيوعيون والسلم » . ان نظاماً حديدياً يثبّت كل فرد في مكانه كما كانت الحال في بيزنطة . اننا لا نعرف منـذ ثلاثين عاماً لا الحركات السكانية الكبيرة التي خلقت أو جـددت ، في القرن التاسع عشر ، البروليتاريا ، ولا انطلاقة الصناعـــة – التي كانت ستعجل على الأقل بالتمركز وبتوحيـد الشرط العمالي – ولا تلك الحركات الشعبية الكبرى التي تمزج ، كما في ايطاليا ، السكان العمال والسكان الفلاحـين . لا شيء يتحرك . وقسم من الشباب يشيح عن النضالات الاجتماعية لأنه يرى ، هـو الواقع ضحية المظاهر ، انها لامجدية . ان الصعوبات الحقيقية التي تواجه الجبهة الشعبية تكمن هنا : إذ لا بد من العمل على التقريب بين فئات اجتماعية حجّرها الجمود ، وتتباين مصالحها في بعض الحالات . ان الفكر الماركسي يعكس تعثر اقتصادنا كما ان تصلب الحزب هو ، إلى حد كبير ، انعكاس لتحجرنا الاجتماعي . انه ما من شيء ، منذ بضع سنوات ، يغني الماركسية في اطار المتروبول . وهي بالتأكيد لا تواجه خطر التفسخ نتيجة انفتاح السدود الكبرى وتدفق موجة من التجارب الجديدة .

---

١ – خصوصيات تطور الماركسية التاريخي – ٥ كانون الثاني ١٩١١

مكتبة الفكر الجديد

وليست المشكلة هي مشكلة الدفاع عن مبادئها التي ليست عرضة للخطر ، بل اعادة الحياة إليها بالبحث عن التجربة حيث ما يزال لهـا وجود : في الانظمة العلمية والفلسفية . وهـــذا الجمود – المؤقت بالطبع شأن كل واقعة تاريخية – مستمر منـــذ حوالي عشر سنوات تقريباً : وهـــو ما اسميه توقفاً عارضاً في الماركسية .

وقلت من جهة أخرى إن الذكاء الموضوعي للحزب الشيوعي يختلط بالممارسة : وكان هذا يعني بوضوح ، في نظري ، انه من الواجب ان نبحث عن هذا الذكاء في تسلسل الوقائع ، وفي شروط الصراع الطبقي ، وفي المنطق الداخلي وحركة التاريخ . فهل هناك تناقض ؟ بالتأكيد لا . ذلك انـه ليس المطلوب السير إلى أمام بل **الصمود** في بلد ينتمي الى دائرة النفوذ الاميركي ، وكان حتى الآونـــة الأخيرة يعيش في حالة جمود مناهض للثورة . وانا لا ازعم ان الحزب لم يخطىء قط خلال تلك الفترة الطويلة . انما اقول ان مواقفه كانت ، في مجملها ، صحيحة . فقد اظهر ،هو الذي خدمه وأضرّ به في آن واحد الاقتصاد المالتوسي الفرنسي ، اظهر على الرغم من عنفه قدرة نادرة على التلاؤم : فقد كان في عام ١٩٤٥ رهينة بيد البورجوازية ، ثم وجد نفسه في صف المعارضة ، ومع ذلك عرف ، على الاجمال ، كيف يتجنب المساومات والتسويات . انه لا يستطيع ان يتبـاهى بانتصارات صارخة . لكن هذا لأنه لم يكن مطلوباً منه إحرازها . لقـد صمد دون ان يجحد نفسه ودون ان يجحد الاتحـــاد السوفياتي ، ودون ان يتيح للحكومات المتعاقبة فرصة حله ، وبقي ثورياً من غير ان تتاح له البتة فرصة القيام بالثورة ، وآزر المطالب العمالية من غير ان يسقط في الاصلاحية . لقد خسر عـــدداً من المنتمين اليه ، هذا صحيح ، وهذا يثبت ان البنيـــة الداخلية للحزب الشيوعي يجب ان تتعدل ، لكنه استمات في الاحتفاظ بناخبيه بل في زيادة عددهم ، وهذا ما يثبت ان مواقفه كانت في مجملها ، ونظراً الى الوضع العام ، صحيحة : وبكلمة واحدة ، انه ما يزال **تحت اليد** وهو الحزب الوحيد في فرنسا الذي يملك سياسة منسجمة . صحيح انه ادان تيتو وانه أخطأ إذ ادانه ، وانـه وقف بعنف ضد

مكتبة الفكر الجديد

الشيوعيين الاجانب الذين اعيد أو سيعاد اليهم الاعتبار ، وصحيح انه كان يخشى من أن يسقط من فرط اخلاصه في اللاسامية في زمن « المجرمين من ذوي القمصان البيض[1] » ، لكن هل بدل رأيه قط في حرب الهند الصينية بعد شيء من التردد ؟ هل كف قط عن الدفاع عن السلم ؟ ألم يكن محقاً في معارضته مشروع مارشال ؟ وفي النضال من أجل الاستقلال الوطني ؟ ألم تكن القومية ، في زمن الكتل ، شأن الأممية ، تكملته ، وشكلاً حياً من النزعة التقدمية ؟ من خان المضربين في عام ١٩٣٥ ؟ « الاتحاد العام للشغل » الشيوعي أم « القوة العمالية[2] » ؟ والنتيجة هي انه إذا عرف كيف يتصرف فإنه سيستفيد عاجلاً أم آجلاً من الوضع الراهن . والتغيرات الاجتماعية التي تتهيأ ، سيقبلها لمصلحته . لكن هذه البراعة ، التكتيكية أكثر منها استراتيجية – لم يكن ممكناً ان تكون غير ذلك – ليست من البراعات التي تترافق بإغناء للمذهب . ان المذهب يظل هو الدليل لكن بعد ان تقلص الى الحد الادنى. لقد كانت عبادة الشخصية – كما لاحظ تولياتي في تقريره – تكلف غالياً من الحيوات الإنسانية والخيرات المادية ، لكنها لم تكن تضر بالضرورة بصحة المواقف السياسية : انما كانت توقف المعرفة فحسب . ان تفتح الثقافة الماركسية لم يكن يتطلبه في فرنسا الموقف التاريخي وشروط الصراع الطبقي . وكان تحجر وتكيس الحزب الشيوعي ، المحاصر ، والمرذول من المجتمع البورجوازي قاطبة ، يجعلان ذلك التفتح صعباً .

اذن وحتى عندما يؤمن السيد نافيل بوجود توازٍ سبينوزي مزعوم بين العمل والثقافة ، فأين يرى ، بحق الشيطان ، تناقضاً ؟

الحق أنه لا يراه : بل « يفبركه » . وحتى يقدمه ساخناً لقرائه ، يتلاعب بعدد من المواضع من نصي :

---

١ – مؤامرة « الاطباء » المزعومة على حياة ستالين . «هـ.م.»

٢ – هي القوة التي انشقت عن الاتحاد العام للعمل ، وارتبطت مصيرياً بالحزب الاشتراكي . « هـ.م. »

مكتبة الفكر الجديد

١ – ان كل برهانه يقوم على التعامي المتعمد عن كلمتين : « في فرنسا » . انه يسخط كما لو انني أوقفت الماركسية **في كل مكان . وهذا تلفيق .**

٢ – انه يوحد بكل اطمئنان بين الماركسية والتاريخ – وهذا ما لم أرَ أحداً قط يفعله قبله . « ان الماركسية لم تتوقف لسبب بسيط ، وهو انه لا يمكن إيقاف التطور الاجتماعي ، لا في الاتحاد السوفياتي ولا في غير الاتحاد السوفياتي » . وهو بالطبع يعزو إلي هذا التوحيد الباطل . وخلاصة القول انني كتبت : لم يعد الماركسيون الفرنسيون ينشرون شيئاً منذ عشر سنوات . فيجيبني بعجرفة : ان التاريخ يتابع مجراه . **هذا لغو .**

٣ – بديهي انني اعتبر هذا الجمود عارضاً . وإلا فلمَ توجهت الى المثقفين الشيوعيين ؟ ان السيد نافيل يعتقد او يتظاهر بالاعتقاد بأن التوقف، في نظري، نهائي . « من الممكن اضطهاد الماركسية لا قتلها ، على الأقل ما دام هناك بشر » . ان هذه السفسطة المكتوبة بأسلوب نبيل تخفي لغواً ثانياً .

٤ – حتى يكون التناقض أكثر وضوحاً ، يستشهد بمقالي « الشيوعيون والسلم » أو بالاحرى – نظراً الى انه على عجلة من أمره – بالانتقادات التي وجهها اليه ميرلو –بونتي في « مغامرات الديالكتيك » . واليكم الخلاصة التي يقترحها : « يرى سارتر ان الحزب الشيوعي لا يمكن ان يخطىء لأنه ، هو وحده ، الطبقة العاملة (اي انه بديلها) » . واني لأعتذر لقراء « الأزمنة الحديثة » إذ أذكرهم بأنه ليس في هذه الفرية كلمة صحيحة واحدة . لقد قلت ان الجماهير العمالية ، المهددة دوماً من قبل قوى التفسيخ ، ترد على « التكتيل » المميع الذي هي عرضة له على الدوام بإنتاجها اجهزة وحدتها . وقد اطلقت اسم طبقة ، في ذلك المقال ، على بروليتاريا يوحدها في العمل جهازها النقابي وحزبها . واضفت ان الجماهير تمارس رقابة مزدوجة على الجهاز : اولاً بعطالتها وسقوطها في التشتت مجدداً حين لا تكون الأهداف المقترحة متجاوبة مع صبواتها ، وثانياً بجرها الزعماء الى ما وراء الاهداف المحددة عندما يوحدها عمل مشترك . كما بينت ، في القسم الثالث من المقال ، ان المالتوسية قد حجرت

مكتبة الفكر الجديد

الانقسامات العمالية وان العامل المختص ، وريث الفوضويين – النقابيين ، هو في وضع الأقلية في قلب الاتحاد العام للشغل والحزب الشيوعي ، وفي وضع الغالبية في « القوة العمالية » والحزب الاشتراكي [1] . ترى ألم يفهمني نافيل ؟ ليت ذلك : فهو لم يفهم ميرلو – بونتي .

لقد توصل ، بفضل تلفيق ، وبفضل لغوين وكذبة ، الى خربشة ذلك المقال الحائر الذي ليس له من هدف غير الشتم [2] . وعندما نعيد للكلمات معانيها ، ماذا يبقى منه ؟ قبض الريح .

قبض الريح وسيل من توبيخات مشوشة ومتناقضة يطلقها دونما تعيين ، كما يرمي الطفل الحانق رفيقه بجميع الاشياء التي يجدها تحت متناول يده : انه ، بوصفه ماركسياً ، لا يتفق مع ميرلو – بونتي على شيء ، لكنه لا يستطيع إمساك نفسه عن وصفي بالبولشفية المتطرفة [3] . وهو يذكرني بـ « محاوراتي في السياسة » مع روسيه ، ويقربني من ريمون آرون . انه يسلم لي بالادعاء بأنني مرشد ليستطيع من ثم أن يجردني من الحق في إبداء النصيحة . ويبدو أيضاً انني رجل مطامح : فأنا أريد أن ألبس الحزب الشيوعي مذهبي . فالماركسية قد ماتت ، ولتحيَ الوجودية .

سأردّ بإيجاز على هذه الحماقات . واعتقد أن القارىء سيسمح لي بأن أغض النظر عن البولشفية المتطرفة وريمون آرون . أما عن « محاورات في السياسة » ، فما دخلها هنا ؟ يقيناً ، لقد كنت آنذاك أبعد عن الماركسية مني اليوم . لكن ماذا ؟ أيجب أن يكون المرء ماركسياً منذ ولادته ؟ ان نافيل هو واحد من

---

١ – في وضع الغالبية بين ممثلي الطبقة العاملة .

٢ – يضيف السيد نافيل ، في سورة تلفيقه ، انني اعامل ماركس ولينين وتروتسكي كصبيان صغار وانني أخص ستالين بإعجابي . واني لأتحداه ان يذكر نصاً مثال آخر على الطرائف « الستالينية » . كما كتب نادو ببرود اعصاب (« الآداب الجديدة » – العدد ٣٧) انني « قد شبهت دوماً التروتسكيين بجواسيس أو برجال شرطة » ، مع انني قلت العكس دوماً .

٣ – البولشفية المتطرفة : هي التهمة التي وجهها ميرلو – بونتي في « مغامرات الديالكتيك » الى سارتر على مقاله « الشيوعيون والسلم » . وقد نقلها عنه نافيل « هـ . م »

مكتبة الفكر الجديد

أولئك الرقباء الذين تركوا الخدمة والذين لا يعترفون بالارتقـــاء إلا على أساس القدم . ويبدو ، على كل حال ، ان ذلك الكتاب المجرم يمنعني من أن أطرح نفسي كمرشد . واني لأقسم أغلظ الأيمان على ان هذه النية لم تخامرني قـط . لقد كتبت : « اننا لا نطلب شيئاً من الماركسية سوى أن **تعيش** » ، وفي رأي نافيل ، هذا يعني : « إشتروا مني إذن الوجودية ، ولكم مني أن أخفض الأسعار » . لقد كتبت : « الماركسية هي مناخ أفكارنا ، الوسط الذي تتغذى منه ، الحركة الحقيقية لما يسميه هيغل **الفكر** الموضوعي » . فيتظاهر نافيل بأنه فهم : « اتبعوني ، ولكم مني أن أرشدكم » . إن هـذه الطرائق – سوء النية ، عدم الفهم الغليظ ، الافتراء المتسرع – هي بالضبط ما أخذته في الشهر الماضي على السيد غي بيس . والحقيقة انني لا أريد لا أن أتخلى عن أفكاري ولا أن أفرضها على الآخرين . إن المـــاركسية هي الوسط الثقافي الذي خرجت تلك الأفكار منه ، والحركة التي تحملها ، والافق الذي يحدها . فهل هذا يعني انهـا ماركسية بالمعنى الصارم للكلمة ؟ حتى يصدق المرء ذلك ، فلا بد أن يكون جاهلاً بمـــاهية الثقافة . لكن إذا كان كثيرون من المثقفين – وأنا منهم – ينتظرون من الماركسية أعمالاً قيّمة ومتينة ، فهذا لأنه يستحيل على المرء أن يفكر من تلقاء نفسه وبمفرده . ان كتاباً ماركسياً جيداً واحداً هـو فرصة ، لكل واحد منا ، كيما ينجح في كتابه القادم .

وبالمناسبة ، من أثار ضجة كثيرة حول مقالي ؟ من سألني مقتطفات منـه حتى قبل أن أكتبه ؟ من أعلن عنه مرتين ؟ مارتينه [1] . بـل لقد أملى ، في عدد « الأوبسر فاتور » الصادر في ٢٩ شباط ، هذه الملاحظة التي أنقلها عـــن ذاكرتي : « يقول سارتر ان هرفيه قد أحسن صنعاً . وجميع الذين قرأوا المقال أفصحوا عن رضاهم » . ان في إمكان المرء أن يفترض أنني لم أطلب منه **هـذه الترضية** . لكن الغريب في الأمر هو انه قدمها لي : ذلك ان الذين « قرأوا

---

١ – جيل مارتينه : رئيس تحرير مجلة « فرانس اوبسرفاتور » التي نشر فيهـــا نافيل مقاله المذكور . « هـ. م »

مكتبة الفكر الجديد

المقال » – أصدقاء مشتركين – قد أعطوه عنه خلاصة مفصلة . إذن فما كان في وسعه أن يجهل أنه لن يجد فيه أي ترضية . والملاحظة الصغيرة التي نشرها يمكننا أن نسميها تحدياً لولا أن الكلمة ثقيلة بالنسبة إلى أحداث زهيدة : فقد كان يريد أن « يورطني » أكثر في نظر البعض ، ويعد غيرهم بالمعجزات حتى يرغمني على تخييب آمالهم . سيقال : عجباً ، أتستحق هذه القضية الصغيرة كل هذا العناء ؟ أجل : فخاصة هؤلاء السياسيين الكبار أن ثائرتهم تثور من أجل توافه الأمور . وسوف أشرح فيما بعد هذا الموقف : ولنكتفِ هنا بأن نلاحظ بأن مارتينه يستقبل هرفيه ونافيل في مجلته الاسبوعية ، وأنه استقبلني فيها أنا نفسي لكن من دون أن ينبس ، من جانبه ، بكلمة واحدة حول القضية . ولو أنني جننت وتنكرت في أهـــاب قاضٍ وقرعت الحزب الشيوعي واصدرت أحكاماً قاطعة ، وباختصار لو تحامقت الى درجة أحسب معها نفسي مرشداً ، لما لامني أحد على ذلك ، ولكانت غُفرت لي « المحاورات مـع روسيه » وغفر لي أيضاً بدون شك ما يسميه نافيل « تحليلي النفسي الوجودي » . يا له من تيه غريب : إذا انتقدت سياسة الحزب الشيوعي ، فلن أظل مرشداً ؛ وأنا مرشد إذا نوهت بنقص الأعمال النظرية التي يوعز بها .

لكن يخطىء من تأخذه الدهشة . فنافيل قد أبان بسذاجة عن سبب موقفه : إن خطئي هو أنني حكمت على الماركسية من خلال مؤلفات الشيوعيين المسجلين وحدها . في حين أن هناك باحثين محترمين ينتمون إلى هذا المذهب من غير أن ينتموا الى الحزب الشيوعي ، وقد نشروا دراسات بالغة الأهمية : إنني أذكر القراء بأن السيد نافيل قد كتب كتباً .

بصدد هذه النقطة أقر بالذنب : فقد كان يجب ان اذكر مؤلفات « غيران » عن اميركا وعن المغرب وعن الفاشية وعن الثورة الفرنسية ، وكتـاب كوليت أودري عن ليون بلوم (لم افعل ذلـــك لأنهما يكتبان بانتظام في « الازمنـــة الحديثة ») . كما كان يمكنني ان استشهد بدويتشر – لكنـــه ليس فرنسياً – وبسيرته عن حياة ستالين . ولا نتكلمْ عن المضمون : فنافيل يدينه بـلا شك ،

مكتبة الفكر الجديد

لكننا نستطيع ان نجد في ذلك الكتاب تطبيقاً مثيراً للاهتمام للمناهج الماركسية على معرفة شخص معين . فدويتشر ، بواسطة القلب المستمر للمنظورات ، يرينا حركة التاريخ الموضوعية عبر الفرد التاريخي ، وفي الوقت نفسه أثر الفرد في الحركة الموضوعية .

بيد ان الجرد يبقى ضئيلاً ، وان كنت قد نسيت بالتأكيد عدداً من الكتب وعدداً من المؤلفين . أما بالنسبة للسيد نافيل فليطمئن : انني لا انساه ، انما أستبعده . ان احد المآخذ الاساسية التي يأخذها ماركسيو المانيا أو ايطاليا على اصدقائهم الفرنسيين هو انهم يخلطون بين ماركس وتين . والحق ان تبعة هذه الغلطة لا تقع كلها علينا . فجامعة السوربون قد وضعت ، طوال أكثر من قرن ، هيغل في قائمة المؤلفين المحرمين ، هذا إذا لم نشأ ان نقول شيئاً عن ماركس . وعندما كان الايطاليون مع كروتشه ، والانكلو – ساكسونيون مع برادلي وبوزانكيه ، يشهدون يقظة الهيغلية ، كانت الجامعة الفرنسية تتوجس وتتحصن : وأكثر ما هنالك انها كانت تسمح لنا باللعب مع شوبنهاور . وفي الحزب الاشتراكي والنقابات كانت للتقاليد البرودونية الغلبة على الماركسية . وقد جعلونا ديكارتيين رغماً عنا ، وحين اردنا ، بعد حرب ١٩١٤ ، ان نسد ثغرات جهلنا ، ظهرنا بمظهر العصاميين . واني اعترف بأن أحدنا يبحث عبثاً ، في كثير من الكتابات الشيوعية ، عن ذلك الحس الجدلي الذي يلتقط بحركة واحدة الشرط المتبادل بين العوامل ، وانقلابات المواقف التي يحددها هذا التأثير المتداخل ، وحركة المجموع ، والجدل المعقد بين الأوحد والمتنوع ، بين الكل والاجزاء . فالكاتب يكتفي عادة ببعض توكيدات شكلية ، ثم يعود بكل اطمئنان الى تحليله التيني الصغير . لكن حين اطلب مثالاً عن هذه الرقابة التحليلية ، فإن اسم نافيل هو أول ما يقدمه اصدقاؤنا الاجانب ، والمقال الذي اعدنا نشره يبدو وكأنه يعطيهم الحق[1] . فهذا المادي الميكانيكي يقتبس لغة

---

١ – قبل ان ان يرد سارتر على مقال نافيل المنشور في الاوبسرفاتور اعاد نشره في « الازمنة الحديثة » . «هـ.م.»

مكتبة الفكر الجديد

وموضوعات الماركسية، لكنه عاجز عن كشف الجدل في الاشياء أو في الافكار. انه يزعم ان العلم بحاجة الى تناقضات ليحيا ، لكن التناقضات تبدو له فاضحة اينما ظهرت : أفليس مما يسترعي الانتباه انه انقضّ يكتب مقاله لانه حسب انه وجد في مقالي تناقضاً ؟ لقد بينت انه على خطأ : لكن على فرض انه كان في مقالي تناقض ؟ على فرض ان هناك تناقضاً بين الفاعلية العملية للحزب الشيوعي الفرنسي وبين عقم مثقفيه المؤقت، فأين هي الفضيحة ؟ وماذا يثبت ان هذا التعارض ليس حقيقة واقعة ومنطلقاً لتجاوز وتقدم ؟ ان نافيل لا يعتقد ذلك : فهو يتهرب من الصراعات ، ووحدة المتناقضات تفلت منه : أفليس مما يسترعي الانتباه انه عندما يتكلم عن ادوات العلم يسميها « ادوات تحليل وعمل» ؟ سيرد علي بلا ريب بأن العمل تركيبي : هذا صحيح ، لكن هل يعتقد ، هذا إذا ما اقتصرنا على المعارف النظرية وحدها ، ان التحليل هو فعلاً المنهج الذي يسمح للعلوم الاجتماعية بتفسير المجتمعات الممزقة التي نحيا فيها ؟ اخشى ذلك : ففي مناقشة سبق أن نشرت[1] كان يتكلم بتباهٍ عن الحتمية والسببية الى حد انني سألته في النهاية عما اذا كانت هاتان الكلمتان ما يزال لهما معنى في المنظور الجدلي . ولم تطرف له عين؛ولقد فهمته : ان كل فكر محدود يريد حدوداً ، وصاحبنا متشبث بمبدأ الهوية الذي يحتم على نافيل ، الذي هو حصيلة بعض مكابرات مكتسبة في سن الثلاثين ، ان يكون وان يظل نافيل الى ما لا نهاية . فلنعد قراءة اعماله عن السلوكية ، ولسوف نرى ان الفكرة التركيبية تظل غريبة عنه : ففي الوقت الذي كان يحاول فيه بوليتزر ان يعطي بسيكولوجيته الموضوعية وحدة عينية ، كان نافيل **يحلل** المسالك البشرية ، ويرجعها الى ردود افعال ابتدائية من غير ان يهتم بمعرفة مصدر **الوحدة الدالة** لتصرفاتنا . ان خلفاء بافلوف في الاتحاد السوفياتي يعرفون المشكلة ويحاولون حلها . لكن السيد نافيل لن يتحرك أبداً : انظروا كيف يتصور التغير . ان هذا الديكارتي المتحجر ،

---

١ – يشير سارتر الى المناقشة التي دارت بينه وبين نافيل على اثر إلقائه محاضرته : «الوجودية مذهب انساني » . «هـ.م.»

مكتبة الفكر الجديد

الذي لا يجد مناصاً من قبول التغير في عالمه ، يفضل ان يؤمن بالتقدم المطرد : ذلك ان هذا المفهوم الضعيف الصلة بالماركسية ، والبورجوازي الى ابعد الحدود، ادعى الى الاطمئنان . ومع ذلك فإنه يريد ان يحافظ في هذه الحركة الجليلة على مناطق ساكنة : « إذا كان التطور يتقدم – وهو يتقدم من حيث التعريف[1] – فإن على ادوات التحليل والعمل ان تتقدم . لكن المنهج والمبادىء التي تمكننا من انشائها تتأتى من المصدر نفسه وتسير دوماً في الاتجاه نفسه . ان العلوم تتقدم دوماً ولا تكف لهذا عن بلوغ الحقيقة . ان الاهداف هي التي تتجاوز لا الوسائل » . أي باقة سذاجات هي ! هل يعتقد نافيل حقاً بأن العلم يستطيع ان يتقدم من غير ان ينقض نفسه ؟ بأن الوسائل العلمية ثابتة لا تتبدل وبأنه من الممكن تجاوز هدف من الاهداف من غير ان تتبدل ؟ هل يجهل ان الموضوع يعين المنهج ؟ في الحقيقة ، ان العقل ليس إلا كلية العالم المعروف ، فإذا ما اتسع هذا العالم أو تعمق ، تبدل العقل . وهذا لا يعني ان حركة العلم تتم بدون قاعدة: لكنه يكتشف قواعده في مواضيعه . ولنقف عند هذا الحد : فأنا لا اريد ان ارهق نافيل . ولقد ذكرت ببعض من سمات فكره وعمله تعذرني اذ لم أستشهد به .

(٢)

مقال نافيل صفر . لكنه صفر سامّ . لذا فقد رأيت أنني أحسن صنعاً إذا تكلمت عنه . لقد تعودت على الاعتداءات المسلحة : انني أُقتل ، تُسرق مني صرة نقودي وشرفي ، ثم يتوارى الفاعل . لكني أبعث حياً ، والرصاصة أو السكين لم تترك فيّ أثراً . منذ بضعة أسابيع أعلنت « دومان » بعناوين كبيرة: « سارتر خان » . وقد أجبت : ان روسيه ليس من الناس الذين يُرد عليهم ، وأحرى بنا ان نتركه يكسب معيشته كيفما يستطيع . والحال أن مقال نافيل

---

١ – لنحي عابرين هذه الجملة : فنحن لا نعثر في جميع الايام على مسلمة ساذجة كهذه هي في الآن نفسه خطأ .

مكتبة الفكر الجديد

الاراني وآلمني . ولو ان رد فعلي لم تمله سوى دوافع شخصية ، لما تكلمت عنه ، أو لما تكلمت عنه إلا معه . لكني أعتقد ، بكل خلوص نية ، بأن رد فعلي يرجع إلى أسباب أعم واني لأريد أن أشرح ذلك هنا .

كثيراً ما كتب السيدان نافيل ومارتينه في « الازمنة الحديثة » ، وكتبت بضعة مقالات لـ « الاوبسر فاتور » ، وكتب لدى كل منا نفس الكتّاب. ومن الطبيعي جداً ألا تكون لنا في جميع الامور وجهة نظر واحدة ؛ وهذه الاختلافات لا تمنعني من النظر الى كلود بورديه [1] بتقدير عميق ، ومن الاعجاب ، على سبيل المثال ، بشجاعة حملته المعادية للاستعمار وبفاعليتها . على كل حال ، ان ما يجب ان نضعه نصب أعيننا ونعطيه الأهمية الأولى هو أننا نظل ، جميعاً ، من اليسار . اننا نختلف بصدد الموقف الواجب اتخاذه من الحزب الشيوعي ، وهذا ليس بالشيء العديم الأهمية ، انا أوافق على ذلك . لكن لا ينبغي أن ننسى كل ما يجمعنا : فنحن نناضل ضد نفس الرجال ، وضد نفس السياسة ، أسواء تلبست لافتة « الحركة الجمهورية الشعبية » أم لافتة الحزب الاشتراكي ، ونحن نُهاجمَ من قبل نفس الخصوم ، ونضع نصب أعيننا تحقيق تجمع اليسار قاطبة ، أو بتعبير آخر تحقيق الجبهة الشعبية ، مهما اختلفت آراؤنا في وسائل بلوغ هذا الهدف . وبالتالي آمنت دوماً – وستكون دهشتي عظيمة ان لم يكن بورديه يرى نفس الرأي – بأن علينا ان نحافظ ، حتى في أشد مناقشاتنا حدّة ، على لهجة من المجاملة والرفاقية . ولقد كنت اتصور ان هذا هو ايضاً رأي مارتينه : هاجمني مرة مثقف شيوعي في « الاومانيته » ، فأجبته بأن هناك لهجة معينة لا يمكن التغاضي عنها بين الحلفاء ، ويبدو ان مارتينه كان يشاطرني وجهات نظري طالما انه نشر – بدون اذني – مقتطفات من ردي . ومما يزيد دهشتي ان أراه يلجأ اليوم الى طرائق كان يدينها عندما كان يستخدمها الشيوعيون .

ومعروف بالأصل انني اول من عانى من هذه الطرائق . و « الاوبسرفاتور »

---

1 من كبار المحررين في مجلة « فرانس اوبسر فاتور » . « هـ.م »

نادراً ما تهاجم الرجل : انما تنتقد الأفعال والسياسة ، وهذا هو المطلوب . بيد انها من حين الى آخر تدش – كما فعلت عندما قرر البير كامو ان يكتب لـ « الاكسبريس[1] » . وعندما تُقرع الطبول ، تعتذر ببرود وتتبرأ من محرريها. بل اني سأقول انها معروفة بانكماشها اكثر مما هي معروفة بجدة القريحة الجدالية . فأي معنى يتوجب اذن أن أعطيه لهيجانها المباغت ؟ لمَ تقارنني هذه المجلة الاسبوعية بريمون آرون الذي تتعارض آراؤه في جميع المجالات مع آرائي ؟ ولمَ هذا العنوان المهين : « مغامرات نكراسوف العاشرة » – الذي لا يهدف الى أقل من تصويري بأنني محتال مثقف[2] – مع أن المقال لم يتضمن شيئاً لا عن نكراسوف ولا عن مغامراتي العاثرة ؟ ولمَ نشرت ، في وسط المقال ، تلك الصورة التي تظهرني وكأنني مدعٍ سمج من ادعياء العلم ؟ قد أكون كذلك – ما يدريني ؟ – لكن لا سيمائي ولا مواقفي تزيد شيئاً في الموضوع او تنقصه. وهذه هي المرة الأولى ، على حد علمي ، التي تدعو فيها « الأوبسرفاتور » الى الحكم على أفكار انسان تبعاً لهيئة رأسه. والحق انني ألفيت نفسي مذهولاً امام طرائق اليمين : وأنا أعرف انه سيكون لي الحق ، في الشهر القادم ، بمقال آخر لا يقل افتراء لكنه أقل خشوراً ، في مجلة « بروف » . ان ما كان يميز « الأوبسرفاتور» حتى الآن – باستثناء مقالات بورديه – ليس ألقها ، انما وعيها وسداد تحاليلها الثقيل بعض الشيء : فإذا ما فقدت صفاء النية ، فما يتبقى لها ؟ وعلى الأخص ، ما يمكن أن يكون سبب هذا التغير المفاجىء ؟

السبب ، في رأيي ، يرجع الى أن لنافيل ومارتينه علاقات عاطفية مع الحزب الشيوعي . انهما ليسا من « أعداء الشيوعية » ، كلا ، انهما بعيدان عن ذلك . وانني لأسخط [illegible] ، بقلم السيد فوغيه ، ان مارتينه رجعي . وفي الوقت نفسه ، بالأصل ، يمد كانابا يده الى « رفاقه في الأوبسرفاتور » . ان نظام الدوش البارد – السخن هذا يفسر التباس موقفهما حيال الحزب . انهما

---

١ – مجلة اسبوعية فرنسية تعتبر منافسة لـ « فرانس اوبسرفاتور ». « هـ . م »

٢ – « نكراسوف » : عنوان مسرحية لسارتر بطلها محتال أفاق . « هـ . م »

مكتبة الفكر الجديد

بحاجة الى روح المثابرة والدأب حتى لا يسقطا في نزعة عـــداء الشيوعية حين يتهمهما شيوعي مأذون بخيانة الطبقة العاملة . وهما بحاجة الى الارادة ليحتفظا بموقف نقدي حين تتحول « الاومانيته » الى عروس من عرائس البحر لتجتذبهما. لكن من الممكن، بمزيد من اليسر، أن نتصور إن حزم موقفهما يخفي حقداً عميقاً. فهما يصرحان عن طواعية ، هما المذلان ، المتصلبان ، الحـاقدان والمفتونان في آن واحد ، انهما سيعودان الى الحزب الشيوعي ذات يوم ، لكنهما يريدان أن يعودا عودة المظفرين وأن يعطيهما التاريخ الحق على طـــول الخط مضمداً كبرياءهما الجريح . والحال ان الحدث لا يكون أبداً واضحاً ، حاسماً بمـا فيه الكفاية : فما أن يتقدما خطوة ، حتى يجـــدا نفسيهما مرغمين على التراجع خطوتين . كانا يهاجمان الستالينية ، وها هي الانتقادات توجه علنـاً الى ستالين في الاتحاد السوفياتي . فهل سينشرح صدراهما ؟ نعم ولا : فحتى يشعرا بالرضى، لا بد أن ينتزع الشعب الروسي هذه الانتقادات انتزاعـاً من قادته . ان السيد نافيل حين يتكلم عن « تصفية الستالينية » ، يسرع ليضيف أن القـــادة « لم يشرعوا بها بقلب راضٍ، وهذا متوقع، بل تحت ضغط الضرورات الاجتماعية». أما ان التخلي عن « عبادة الشخصية » يتجاوب مـــع الضرورات الاجتماعية (والدولية) ، فهذه حقيقة من حقائق لاباليس [1] . ولو ان السيد نافيل قـام مؤخراً بعدة أسفار الى الإتحاد السوفياتي يفصل بـــين كل منها بضعة أشهر ، لرأى في كل مكان ولادة تلك التغيرات التي يقول انهـا تجاوزتني ، والتي لمستها لمس اليد في موسكو في شهر تشرين الأول الماضي، في الوقت الذي كان ما يزال يرفض تصديقها . لكن لا بد أن تكون عاصفة قديمة من الحقد قد اعمته وأصمته

---

١ – سيد اقطاعي قتل عام ١٥٢٥ في احدى المعارك ، فألف جنوده على شرفه أغنيـــة تقول : قبل ربع ساعة من موته كان ما يزال حياً ... ورغم ان المقصود بالبيتين كان مدح شجاعته واستمراره في المقاومة حتى لحظة موته ، فان معناهمـــا ضاع ، ولم يبق منها سوى سذاجتها . ومن هنا كان تعبير « حقيقة لاباليس » للاشارة الى حقيقة بديهية لا تخفى على احد .

« م. م »

مكتبة الفكر الجديد

حتى يؤكد بكل أطمئنان ان القادة قد سلموا على كره منهم بمطالب الجماهير[1]. كيف لا يرى ان تطور الاتحاد السوفياتي يتم مع جهاز الدولة وبواسطته ؟ كيف لا يكشف له التقدم البارع للتصريحات والتدابير المتخذة عـــن ان المسألة هي مسألة عملية معقدة تولى القادة قيادتها منذ موت ستالين ؟ كيف لم يفهم ان مطالب الجماهير تعلن عن نفسها بالضبط بقدر مـــا تبعث قرارات الحكومة السوفياتية عن عمد لدى الشعب الروسي ثقة جديـــدة ، مدعومة بوعي للذات أصحى وأعمق ؟ انها لحركة معقدة ، تؤلفها أفعال وردود أفعال ، والجمـاهير تدفع القادة بالضبط بقدر ما يجرها هؤلاء ويكشفون لها عن مستقبل جديـــد

---

١ – يبدو انني اعطيت السيد نافيل أكثر من حقه أيضاً . فقد قرأت لتوي مقاله المنشور في ٢٢ آذار : « الشيوعيون واللاستلنة » وادركت انني لم افهم ما كان يقصده بـ « الضرورات الاجتماعية » . ففي هذا « التحليل » (انه هو الذي يستعمل مرة أخرى هذا المصطلح ليصف دراسة يلمع فيها المنهج الجدلي بغيابه) نقرأ ان « الجيش بحاجة اليوم ، أكثر من حاجة الحزب بالذات ، الى أن يتحرر مذهبه ومناهجه ومبادئه ومنظوراته وتعليمه من الإحالة الدائمة ... الى المذهب الستاليني » .

ولمَ اذن ؟ لأن « دروس حرب ١٩٤١ - ١٩٤٥ لم تعد ذات قيمة » .

كيف لا يرى السيد نافيل انه لهذا السبب على وجه التحديد كانت ادانة ستالين غـــير نافعة للجيش (على الاقل من وجهة النظر هذه) . فلو كانت المسألة بالفعل هي مسألة إعـــداد لحرب مشابهة في مجملها لحرب ١٩٤١ – ١٩٤٥ ، لكان من الممكن لمبادىء ستالين ومذاهبه العسكرية المغلوطة ان تكون باعثاً على الحرج والضيق . لكن السيد نافيل يكتب بالضبط : « ان المعطيات الاستراتيجية والفنية لحرب محتملة قد تبدلت كلياً منذ ١٩٤٥ . فالاتحاد السوفياتي يملك قنابل نووية ، وصواريخ بعيدة المدى ، الخ . ومركز القوة العدوة لم يعد في أوروبا ... » . حسناً . ان هذا شيء يعرفه جميع الناس : فأولئك الذين سيقودون الحرب القادمة لا يهمهم كثيراً ان يكون ستالين أو نابليون قد اخطآ . ان الموقف سيكون جديداً كل الجدة الى حد يمكن معه الحفاظ حتى على خرافة الحرب السابقة : فهي لا تبعث على الحرج . والحق اننـــا اذا كنا نريد تفسير التغير المسجل في المؤتمر العشرين ، فينبغي أن نحاول تفسيره بالمجتمع السوفياتي قـــاطبة ، بحركة ثقافته واقتصاده ، بتحولات الانسان السوفياتي والمشكلات الدولية . ان تفسيرات نافيل الجزئية والقصيرة المدى اكثر مما ينبغي توردنا موارد الخطأ كما هي الحال معه دومـــاً . وسوف نعود الى هذه المسألة في عددنا القادم . ولسوف نحاول ان نتلمس طريق الصواب بـــين انفلات الصحافة اليمينية والماركسيين المعادين للستالينية والسكوت النصفي لـ « الارمانيته » .

مكتبة الفكر الجديد

وأمل جديد . واني لأقر بأن اولئك الذين يحكمون الاتحاد السوفياتي ، قد شغلوا مناصب ومراكز في ايام ستالين . لكن هل ينبغي ان نستنتج من ذلك انهم ستالينيون مستكلبون يصبحون لينينيين تحت التهديد؟ الحقيقة هي ان الستالينية قد ألغت نفسها بنفسها إذ خلقت ، عن طريق تصنيع الاتحاد السوفياتي والرفع المستمر لمستوى السوفياتيين المادي والسوفياتي ، شروطا سياسية جديدة . ان القادة الحاليين هم رجال هذه السياسة ، انهم يصنعونها وهي تصنعهم . ولا شيء يمنع من الاعتقاد بأنهم يلاقون مقاومات – لا في قلب البيروقراطية فحسب بل أيضاً لدى الشعب الذي ما تزال فيه جزيرات من الستالينية . لكن حتى يؤكد المرء بكل اطمئنان ، وكما لو انه يؤكد بديهية مسلماً بها ، ان القادة الجدد قد تبنوا خط السلوك هذا واليأس يعمر قلوبهم ، فلا بد ان يكون قد أصبح مجرداً بما فيه الكفاية حتى لا يتبين ان خطة العمل هذه – التي وضعت إثر موت ستالين – تطبق بمهارة على مراحل وان كل مرحلة مخطط لها بصورة تحمل في ذاتها الاعلان عن المرحلة القادمة . ولا بد لمثل هذا المرء ، بوجه خاص ، أن يكون ، أشاء ام ابى ، متأثراً بالتروتسكية ، وان يعتبر ، مع « البرنامج المؤقت » ، ان جهاز الدولة يأخذ أكثر فأكثر صفة « اداة تخريب للاقتصاد » . ولا بد أخيراً ان يكون مهتماً دوماً بالبقاء في صف المعارضة . ان الجميع ، من نافيل الى آلتان، قد شعروا بالخطر نفسه : « لقد كان ستالين سبب حياتنا . فإذا ما فضح الروس اخطاءه ، فإلامَ سنصير ؟ » . كان آلتان يعمل في رؤيا يوحنا : فماذا سيبقى منه اذا انتزعت منه صناعة الرعب ؟ والنقد السينمائي في « كاتار آنشينيه » ؟ ونافيل الذي يصور الاحكام منذ ثلاثين عاماً : هل سيتوجب عليه ان يطلب احالته على التقاعد ؟ وسرعان ما يجد كلاهما ، من غير ان يتبادلا المشورة ، المنفذ نفسه : ان ستالين لم يمت . فبالنسبة الى نافيل ، يتبرأ منه القادة « لكن ليس بقلب راضٍ » . وبالنسبة لآلتان (انقل كلامه من ذاكرتي): «أهي حقاً مهمة أولئك العبيد أن يتبرأوا من سيدهم الميت ؟ » . وفي الوقت نفسه يكتب روسيه مقالاً لامتناهي الطول « عن تبدل مزعوم طرأ على المجتمع

مكتبة الفكر الجديد

السوفياتي » . يقول الواحد : لا شيء تغير . ويقول الثاني : بلى ، لكن الزعماء يظلون مجرمين . كل شيء ، بشرط ان تستمر القطيعة . هيا ، ان السيد نافيل سيدين خروتشيف وبولغانين وميكويان كما ادان ستالين . انه سيستمر الى ما لا نهاية في ان يكون ما جعلت منه ثلاثون سنة من المعارضة . ولسوف يموت وهو يحلم بتلك اللحظة الساطعة التي ستتطاير فيها البيروقراطية ، في موسكو ، شظايا شظايا ، والتي سيتسجل فيها السيد نافيل بعينه ، في باريس ، في الحزب الشيوعي .

لولا هذا الحلم المغشي على الابصار ولولا هذه المكابرات المتحجرة ، لكان أتيح ايضاً للسيد نافيل حظ التلاؤم والتحالف مع المثقفين الشيوعيين وتناسي حقده الكامن لينطلق انطلاقة جديدة. والحق انه يجدر به ان يستعجل : فالمؤتمر العشرون لا يكرس انتصاره ولا انتصار السيد مارتينيه ، لأنه يسجل تقدماً بالنسبة الى المرحلة الستالينية بينما وقفا هما عند الستالينية. وان هذا المأخذ جليل يمكن أخذه على الدكتاتورية الشخصية : انها تصنع خصومها وتكيفهم . أجل ، لقد صنعتهم الستالينية ، على صورتها . لقد قالوا لا في البدء ، بدافع الحرية ، ثم حجرتهم الاذلالات والاهانات ففقدوا حرية أن يقولوا نعم . فليستعجلوا : فالشبيبة المثقفة التي تنتمي الى الحزب الشيوعي ما عادت تهتم تقريباً من الآن بما يفكرون به . إن لديها مشكلات أخرى ، وصبوات أخرى . ان جمود الماركسية مؤقت فحسب ، وهي ستستفيد من تعاقب الأجيال : لكن سيكون من المؤسف حقاً ان يكون السيد نافيل قد اوقف الى الأبد عند ١٩٢٧ .

هذا الضيق هو الذي يدفع به ، على ما أظن ، الى شتمي . إذ يبدو له انه لما لا يطاق ان يمكن لغيره الاحتفاظ باستقلاله والتصريح بأنه حليف الشيوعيين. انني افهم ألمه وأعذره : فهذا الموقف سهل اليوم ، بينما كان مستحيلاً في زمنه . لكن هذا كله لا يعطيه الحق في محاربة خصومه باستشهادات مبتورة وشتائم وافتراءات وتلفيقات مقصودة و « ملغمات ». ألا فليأخذ حذره : فالمرء يخامره الشعور من الآن عندما يراه يرتقي منبراً من المنابر ، مرفوع الأصبع ، مطفأ

مكتبة الفكر الجديد

النظرة ، بأنه انمـــا يرى كتلة حجرية لا تستطيع ان تدب إلا في اتجاه واحد . وإذا ما استمر ، فطر نزعة عداء الستالينية الهرم هـــذا ، فإنه سيكون قريباً آخر ستاليني فرنسا .

« الازمنة الحديثة » – العدد ١٢٣ – آذار – نيسان ١٩٥٦ .

مكتبة الفكر الجديد

شبح ستالين

تلقيت الكثير من الرسائل في الآونة الاخيرة . ومن بين الاسئلة التي طرحت فيها علي سؤالان تكرّرا بأقلام متباينة للغاية ، واعتقد ان من المفيد ان اجيب عليهما علناً .

١ً – « بأي حق ؟... »

هذا السؤال موجه ، من فوق رأسي ، الى جميع الفرنسيين الذين يدينون التدخل السوفياتي : « بأي حق ؟ باسم أي مبدأ ؟ أي فلسفة ؟ فلسفتك بلا ريب . اذن فعليك ان تعلم انها لا تلزم أحداً سواك » .

انا اعرف ان بعض القراء سيدهشون من طلب إحالات فلسفية للسماح لهم ببغض هذه المجزرة. لكنهم لو امعنوا في التفكير، فأعتقد انهم سيجدون الطلب عادلاً . فقد احتج شيوعيون ثم السيد دني دي روجمون[1] : لا بد اذن ان الاسباب ليست واحدة . ان اللعبة بالغة التشويش في هذه القضية الى حد ان كل لاعب من اللاعبين يجد نفسه مضطراً الى الاعلان عن لونه ورهانه . والدليل ان هناك تمييزاً مرتجلاً يجري اعتماده بسرعة : اليسار يدين ضربة السويس وضربة بودابست ، واليمين يدين ضربة بودابست وحدها ، و «الاومانيته» تدين ضربة السويس وحدها . والحق ان الوشائج بين المجزرتين – في ظل موقف دولي

---

١ – كاتب سويسري يميني معاصر ، رئيس منظمة حرية الثقافة . «هـ.م.»

مكتبة الفكر الجديد

يتعلق فيه كل شيء بكل شيء – لا تبدو انها من أوثق ما يكون : فالعصيان المجري قد فاجأ الروس ، في حين ان هجوم السويس قد اعدت له العدة منذ بضعة اشهر، ومن المحتمل ان يكون سياسيونا الكبار قد عجلوا بموعد الانزال رغم رأي الجنرالات «للاستفادة من حرج الاتحاد السوفياتي في أوروبا الوسطى»: واني لأحسبهم اغبياء للغاية طالما انهم لم يفهموا ان الاتحاد السوفياتي يملك اقوى جيش في العالم ، وانه يستطيع ان يسحق المجر وان يرمي بـ ٢٠٠,٠٠٠ جندي الى السويس ، وأن حرجه ليس ذا طبيعة عسكرية ، وانه سيسره كثيراً ان يكون في وسعه رفع صوته الضخم الى علو يكفي لتغطية حشرجة بودابست . لكن هذا كله لا يقودنا بعيداً . فقد بذل السيد غي موليه و « الاومانيته » بعد ذلك جهوداً مؤثرة لإقامة رابطة عميقة بين هذين الحدثين المتباينين . فالأول يصرح : « لقد اصطدم المجريون في بودابست والفرنسيون في مصر بأسلحة واحدة »[1] . والثانية تصرح : « ان الفاشيين الذين ضربوا بورسعيد هم أنفسهم الذين شنقوا العمال المجريين » . فلنتركهما يقولان ما يحلو لهما: والحقيقة المحزنة هي ان اليسار الفرنسي لا يستطيع ان يحدد نفسه اليوم إلا برفض مزدوج .

بيد ان المشروعين يشتركان في كونهما سياسيين وفي انه لا يمكن تقييمهما دون ان تؤخذ بعين الاعتبار الاهداف المطلوب بلوغها والمصالح المطلوب الدفاع عنها ، وباختصار دون إصدار حكم **سياسي** انعكاساته لا يمكن ان تكون إلا سياسية .

انني اعرف السيد دي روجمون : فهو رجل وديع، رفيع التهذيب، وعلاوة على ذلك سويسري، اذن فحظوة فرنسا العسكرية لا تبهره . وعلى هذا ليس من المستبعد أن يكون هذا « الأوروبي » قد اعتبر ضربة السويس خرقاً مشؤوماً. لكنه لم يقل شيئاً . أما عن بودابست فقد أسهب في الشرح والتفسير . هذا لأنه من اعداء الشيوعية : ذوقاً ، لعباً ، مهنة . والحال ان ادانته تظل **اخلاقية**

---

١ – لقد اصطدم الفرنسيون ولا شك بأسلحة فرنسية، وانكليزية. فلقد كنا الى عهد قريب ممونى عبد الناصر .

مكتبة الفكر الجديد

صرفاً : فهو يستنكر باسم حق الناس . انما صمته هو السياسي . او بالأحرى ذلك المزيج من الصمت والشتائم. انه لن يصافح بعد اليوم يد المثقفين الشيوعيين: ستقولون هكذا يكون رد الفعل المثالي حقاً . بالضبط لا : فهو يعطي نفسه سيماء من المثالية ، لكننا نستطيع الدلالة الحقيقية لهذه المثالية اذا ما علمنا ان روجون على استعداد لمصافحة يد غي موليه بدون اشمئزاز . هذا ما قاله لي احد مراسليّ : « ان انصار اللاعنف المطلق هم وحدهم القادرون على الحكم ». وهذا معناه : الذين يحق لهم اتخاذ موقف اخلاقي هم فقط أولئك الذين يضعون رفض سفك الدم فوق كل شيء آخر . بالتأكيد . لكن هذا على وجه التحديد لأنهم يدينون قبلياً العمل السياسي . وبالتالي يصبح من حق القادة السوفياتيين والفرنسيين رد صلاحيتهم للحكم، فهؤلاء الاخلاقيون لم يحموا فرنسا من هتلر ، ولم يقاوموا في ظل الاحتلال ، او هم قد كذبوا مبادئهم اذا كانوا قد فعلوا ذلك. ان السياسة ضرورية ولا يستطيع احد أن يدس بأنفه فيها — ولو كان مجرد مواطن يصوّت كل أربع سنوات لحزب من الاحزاب — اذا لم يقبل مسبقاً بأن العنف يكون ، في بعض الحالات ، أخف الشرور . سوف ألخص هنا رسالة تقدمي تطرح المسألة بما فيه الكفاية من الوضوح : « انت لست بمسيحي ، وليس الشيوعيون بمسيحيين . فهل تستطيع ان تقول لهم : انك لن تقتل أبداً ؟ وأنت مثلهم لا تؤمن بفضائل المقاومة السلبية ، باعتراض الضمير ، بالنزعة السلمية المطلقة : فهل تستطيع ان تلومهم على عنفهم؟ وانت مثلهم تعتبر حقوق الانسان والمواطن مبادىء مجردة ابتدعتها الجمهورية البورجوازية : فهل تستطيع أن تدين الماركسيين باسم ضمانات بالية لم تمنع قط البؤس والاستغلال ؟ ».

انه على حق : فاتخاذ موقف اخلاقي يخفي ، في أسوأ الحالات ، مناورة رجل سياسة . وفي أحسن الأحوال لا يمس الوقائع فيسقط الاخلاقي خارج العملية . لكن السياسة ، مهما تكن ، عمل ينفذه بعض الناس بصورة مشتركة ضد بعض الناس . وعلاقات التضامن او علاقات الصراع والعداء ، القائمة على لقاء المصالح او افتراقها ، تحدد للانسان موقفاً شمولياً تجاه الانسان ، والاهداف

مكتبة الفكر الجديد

المباشرة تستنير بضوء الأهداف البعيدة ، والممارسة تراقب ذاتها بواسطة الاحكام التقييمية التي تولدها والتي لا يمكن تمييزها عن الأحكام الفعلية [1] . وعلى هـذا فإن السياسة الحقيقية تشتمل في ذاتها ، وبصورة مضمرة ، على تقييمها الأخلاقي الخاص وأفضل وسيلة للحكم بصورة شمولية على عمل حكومة من الحكومات أو حزب من الأحزاب ، هي الحكم عليه سياسياً . وانا لا ازعم بهذا ان اي حزب من الأحزاب الفرنسية يملك حق الحكم على اي حزب آخر . فمنذ أكثر من قرن من الزمن ، وتحت أشكال تتبدل مع مجرى التاريخ ، هناك حركة واحـدة تقود المستغَلين الى المطالبة لأنفسهم وللجميع بإمكانية كينونتهم بشراً بصورة تامـة شاملة . حركة واحدة تكشف المجتمع بالذات في كل واقعه وتحدد البورجوازية بالاستغلال في الوقت الذي تعتبرها فيـه سائر الحركات طبقة شمولية . حركة واحدة تنتج من خلال العمل وبه ايديولوجية تتيح لها ان تفهم نفسها وان تفهم الآخرين : انها الحركة الاشتراكية منظوراً اليها في مجملها . انها الحكم المطلق على سائر الحركات لأن المستغَلين يصطدمون بالاستغلال وبصراع الطبقات بوصفه واقعهم وبوصفه حقيقة المجتمعات البورجوازية : فهـي ترى المعنى العميق للمناورات والعمليات لانها لا تستطيع ان تتخلف عن ربطها ببنى التـاريخ الاساسية ، ولانها حركة الانسان الذي هو في سبيله الى صنع نفسه . اما الاحزاب الاخرى فتعتقد ان الانسان قد صُنع ، وانه تابع مجرد للملكية البورجوازية ، ملاك ضجر لا يعرف من حاجات لم تشبع . انها تموه الاستغلال وتجزىء الصراع الطبقي الى منازعات متشتتة وخاصة ، وواضعو عقائدها ومؤرخوها يبحثون عن معنى التاريخ في كل مكان اللهم إلا حيث هو موجود : ولهذا السبب لا يملكون وسائل فهم عمل الطبقات المستغلة ولا وسائل الحكم عليه . بـل هم

---

١ – في ١٠ آب ١٧٩٢ ، بعـد انتصار التمرد ، اجتاحت الجماهير حدائق التويلري . وحاول بعض الاشخاص ان ينهبوا ، فشنقوا . ان هذه الادانة تشكل فعلاً سياسياً من حيث انها اهتمت اولاً بالأثر الذي ستحدثه تلك السرقات على الخصم وبالكسب الذي ستجنيه منها الدعاية المناهضة للثورة اذا لم تلق عقابها . لكنها في الوقت نفسه غير قابلة للفصل عن بعض القيم الشعبية: القرف من الترف الملـكي ، وبالاستفادة منه ، والتطلب الثوري للطهارة ، الخ .

مكتبة الفكر الجديد

يجردون انفسهم حق من القدرة على الحكم علىَ أنفسهم لأنهم لا يريدون معرفة حقيقة ما يفعلون . إن الاشتراكية مرجع مطلق لتقييم مشروع من المشاريع السياسية : فهي تفهم السيد لانيل الذي لا يفهم نفسه . يقيناً ، إن هذه الحركة لا يمكن أن تكون لها مبادىء مجردة ولا برنامج قبلي : فهي في تحول دائم كالإنتاج نفسه ، كعلاقات القوة ، وبكلمة واحدة كالتاريخ . ومن العبث أن نرجع الى بلانكي [1] أو حتى الى غيسد [2] لنقيّم ما يجري اليوم . واذا ما « رجعنا » الى اللينينية ، الأقرب إلينا منهما ، والتي ما تزال حية ، فلا بد من إعادة التفكير فيها بدلالة الموقف الذي ما كان في مقدورها أن تتوقعه . لكن تطور الاشتراكية بالذات ، والمبادىء التي تطرحها بممارستها اليومية ، والتي تنبثق من الجماهير ذاتها ، والتي تتبناها الاشتراكية وتثبتها في دعايتها ، والادانات التي تصدرها كل يوم على خصومها ، وعملها الواقعي ، والصلة العينية التي تربط اهدافها المباشرة ببراميها البعيدة ، وباختصار الكلية الراهنة لحركتها تسلط لنا الانوار على جميع المشاريع ، وعلى مشاريعها أولاً . ان تقييماتها صحيحة ، ولا تبدل في هذه الحقيقة شيئاً الاخطار والجهالات والتخاذلات الآنية . فالتاريخ لم يحتفظ بتقرير السيد تيير عن مذابح ١٨٤٨ او عن الكومونة : بل أعطى الحق للحكم الشعبي ، ولتأويلات ماركس وليساغاراي . ان الاشتراكية هي نفسها التي تستطيع ويجب عليها ان تقيّم عمل الاشتراكي غي موليه ، وعمل روسيا الاشتراكية .

ان هذه الاستنتاجات ستوقعنا من جديد في المثالية لو كان علينا ان نتوقف عندها : ذلك ان الاشتراكية ليست بسيطة ، بل هي تنقسم على نفسها وتتعارض اجزاؤها . فالحزبان العماليان الكبيران لدينا ، على سبيل المثال ، هما في حالة قتال دائم ، باستثناء بعض اوقات من الهدنة ، منذ مؤتمر تور . انهما يختلفان في

---

١ – لويس بلانكي : ثوري فرنسي (١٨٠٥ – ١٨٨١) . كان من دعاة الفوضوية والمغامرة . « هـ . م » .

٢ – جول غيسد : سياسي فرنسي (١٨٤٥ – ١٩١٢) واشتراكي ماركسي ثوري «هـ.م» .

مكتبة الفكر الجديد

تكوينهما ، وفي النقابات التي يدعمانها وفي زبائنهما الانتخابيين ، وفي المصالح التي يمثلانها ، وفي عملهما السياسي ، وفي منهاجهما وفي الايديولوجية ، وفي الاحكام التقييمية التي تولد من ممارستهما فتنقلب عليهما لتراقبهما أو تصححهما . وليس هناك من داعٍ يدعونا الى الرجوع الى السياسة الفعلية لهذا الحزب أو ذاك ، وإلا وجدنا أنفسنا منقادين بسرعة ، شأن المناضلين، الى هضم السويس أو بودابست، حسبما نختار ، إن لم يكن بدافع القناعة فعلى الأقل بدافع الوفاء . ومن السذاجة أيضاً أن نبحث لديهما عن وحدة مبادىء لا يملكانها وأن نبني تقييمنا للتصرفات على اشتراكية ما شمولية ترتد في حقيقتها الى نزعة تخيرية مثالية . ومن الادعاء والعبث أن نخلق بأنفسنا ، ولحاجات القضية ، نظرية مجردة نطلق عليها اسم الاشتراكية « الحقة » أو الماركسية « الصافية » : فلو فعلنا ذلك لردوا علينا ، مصيبين ، كما فعل مراسلي : « انها فلسفتك ، ولا يشاطرك فيها أحد » . لكن لا بد مع ذلك من ان نقرر : فحكمنا على قضية مصر وعلى قضية المجر يحكم علينا ويحددنا . اذن فسوف نبدأ بالقول ان الشيوعية تبدو لنا ، رغم كل شيء ، الحركة الوحيدة التي ما تزال تحمل في ذاتها حظوظ الاشتراكية . لكن في المرحلة الراهنة من البناء الاشتراكي توجد تناقضات عنيفة تمزق الاتحاد السوفياتي والديموقراطيات الشعبية، وتعارض ذاك بهذه، وترمي بالاحزاب الشيوعية الغربية في أتون أزمة حادة . ومن أسباب هذه الصراعات تحولات الشرق الاقتصادية ، والبلبلات التي ترافقها . فهذه الحركة الهائلة من التنظيم وفك التنظيم ، من الدمج والحل ، تعبر عن نفسها ، على مستوى القادة ، في مشاريع متناقضة كل التناقض – سواء أكانت تنفذها جماعات متعارضة أم كانت تمثل التأرجحات المتزايدة اتساعاً باستمرار لقيادة موحدة لكن عاجزة عن تجاوز التناقضات الموضوعية ، لا تنجو من شر إلا لتقع فيما هو أسوأ منه – كما تعبر عن نفسها في تسويات غير طبيعية . وإذا ما اتخذ اليساريون موقفاً من هذا الصراع ، توجب عليهم أن يخدموا **هنا** سياسة مطروحة دوماً من جديد على بساط البحث ومحاربة باستمرار **هناك** ، سياسة تقبل صراحة بالتحول الجاري ليمكنها

مكتبة الفكر الجديد

توجيهه والسير به الى نهاياته دونما تكاليف باهظة . أما فيما يتعلق بي شخصياً ، وحتى أجيب على مراسلي ، فعلي أن أحدد المنظورات السياسية التي امكن للعمل العسكري فيها ان يبدو أقل شراً من الآخر . ومن الضروري بعد ذلك أن يكون تقييمي بالذات لهذه المنظورات قادراً على تبيان الخطوط الكبرى للسياسة الاشتراكية التي قمت به باسمها ، وهو في نظري التقييم الوحيد الذي يتطلبه الواقع ويؤيده في آن واحد .

ان الحكم على السيد غي موليه لا يقتضي كل هذا القدر من التحفظات : فهو لم يزعم قط انه يخدم قضية الاشتراكية . والحق انه لا يزعم شيئاً البتة . اذن فمن السهل تقييم سياسته ، أي قياس الطلاق بين القرارات التي يتخذها وبين الواقع الحي للجماهير التي يمثلها والتي صوتت له . لقد بين السيد دوفرجيه بصورة جديرة بالاعتبار ان نزعة عداء الشيوعية لدى الحزب الاشتراكي الفرنسي وانحطاطه البطيء يرغمان زمرته البرلمانية باستمرار على الاختيار بين المعارضة والخيانة . وقد ألقى السيد غي موليه بنفسه في حمأة الخيانة ، وهو يتمرغ فيها على راحته ، ولست أعرف في التاريخ شخصاً خان مثل هذا القدر الكبير من الناس دفعة واحدة .

خان حلفاءه اولاً . فحتى قبل تشكيل الحكومة ، ضحى بالسيد منديس فرانس لحساب مطالب « الحركة الجمهورية الشعبية » .

ثم خان ناخبيه . فقد حملوه الى السلطة لأنه وعد بتحقيق السلام . وها هم الآن يحملون حربين على أذرعهم .

ثم خان ، بصورة عامة ، جميع الفرنسيين : فلقد سفك دم الجنود من أجل **لا شيء** ، وخرب الاقتصاد الفرنسي بمشروع جنوني مجرم وغبي ، وحقق ضد بلادنا إجماع الامم المتحدة . وقد كشف للجميع عن وجه بشع لفرنسا نرفض ان نتعرف انفسنا فيه : وجه القسوة تجاه الضعفاء ووجه الجبن تجاه الاقوياء .

وخان أخيراً وعلى الاخص — طالما ان هذا ما يهمنا هنا — **خان حزبه** . لم

مكتبة الفكر الجديد

يكن أحد يطلب منه ان يحول مجرة قلم وطن السيد بوساك[1] إلى بلد اشتراكي. لكنه كان يستطيع على الاقل ان يفاوض الجزائريين ، وان يشرع بإجراء اصلاحات في فرنسا ، وأن يبني مساكن . لكن لا . فخليفة جوريس هذا لا بد انه حسير النظر : فهو يخلط مصالح الأمة مع مصالح السيد بورجو[2]، ويرسل الفقراء الى أم قشعم للدفاع عن الاستعمار والشركات الكبرى . ويضع في خدمة الرأسماليين القوة التي يهبه اياها تأييد الاجراء ، ويخرب دفعة واحدة التقاليد السلمية لحزبه باندفاعه بطيش في حرب عدوانية . وأي حرب ! ثمة دعاية ماكرة تهمس باستمرار في آذاننا : « ناصر الدكتاتور ! ناصر الدكتاتور ! » ، لتقنعنا بأننا نحرر مصر من طاغية . هيّا كفاكم ! فطائراتنا قد ألقت قنابلها على فلاحين بائسين تتأكلهم مجاعة مزمنة . وان ناصر ، بتأميمه القناة ، انما كان يلبي الارادة الشعبية : فبهذه الموارد الجديدة سيستطيع ان يبني سداً ، وان يروي ويزيد مردود الأرض المصرية . اما موليه فقد اسقط الصاعقة ، باسم «الشركة» ، على رؤوس هؤلاء الفلاحين السفهاء : ألا فليفطسوا بؤساً بشرط ان يقبض مساهمو السويس أرباحهم . ومن هنا يضع المناضلين امام إحراج : ترك الحزب أو الاعلان عن تضامنهم مع عمل يدينونه عميق الادانة . ولقد غادره البعض . اما الذين بقوا، بدافع الوفاء للاشتراكية، فإنه يربطهم بعجلة المحافظين الانكليز، ويرغمهم على تحمل ازدراء حزب العمال ، حليفهم الطبيعي ، بل يرغمهم ، بصورة أمر وادهى ، على تحمل تصفيق السيد دوشيه . ان هذا اللجنوي كان يهدهد أملاً مرائياً في جر غالبية يمينية إلى تأييد سياسة يسارية : وهذا أمل جميع الخونة في بدايتهم . ولقد عدل عن ذلك اليوم : فهو خائن بلا آمال ولا أوهام. لكن هذه التجربة ستكلف حزبه غالياً : فصاحبنا ، إله الحرب ، الاستعماري، الامبريالي ، والمولع بالقتال ، ينتهج ، وهو على اتم معرفة ، سياسة يمينية مع غالبية يمينية . واليمين يربح على جميع المستويات : فهو يبلغ اهدافه والاشتراكية

---

١ – من كبار الرأسماليين الفرنسيين . «هـ.م.»

٢ – من كبار المعمرين الفرنسيين في الجزائر . «هـ.م.»

مكتبة الفكر الجديد

لاسر حظوتها . انهم سيمنحون السيد موليه الوقت الكافي لتطبيق جميع التدابير اللاشعبية التي ستحتمها اخطاؤه . ثم سيفقأ اليمين هذه النفاخة ويستعيد السلطة بين تصفيق الجميع . وآنذاك ستكون الفاشية قريبة كل القرب وستكون قد جرت تصفية الحزب الاشتراكي الفرنسي .

وتختلف المسألة اختلافاً جذرياً بصدد « ضربة بودابست » ، والاسئلة المطروحة ذات طابع أرحب بكثير . فحكومة الاتحاد السوفياتي قد تدخلت في المجر ، على حد قولها ، لتنقذ أسس الاشتراكية . وقد عزمت أمرها على هذا التدخل يوم أصبح محتماً بسبب اتساع الاضطرابات المناهضة للثورة .

ولهذا يختم أحد مراسلي رسالته بقوله : «انت تزعم انك اشتراكي : فاشكر اذن السوفييت على حفاظهم على الاشتراكية المجرية ولو بالعنف » .

وخلاصة القول انهم يأخذون علي انني اعزل هاتين الجزرتين ، وانظر اليهما في ذاتهما ، دون ان آخذ بعين الاعتبار السياق التاريخي والضرورات والهدف . فموليه قتل في بورسعيد دفاعاً عن مصالح الرأسمالية : ولهذا السبب ومن هذا المنظور يستحق الإنزال الانكليزي – الفرنسي الادانة . لكن اذا كان المرء يوافق على الحروب الدفاعية ، وعلى حروب التحرير والانصار ، وعلى تمرد الطبقات المضطهَدة ، وباختصار اذا كان يقبل بالعنف في بعض الحالات ، فكيف يرفضه عندما يكون البناء الاشتراكي في خطر ، وعندما يشنق الفاشيون المسلحون مناضلي الحزب ، وعندما يتهيأ الغرب لجني ثمار الثورة المضادة . كما ان انقاذ مكاسب البروليتاريا في المجر يعني في الوقت نفسه حمايتها في جميع الديموقراطيات الشعبية وأخيراً في الاتحاد السوفياتي بالذات : لقد استأنف الجيش الاحمر وتابع في المجر -- بوسائل أكبر قليلاً – ما كان عمال سان بترسبورغ وبحارتها قد شرعوا به في تشرين الأول ١٩١٧ . وإذا كانت الاشتراكية تتسامح مع طلقات مدفع المدرعة « اورورا » ، فلمَ ستدين طلقات مدافع دبابات جوكوف ؟

هذه هي الحجة التي تتردد في بعض الاوساط التقدمية والشيوعية . يقال انها

مكتبة الفكر الجديد

حجة ماركسية ، وانا أظنها اقدم من ماركس بكثير . انها تتلخص على الشكل التالي : « لا بد مما لا بد منه » . وكل إنسان يعرضها مع فروق زهيدة خاصة تفرضها حساسيته . فهناك الشجعان الذين يبتسمون بجسارة : « حسناً ، اجل ! هناك قتلى . ثم ماذا ؟ هل تتصورون ولو مجرد تصور مقدار الحيوات الإنسانية التي ستكلفها ثورة عالمية ؟ لا مفر من القبول بالأمر الواقع ، نقول ذلك بصراحة . لا مفر من تحملهم ، اولئك القتلى . انه واجبنا » . وهناك المبلبلون الذين لم يغمضوا عيونهم منذ ٤ تشرين الثاني والذين تسيل دموعهم بلا تمييز على العمال الطيبين الذين شنقهم الفاشيون وعلى البروليتاريين الأبرياء الذين اصابتهم رصاصات سوفياتية – رصاصات تائهة ، بالتأكيد : انهم يحدثونك ودموعهم تسيل عن « الاحراج المأساوي » وعن « الواجب المؤلم » ، لكنك اذا سألتهم : « لكن انتم ؟ ما رأيكم الخاص بالاحداث ؟ » ، اداروا ظهورهم وهم يتظاهرون بأنهم على عجلة من أمرهم ، قائلين : « انا ؟ حسناً ، انني مضطرب ، مضطرب فقط » . وهناك المرحون الذين يضحكون من غضب الآخرين : « لكن لا تأبه يا صديقي المسكين : فغضبك لا يعدو ان يكون أكثر من غضب الزوج المخدوع ، هذا كل شيء » . وهؤلاء واثقون من انفسهم : فهم لن يتصوروا انفسهم ابداً ازواجاً مخدوعين ، اللهم إلا بعد ان يسقط مليون قتيل . وهناك العدوانيون : «حسناً ، يا صديقي المسكين ، من حسن حظك انك لم تكن رئيس الحكومة المجرية ، وإلا كانت مشنقتك معلقة اليوم ، وهورثي في الحكم مكانك » . وهناك المتجردون – من التقدميين بعامة – الذين تعلموا ان يرتابوا في ردود افعالهم الشخصية : على المرء ان يصدر حكمه بصورة سليمة ، برأس بارد ، عليه ان ينتظر النتائج : فالاشتراكية حدث ضخم يقاس بالقرون . وبعد بضعة عقود ، لن يبقى هناك من يتأثر بالمظهر القصصي للمجازر ، وسوف تتجلى ضرورتها ، بعد ان تكون قد صُفقت ، بكل جلائها » . وهناك الجدليون الذين يهزون اكتافهم : الروس انصار السلم العالمي ؟ وهم ينهالون بالضرب على المجر كالصُمّ ؟ ثم ماذا بعد ؟ هذا برهان على ان هناك تناقضاً أضافياً في صيرورة التشريك ،

مكتبة الفكر الجديد

ولا غنى عن تعميده » . وقد كتب لي أحدهم : «لماذا تستنكر عملاً هو بالتأكيد مؤسف ، لكنه قابل للتبرير تماماً اذا قبلنا للحظة واحدة ، لحظة الحقيقة ، بأن هناك اليوم تناقضاً جديداً بين الاشتراكية والسلم ، تناقضاً لم يحله مذهب الماركسية الكلاسيكية؟» . انهم جميعهم ، يخفون حرجهم وراء المحاكمة التالية : الاشتراكية أولاً ، وسنقتل اذا لم يكن من القتل بد ، ولتسقط تبعة دم الضحايا البريئة على المجرمين الذين دفعوا بها الى التمرد .

اننا نوافقهم على نقطة واحدة : ان قسماً من الدم المسفوك تقع تبعته على الحكومات الغربية ، على حكومة السيد ترومان . ايتها الارواح المرهفة ، ايتها الارواح الرقيقة ، يا من تبدون استنكاراً عظيماً اليوم في اعمدة « الفيغارو الادبية » هل كنتم تعلمون ان الاذاعات ، الممولة او غير الممولة من قبل الولايات المتحدة ، كانت تحث يومياً المجريين على العصيان في الوقت الذي لم يكن يملك فيه الغرب لا الوسيلة ولا النية لدعمهم ؟ بلى ، كنتم تعلمون : فهذا شيء لم يكن يخفى على أحد وكانت الصحف البورجوازية تهنىء بعضها البعض عليه . فهل احتججتم ؟ كلا : فقد كنتم تؤيدون تلك الدعاية او كنتم طائشين ، مغرورين ، وتافهين على الاخص ، وكنتم تلزمون الصمت عما تعيثه من فساد . حسناً، اقرأوا اليوم في الصحافة البورجوازية (في « فرانس سوار » على سبيل المثال ، وفي « الاكسبريس ») حكايات المندوبين الخاصين : سوف تدركون ان المجريين يبصقون على ألوان علمنا. واولئك الذين كانوا يجدون ، هناك ، تلك الاذاعات مؤذية وكاذبة ينضمون اليوم الى اولئك الذين شجعتهم . وفي وسعكم ان تقدموا للجميع قلوبكم الكبيرة العظيمة :فلسوف يردون بالمقت على زاخر عواطفكم.

بعد هذا ، أرى لزاماً علي أن أقول انني اعتبر حجة المبلبلين والمتأففين سفسطة صارخة يتحايلون في إسنادها الى توكيدات غير مثبوتة: فقد كان عليهم ان يبرهنوا لنا على ان الاشتراكية كانت بحكم المجهز عليها لولا دبابات جوكوف . والحال ان الوقائع التي يروونها لنا – أصحيحة كانت أم كاذبة، وهي بصورة عامة أقرب إلى الكذب منها إلى الحقيقة – تعلمنا فقط ان الاشتراكية كانت في

مكتبة الفكر الجديد

خطر . والتسليم المسبق بأن التدخل الروسي قد أنقذ الاشتراكية ، يعني تبرئة ساح الاتحاد السوفياتي : كانت الضرورة ترغمه على الضرب ، فضرب وأعـــاد توطيد النظام ، هذا كل شيء . والمسألة كلها لا تعدو ان تكون أكثر من ان فوضى موضوعية قد حركت اوتوماتيكياً آليات معدلة . ولم يشأ أحد ، من بين هؤلاء الحانقين ، ان يفهم ان الاتحاد السوفياتي قد **عرّف بأفعاله** اشتراكيته الخاصة والاشتراكية المزمع على إعادة توطيدها في المجر . ولم يجرؤ احـــد على التساؤل اذا لم يكن هذا العمل العسكري، بتحويله علاقات المعسكر الاشتراكي الداخلية الى علاقات قوة ، قد ألحق بالقضية المدافع عنها ضرراً افدح من الضرر الذي كان يمكن ان يصيبها نتيجة انتخابات حرة واعلان الحياد . ولم ير أحـــد ان التدخل **كان تعبيراً عن سياسة** . اذن فحـتى اجيب على مراسلي ، لا مفر من اعادة النظر في كل شيء والبدء من البداية .

لنسلم لوهلة أولى بأن التدخل كان محتماً . إذن فهذا معنـــاه ان الحكومة النظامية تقر بعجزها : فبعد اثني عشر عاماً من سلطة مطلقة ، فقدت السيطرة على الجماهير وما عـــادت تمثلها . وما الاسباب الحقيقية لاستنجادها بالسوفييت سوى عزلتها والعداء لها حتى في صفوف الشيوعيين . وهكذا يبدو التدخـــل الأجنبي كخاتمة منطقية لسياسة مجردة وزائفة قادت إلى كارثة اقتصادية وولدت من تلقاء نفسها الثورة المضادة . ونحن نرفض في هـــذه الحالة ان ننظر إلى آخر حلقة في هـذه السلسلة وان نقيّمها على حدة . ان المبالغة في التصنيع والتطبيق السريع للمزارع الجماعية **عمل اجرامي من البداية** : عمل يحمل في ذاته ومن اليوم الأول مجازر بودابست ومآلها على حد سواء . وإذا ما انتزع منا الحق في ادانـة هذه المجازر في التاريخ واليوم الذي بدأت فيه ، فإننا سندينها اعتباراً من أول يوم من عام ١٩٤٩ ، ذلك انها كانت قائمة مذ ذاك ، وكانت تلوث سلفاً جميـــع خطوات القادة العميان . وبالفعل ، اي أهمية لما تعتقد حكومة من الحكومات انها تفعله ؟ فالمهم هو ما تفعله . فماذا كانت تفعل ؟ كانت تدفع بتصميم بشعب بأكمله الى اليأس. واولئك الذين يحلو لهم ان يحدثونا، وعيونهم جاحظة ، عن

مكتبة الفكر الجديد

قوة الفاشيين الشيطانية ، أجد نفسي مضطراً إلى تشبيههم بالسيد برنهارم ، الاختصاصي المعروف في نزعة عداء الشيوعية . لقد ضحكت ملء قلبي وأنا أقرأ كتبه : فهو يصور لنا عمالاً مزدهرة احوالهم ، تربطهم بأرباب العمل وحدة مصالح وتقدير متبادل . اننا امام السعادة بعينها . ثم على حين بغتة تخرج قبضة من الشيوعيين من الجحيم بالذات وتبث الشقاق في كل مكان : وكان مثل هذا العمل يكفي لإلقاء شعب سعيد في بؤرة اليأس . لقد وجدت هذه الحجج نفسها بأفلام شيوعية : والفرق الوحيد انها لم تضحكني . بل إن من واجب العدل علي ان أقول ان هناك فرقاً آخر : ان وحدة مصالح العمال مع الأوساط الحاكمة **واجبة** . لكن إذا كانت وحدة المصالح هذه موجودة واذا كانوا يأكلون على راحتهم ، وإذا كان مستوى الحياة لا يكف عن الارتفاع ، وإذا كانوا يعون انهم يعملون لأنفسهم إذ يعملون للمجموع ، فهل من الممكن ان نتصور ان الفاشية قادرة على اقناعهم بأنهم يفطسون جوعاً ؟ وإذا لم تكن وحدة المصالح تلك موجودة ، فعلى من الخطأ ؟ انني لا اسيء تقدير دور المهاجرين : انما اقول ان الناس لا يلقون بأنفسهم الى براثن الموت عن طيب خاطر اذا كانوا يستطيعون تجنب ذلك ، وأقول ان الدعاية الفاشية غير كافية لتدفع بهم الى مهاجمة المصفحات وهم عراة الأيدي ، وان المرء لا يركض خلف الموت إلا عندما لا يعود يرى في الحياة سوى احتضار متطاول . انني لن أتواقح واذكر القادة الشيوعيين بشعار عمال النسيج اليدوي في ليون : « اما ان نحيا ونحن نعمل واما ان نموت ونحن نقاتل [1] » . لكني اعرف انهم يعتبرون هذا الشعار في غاية الجمال . وانهم لعلى حق . لكن هل كان العمال المجريون يقولون شيئاً آخر ؟

ان هؤلاء العمال يثيرون غيظ بعض المثقفين الستالينيين عندنا . وهناك من التزم بنفي وجودهم نفياً باتاً كذلك النذل الباسل الذي كان يقول لي بالأمس : « بودابست ؟ مدينة كريهة ، تسعمئة الف بورجوازي صغير لابدون في

---

١ ــ اشارة الى ثورة عمال النسيج اليدوي عام ١٨٣١ في مدينة ليون ، الذين حطموا آلاتهم . « هـ . م »

مكتبة الفكر الجديد

جحورهم [1] » . وهناك آخرون ، اكثر استنارة ، لا يفكرون بنفي وجود البروليتاريا المجرية ، واشتراكها في العصيان ، وانتخابها مجالس عمالية ، وتقريرها الاضراب العام . لكن لهذا السبب على وجه التحديد لا ينظر اليها « ذوو الشكيمة » عندنا بعين الرضى . ولقد سبق للسيد ستيل أن قام بعمل طيب : تلك اللجان ، مجالس المصانع تلك ؟ أتعرفون أنتم من أين أتت ؟ ومن انتخبها ؟ هيا ، لا تتجاهلوا ! ان الفاشيين هم المسيطرون عليها . ان هذه المزاعم معروفة في بودابست . وقد كذبها كادار على الفور تكذيباً صارخاً عندما اعتبر اللجان والمجالس ممثلة للطبقة العاملة وقبل بالتفاوض معها [2] . لكن الحجة قد شقت طريقها . ولقد تذمر احدهم بالامس قائلاً : « الطبقة العاملة ؟ حسناً ، ما شأنها ؟ هل تعتقد أنها معصومة عن الخطأ ؟ هل تحركت عندما قام لوي بونابرت بانقلابه ؟ ألم يكن هناك عمال وراء موسوليني ؟ ووراء هتلر ؟ » . ولو لم أسمع هذه العبارات بأذني الاثنتين، لما جرؤت على تكرارها . وانني بالتأكيد سأسلم بأن الطبقة العاملة غير معصومة اذا كان القصد من ذلك ان ما من انسان معصوم ، وان الحقيقة تتوطد رويداً رويداً في علاقة جدلية بين الجماهير والاطارات ، وسط الاخطاء والاغلاط الباهظة الثمن ، وعبر مناقشات واحياناً نزاعات . لكننا نرفض أن نسير خلف الشيوعيين الذين يفضحون أخطاء البروليتاريا عندما يريدون أن يتخذوا من هذه الاخطاء حجة ليعطوا الحق **في جميع الحالات** الى مكتبهم السياسي . وبالفعل ، انها لمهمته هو أن يفضح أخطاء الجماهير عندما أعلن على التوالي عن إجرام كوستوف وراجك وسلانسكي ، وعندما نفى وجود معسكرات العمل ، وعندما أثبت ان تيتو فاشي « بالمعنى العلمي للكلمة ! » . انني اعرف ما سيقوله ، ما يقوله اعضاؤه يومياً : « لقد ارتكبت اخطاء ، لكن ... » . المشكلة ان « لكن » هذه لم تعد مقبولة . توقف قليلاً عندها يا سيد فاجون . استخلص منها بعض

---

١ – معروف ان بودابست تعد ١،٧٠٠،٠٠٠ نسمة .

٢ – صحيح انه حلها بعد خمسة عشر يوماً .

مكتبة الفكر الجديد

الاستنتاجات لنفسك ولأصدقائك . كهذا الاستنتاج على سبيل المثال : أن لا بد ان اكون متواضعاً الآن ، متواضعاً جداً ، وان السيد خروتشيف قد هتك الحجاب عن أكاذيبكم للعالم قاطبة ، وانه من الافضل الانتظار بعض الوقت قبل معاودة ارتكابها . ثم على فرض ان العمال المجريين قد أمكن لهم ان يقعوا في الخطأ سياسياً – انك أنت الذي تقول ذلك وبودي لو أقبل به للحظة من الزمن . لكن حين كانوا يقولون : « لدينا عمل اكثر مما ينبغي ، وليس لدينا ما فيه الكفاية من الطعام » ، كانوا القياس المطلق لما هو زائد عن حده ولما هو ناقص عن حده . وعندما رفض من هم على شاكلة راكوزي وجيرويه – هذين الصديقين اللذين ما تزال تدافع عنهما في أحاديثك الخاصة – الاستماع اليهم ، برهنوا لهم ان سياسة الحزب خاطئة ، وان الجهاز البيروقراطي يسيء تقدير قوة الجماهير الثورية ولا يأخذ البتة بعين الحساب صبواتها . ان اخطاءهم هي التي افهمت الطبقة العاملة انها ملزمة ، حتى في بلد اشتراكي ، بأن تخلق اجهزتها الدفاعية الخاصة .

لو وزّنا الامور في ميزانها الصحيح ، لوجب علينا ان ننصح الشيوعيين الفرنسيين بألا يصيحوا عالياً وجهاراً بأن التدخل السوفياتي لم يكن ممكناً تجنبه . ذلك ان هذه الحجة البائسة تحمل ادانة جذرية تامة لكل ما جرى في المجر حتى يومنا هذا . تعذيب ، اعترافات مزيفة ، محاكمات كاذبة ، معسكرات اعتقال : ان اعمال العنف هذه هي في جميع الحالات اعمال لا تغتفر . ولقد كان من الممكن ان تُنسى مع مر الزمن لو كانت مجرد فسالة انقلاب ضخم ومجتمع في سبيله الى إرساء أسس الاشتراكية . لكن حين يتداعى كل شيء معاً ، وحين يقف الشعب بكامله – اذا كان لا بد من تصديقكم – الى جانب الفاشية لتصفية النظام ، فإن أسس الاشتراكية لا تكون قد وجدت قط . ألا فلتكن ثقيلة عندئذ وطأة جميع تلك الجرائم التي اقترفت من اجل لا شيء . وجميع تلك التضحيات اللامجدية . ذلك ان فشل الستالينيين يظهر حقيقة ذلك البؤس وذلك الارهاب اللذين لم يكن لهما من مستقبل غير الكارثة النهائية .

مكتبة الفكر الجديد

لكني لا أشاطر تماماً ستالينيينا صرامتهم اللاشعورية . انني اقر بأن المزارع الجماعية باءت بفشل رائع ، وبأن التصنيع اخفق نصف إخفاق . لكن تأميم الصناعة حمل ثماره عبر هذا كله : فتكونت طبقة عاملة تريد حماية الاشتراكية. ولن يشق علينا أن نطبق على المجريين هذه الكلمة التي قالها صديق شيوعي يحب البولونيين كثيراً : « ان صناعة السيارات في بولونيا قد انتجت سيارات رديئة وعمالاً رائعين » . كلا، ان نتائج الستالينية لم تكن **حتمية** : انما كان من الواجب البدء في « نزع الستالينية » في الوقت المناسب . فلو تركت السلطة عام ١٩٥٥ لناجي او حتى لو استدعي في مطلع تشرين الأول ١٩٥٦، لأمكن تجنب التمرد. إن ما أفقد الجماهير صبرها هو ذلك الخليط المدهش ، في قلب الحزب بالذات ، من ستالينية ما تزال عدوانية ومن انصار اللاستالينية . انها الترددات ، الرجوع الى الوراء ، المماطلة والتأجيل ، والتناقضات . ولا ننسَ ان خروتشيف ، في شهر تشرين الاول ذاك، كان يهبط في وارسو بينما كانت القوات الروسية وقوات روكوسوفسكي البولونية تزحف على العاصمة . ولو كان جيرويه في تلك اللحظة مكان أوشاب ، لأثبتوا لنا اليوم ان التدخل الروسي كان ضرورياً في بولونيا ، ولحدثونا عن الفاشية البولونية . وبالمقابل ، لو كان اوشاب أميناً عاماً للحزب الشيوعي المجري ، لأشادت البرافدا بالصداقة المجرية – السوفياتية ، ولقدمتها كمثال يحتذى لبلدان اوروبا الوسطى . سيقال بلا شك ان جيرويه هو من نتاج الستالينية : هذا صحيح . لكن اوشاب كان كذلك ايضاً . كلا : ان اللعبة لم تتم مرة واحدة ونهائية . والنضال واجب . لكن إذا كان سفك الدم ما يزال ممكناً تجنبه في النصف الأول من تشرين الاول، فمن يثبت لنا انه كان من الممكن تجنبه في اللحظة التي حدث فيها بالذات ؟

ان من يسلمون سلفاً بضرورة التدخل الروسي ، قد اتخذوا موقفهم على الفور وبدون أدنى معلومات . فما يعنيهم ليس المجر : إنما الاتحاد السوفياتي. وقناعتهم وليدة فعل ايمان : « ما دام الجيش الاحمر لا يستطيع ان يطلق النار على العمال إلا اذا كانت هناك ضرورة مطلقة ، إذن فلا ريب في ان مجزرة بودابست كانت

مكتبة الفكر الجديد

ضرورية » ان بنية الاتحاد السوفياتي الاشتراكية تقرر في نظرهم طبيعة علاقاته مع البلدان الاشتراكية المحيطة به ، وهـــذه العلاقات لا يمكن إلا ان تكون اشتراكية . والحال ان الأحزاب الشيوعية في العالم قاطبة ، وحركة أنصار السلم، والقادة السوفياتيين قد أدانوا مئة مرة مبدأ التدخـــل العسكري ونادوا بحق الشعوب في تقرير مصيرهـا . **اذن** فالجيش السوفياتي لم يتدخل **حقاً** ، اللهم إلا ضد عملاء الأجنبي : لقد فزع الى نجدة حكومة حليفة وإلى نجدة الطبقـــات الكادحة ، وانقذ الشيوعيين الأخيار من المجزرة وحارب الأبالسة التروتسكيين والصلبان المعقوفة ، وشجع الجماهير على رفض الاغراءات . اما طلقات المدافع فيجب ألا يبقى في أذهاننا منها غير ضيائها الساطع الذي أنار السبيل امام شعب متردد وارشده الى الصراط المستقيم . وكانت القنابل ، الموجهة من قبل الصيرورة التاريخية ، تختار الفاشيين ولا تصيب غيرهم .

المشكل هو ان جيش الاشتراكية قد سفح الدم مرة واحدة على الاقل بدون ضرورة : على وجه التحديد في المجر ، قبل بضعة أيام ، عنـــد تدخله الأول . فلكثرة ما فكرنا بلا أدلة بيوم ٤ تشرين الثاني ، نسينا تماماً تلك الليلة الواقعة بين ٢٣ و ٢٤ تشرين الأول ، التي قبلت فيها القيادة السوفياتية ، بناء على طلب من جيرويه ، بأن تطلق قواتها النار على الجموع . ان ما من أحد يستطيع اليوم أن يزعم ان المسألة كانت آنذاك مسألة « انقـــلاب فاشي » . وحتى السيد والديك – روشيه [1] يعترف بأن الاضطرابات الأولى كانت تعبر عن « استياء مشروع » من جانب العمال. ولم تكن هذه الجموع، الفرحة الغاضبة في الشوارع ، الفرحة اكثر مما هي غاضبة على الارجح ، لم تكن تعلم أهي **تطالب** بعودة ناجي أم **تحتفل به مقدماً** : فلم تكن اللجنة المركزية قد قررت شيئاً بعـــد ، لكن قرارها في نظر الجماهير كان بحكم المؤكد : ولو اعلن على الفور لاستتب الهدوء شيئاً فشيئاً . وكان جيرويه ، لدن عودتـــه من بلغراد ، يسلك سلوك التحدي والإثارة لغيظه من ذله أمام تيتو : هل كان في وسعه أن يجهل انـــه ، بمعاملته

---

١ – رئيس الحزب الشيوعي الفرنسي حالياً . « هـ. م » .

مكتبة الفكر الجديد

المتظاهرين كما لو انهم رعاع ، سيقلب المظاهرة على الفور الى فتنة ؟ من يدري اذا لم يكن يتمنى ذلك ! من أطلق أولى الطلقات ؟ المتظاهرون ؟ الشرطة السياسية ؟ الراكوزيون المراهنون على اسوأ الاحتمالات ؟ لا أحد يعرف ذلك . لكن المعروف حق المعرفة بالمقابل ان جيرويه وثب على هذه الفرصة، واستدعى الجيش الأحمر لنجدته . لكن جيرويه لم يكن أكثر من ممثل ثانوي . وهل ثمة من يعتقد ان القادة الروس كانوا ملزمين بطاعته ؟ أما كان في وسعهم ، على العكس ، ان يثبتوا له إفلاسه وأن ينصحوه بالاختفاء عن المسرح ؟ وعندما استدعي ناجي ليلاً ، كانت جميع الفرص متاحة له لتهدئة الفتنة لو لم تستعجل القوات الروسية باطلاق النار . ان جانوس كادار ، المنصّب والمحمي من قبل السوفييت ، لا يتردد اليوم في الكلام عن جرائم جيرويه وراكوزي . وحماته يتركونه يقول ذلك : فهل ينبغي ان نؤمن بأن جنودهم اطلقوا النار على الشعب نجدة منهم لمجرم وتغطية لأخطائه ؟ واكثر من ذلك أيضاً : ان ناجي لم يخف قط رأيه بالاستنجاد بالسوفياتيين ، وكانت تنسب اليه مسؤولية ذلك فكان يتنصل منها بحدة ويقول : « انهم القتلة الراكوزيون الذين ارادوا أن يلوثوني » . والحال ان كادار كان مشتركاً في الحكومة ولم يحتج قط . واذا كان قد استقال في ٢ تشرين الثاني ، فذلك لأسباب اخرى سوف نناقشها فيما بعد . وهو لا يزال الى اليوم يجهد في تبرير احداث ٤ تشرين الثاني ، لكنه لا يتعرض البتة الى احداث ٢٣ تشرين الاول . وهذا معناه ضمنياً اعتبار خطوة جيرويه جريمة مجانية جعل الروس من انفسهم متواطئين فيها . والحكومة السوفياتية ؟ ما رأيها ؟ ماذا يقول الكتاب السوفييت في الرسالة التي وجهوها الينا ؟ لا شيء. لا شيء البتة . ان هذه المجزرة الاولى تحرج بالغ الحرج محرري « الاومانيته » و « فرانس نوفيل » والسيدين غارودي ووالديك – روشيه ، فيتصرفون كما لو انها لم توجد قط[1]. ان جميع الوقائع التي يستشهدون بها والتي فسرت ان كثيراً

---

١ – على أن أقول انني استمعت ، في حركة انصار السلم ، الى محدث مفوه ، فارغ العين ، لم ينفعل البتة تقريباً لهذا التدخل الاول . وكنت قد تكلمت عنه قبله وتحديته ان يثبت لي =

مكتبة الفكر الجديد

وان قليلاً ، كنشاط الفدائيين الفاشيين وعمليات السحل والانزلاق نحو اليمين ، انما جرت بعد ٢٤ تشرين الأول . اذن فهو التدخل الثاني الذي يحاولون أن يبرروه . لكني لن أسأم من التكرار : بالتدخل الأول يجب أن نفكر أولاً ، وعنه يجب ان نتكلم دوماً . وحين يريد الستالينيون ان يثبتوا لنا ان العدوان الثاني كان محتماً ، فلنجبهم بأن العدوان الأول في هذه الحال هو الذي حتمه . يا أيها الرسل الصالحون ، أتتباهون بلا حياء بأنكم قتلتم لتلافي الحرب العالمية ، مع أن جرائمكم الأولى هي التي هددت باندلاعها! تزعمون انكم انقذتم الاشتراكية: اجل ، في ٤ تشرين الثاني . ان هذا ، على الأقل ، امر يمكن النقاش فيه : لكن حين رحتم تطلقون النار في ايام تشرين الأول تلك ، وحين راحت دبابات الجيش الشيوعي تذبح العمال الشيوعيين بناء على طلب من زعيم شيوعي ، فإن رصاصاتكم وقنابلكم انما كانت تنسف الاشتراكية بالذات .

إنه ما من عمل ، في السياسة ، ضروري بصورة غير مشروطة . وحتى بعد « انزلاق » الثورة المجرية « نحو اليمين » ، لا يستطيع أحد ان يقول بضرورة القمع المسلح إلا عبر منظور معين يفترض وجود بعض اهداف مباشرة وبعض

. ضرورته. فصعد الى المنبر واراد أن يرد التحدي، وقال بظاهر من سذاجة: « التدخل الاول؟ انني أقر بأنك بعثت فيّ اضطراباً كبيراً : فأنا لم أفكر به قط . لكني اقول في نفسي ان الاتحاد السوفياتي لو اراد ، بكل دباباته وبكل مدافعه وبكل جنوده ، ان يحزم أمره من المرة الاولى لما وجدت هناك مرة ثانية » .

هذا صحيح . بل اني اسلم بأكثر من ذلك لمجادلي : فلو شاء الاتحاد السوفياتي تجريب اسلحته الذرية على بودابست وعلى بعض المراكز العمالية ، لما واجه اليوم مقاومة المجر المزعجة والمغيظة والعنيدة ، ولما كانت المشكلة المجرية تعدو ان تكون اليوم اكثر من مشكلة اعادة تعمير . ونحن نعرف بالاصل الرقم التقريبي الذي اعطاه نهرو بناء على تقرير سفيره : ٢٥٠٠٠٠ قتيل . ويقول « صاحبي » بلا شك : « ٢٥٠٠٠٠ قتيل مجري ، يا للشهامة ! كان هناك ٩ ملايين يلبغي قتلهم ، فترك منهم الاتحاد السوفياتي ٨٠٩٧٥٠٠٠ على قيد الحياة ! وبالطبع يجب ان نحسب ، فيما بعد ، عدد الذين ماتوا جوعاً وبرداً وعدد الذين اعدموا ، لكن عدد القتلى لن يرتفع الى ١٠٠٠٠٠٠ مهما بالغنا . ومع ذلك تعلنون استنكاركم ؟ » . وينبغي ان نرد على هذا الغبي بأن مجزرة من المجازر لا تبرر بعدد الضحايا .

مكتبة الفكر الجديد

أهداف أخرى أبعد مدى ، كما يفترض صلة تكنيكية معينة بهذه الغايات وقيماً وتصوراً عن الإنسان . وهذا كاف لنفهم ان هذا المنظور انما هو منظور فئات معينة ، وانه يعكس تكوينها ومصالحها . وحتى يعلن المرء ان احترام مبدأ « عدم التدخل » في القضية المجرية كان سيؤدي الى الحرب العالمية ، فلا بد ان يكون قد كوّن فكرة معينة عن الديموقراطيات الشعبية ، والغرب الرأسمالي ، وعلاقات القوة ، وعلاقات الصراع الطبقي ، ولا بد ان يكون قد راهن ، بدلالة هذه الفرضيات ، على مستقبل معين ، ولا بد ان يكون قد حدد سياسة معينة بدلالة هذا المستقبل بالذات وبدلالة القوة الثورية لمختلف البروليتاريين . وهذا كله يفترض ان يكون هذا المرء قد حصل على معلومات معينة ، وان يكون قد قيّمها من وجهة نظر محددة ، أي بدلالة بعض المواقف المسبقة وبدلالة ثقافة معينة . لكن هذه الثقافة وهذه المواقف تحدد بدورها البشر الذين قاموا بالاختيار السياسي: فهي ترجعنا الى موقفهم العميق من الاشتراكية ومن الإنسان، وبالتالي الى تكوينهم ومصالحهم والى الطبقة أو البيئة التي انتجتهم . وبصدد أحداث المجر ، ليس هناك سوى سؤال واحد يُطرح : بالنسبة إلى أي بشر وعبر أي منظور سياسي كان التدخل السوفياتي ضرورياً ؟ اننا لن نستطيع الاجابة على هذا السؤال دون ان نحاول أولاً – وبقدر الامكان – ان نحدد طبيعة وتكوين وتطور حركة التمرد بين ٢٤ تشرين الأول وصبيحة ٤ تشرين الثاني .

ان تصريحات اذاعة بودابست ، وبعض الاعترافات التي ادلى بها الحكام الشيوعيون مؤخراً ، تسمح لنا بأن نستبعد موقفين متطرفين : فحتى الشيوعيون يعترفون اليوم بأن المسألة لم تكن مجرد مسألة انقلاب فاشي ، والتروتسكيون هم وحدهم الذين يزعمون ان التمرد كان بأكمله ذا طابع تقدمي والحقيقة تكمن في مكان ما بين هذين التوكيدين المتماثلين في مجانيتهما وتعميمهما. في مكان ما لكن أين ؟ ان تحديده يتطلب تحليلاً ماركسياً للوضع : لكن عناصر التحليل لم تتوفر لنا بعد . ان فاجون وغارودي ووالديك – روشيه يرددون جوقة واحدة :

مكتبة الفكر الجديد

« لنكن ماركسيين ! » لكن انفاسهم تنبهر بعد بضع عبارات مبتذلة مأخوذة من « التعليم الديني » الماركسي عن الجمر قبل الحرب وعن تطورها بعد ١٩٤٥ . وهـذا لأنهم لا يعرفون شيئاً . وبالتالي لا يبقى امـامهم سوى ان يسهبوا في الانشاء حول الصراع الطبقي . ويبدو ، في رأيهـم ، اننا « لم نقـدره حق قدره » . والحال ان الصراع الطبقي موجود : فهو محرك التاريخ . لكن ينبغي ألا يتحول الى « قرص حلوى بالكريما » تحت أسنان المكتب السياسي . انكم سترغمون ذات يوم ، ايها الماركسون الكسالى والطائشون ، على الموافقة على ما يلي : ان تمرداً شعبياً في بلد اشتراكي لا يمكن ان يدخل في مخططاتكم التعميمية . وانتم تعلمون ذلك حق العلم فلا تتوانون بالتالي عن اللف والدوران المدوخـين : لما تسمونه « الصراع الطبقي » في الجمر انما هـو استغلال الرأسمالية الاجنبية للتمرد . ان محاكمتكم الباطلة ترتد الى سلسلة من معادلات كاذبة : الحرب الباردة ليست إلا شكلاً من اشكال صراع الطبقات[1] ، كل ما يمكن ان يخـدم الكتلة الغربية هـو بالتحديد ثورة مضادة . والحـال ان التمرد المجري – مهما تكن أهدافه وعوامله وادواته – يلعب موضوعياً لعبـة الامبريالية الرأسمالية . اذن فهو ثورة مضادة . انهم يسيئون تقدير الصراع الطبقي ، أولئك المجريين الصعبي المراس الذين يكنّون البغضاء لطغيان الراكوزيين . انهم يسيئون تقدير الصراع الطبقي ، أولئك الشيوعيين القوميين الذين يريدون ان يقيموا بـين الاتحـاد السوفياتي والجمر علاقات اشتراكية حقيقية . والجـوع ؟ وتعب العمال المزمن ؟ ان هذه الحاجات تدفع بإساءة التقدير بعيداً جداً حتى أنهـا تؤدي الى انخفاض الانتاجية وتخريب التخطيط الاشتراكي . لكن قـولوا لي : ألم يكن راكوزي ذاك يسيء التقدير قليلاً ، هو الذي ورطكم في مأزق ؟ ألا يمكن ان يكون من

---

١ – هذا صحيح ، بلا ريب . لكن هذا غير صحيح أيضاً من اللحظة التي تأخذون فيهـا بالكلام عنه بسبب رذائلكم الفكريـة وعراتكم ونزعتكم التعميمية الغليظة . اين درستم هـذه الواقعة الجديدة : الكتلة ؟ أين بينتم ما يؤول اليه صراع الطبقات عبر منظور هـذه الكتلة المتراكمة الهائلة الملغومة بتناقضاتها الدائمة ؟

مكتبة الفكر الجديد

قبيل الصدفة عميلاً أميركياً ؟ وأنتم ، أنتم الذين تعرفون قوة اليمين ، أنتم الذين تعيشون وسط المماحكين الرجعيين ، الأشرار ، الدهاة ، المتلفهين الى التشهير بنقاط ضعفكم ، ألا تسيئون تقديره ، صراع الطبقات ذاك ، عندما تُصمّون آذاننا بأغبى الأكاذيب ، وعندما تثيرون سخرية فرنسا بأكملها عليكم ، وعندما تحذفون من جرائدكم بكل اطمئنان الأنباء التي تسري في كل مكان ؟ وعندما يكتب السيد ستيل بشجاعة ان بودابست قد استعادت وجهها الباسم ، وعندما يصرح نهرو ، مستشهداً بتقرير سفيره ، ان مظهر هذه المدينة « يمزق القلب » ، فمن منهما في رأيكم يخدم اكثر من الآخر الدعاية المعادية للشيوعية ؟ السيد نهرو أم رئيس تحرير « الاومانيته » ؟ أليس من الممكن ان تكونوا أنتم أيضاً مناهضين للثورة قليلاً ، قليلاً جداً ؟ الصراع الطبقي : ان هاتين الكلمتين اللتين تشيران الى واقع متحرك ومعقد ، حاضر أبداً ، وصعب الفهم في غالب الاحيان ، ترغمونهما انتم على ان تعنيا « يد العم سام » ، وتحطون أنفسكم بالتالي الى مستوى يمين غبي يفتش في جميع الاضرابات عن « يد موسكو » . أما من لا يميز على الفور المظليين الأميركان وسط تلك الجموع البائسة الساخطة ، فتصفونه بأنه بورجوازي صغير . والحق ان هذه الشتيمة تثير الدهشة : فما المثقفون الشيوعيون إن لم يكونوا بورجوازيين صغاراً وضعوا قلمهم في خدمة الطبقة العاملة وأصبحوا شيوعيين من غير ان يكفوا عن الحياة كبورجوازيين صغار ؟ لكن لا : فهذا الكلام يدلل على سوء معرفة بهم . ان هؤلاء المثقفين يملكون ما ينقصنا : الانعكاس الطبقي . وهو بالطبع انعكاس مشروط ، لأنهم نادراً ما يكونون من أبناء البروليتاريا ولأن تدابير كافية تتخذ للحيلولة بينهم وبين رؤيتها . لكن في كل مرة يسمعون فيها بأن شيوعياً بريئاً كراجك قد شنق ، أو بأن النار قد أطلقت ، كما في برلين الشرقية وفي بوزنان وفي بودابست ، على جموع عمالية ، تحرّض هذه الأنباء غددهم اللعابية على إفراز سائلها مترافقاً بتلك الصيحة المكررة : « الصراع الطبقي ! الوحدة ! » .

لقد قرأت في « الاومانيته » بتاريخ ٣٠ تشرين الثاني ، بقلم لوران كازانوفا ،

مكتبة الفكر الجديد

ملاحظات تبدو للوهلة الاولى أقرب الى الصواب ثم تغرق على حين بغتة في البارانويا [1] : « ان كل تحليل للأحداث يهمل او ينكر وجود ونشاط القوى الاجتماعية المعادية للتحويلات الثورية في بلدان الديموقراطية الشعبية ، والمنظمة والمدعومة من قبل الامبريالية العالمية التي تستخدم هذه القوى لأهداف عدوانية داخلية ولأهدافها الحربية ضد المعسكر الاشتراكي ، هو تحليل ناقص » .

انني اتابعه وأوافقه عندما يتكلم عن « القوى المعادية للتحويلات الثورية » . لكني أنفض يدي ، وقد خاب أملي بغتة ، عندما يتكلم عن « تنظيم القوى من قبل الامبريالية العالمية » . فأنا اولاً لا اعرف ما « الامبريالية العالمية » : ففي قلب الكتلة الغربية امبرياليات عدة تتعارض فيما بينها غالب الاحيان ، والشاهد على ذلك « ضربة السويس » . وإذا كنتم تريدون ان تقولوا : الامبريالية الاميركية ، فقولوا ذلك ، فآنذاك يكون كلامكم اوضح واصرح . لكن هذا الفكر ما عاد يعرف ان يعمل إلا بالرموز ، وهو بعيد عن الحقيقة بُعد الحزب الشيوعي المجري عن الجماهير . ان اي مؤرّخ آخر كان سيحاول في مثل هذه الحالة ان يحدد طبيعة تلك القوى المناهضة للثورة ، والقوة التي تتمتع بها ، والجهة التي نظمتها . لكن السيد كازانوفا يترك هذا كله تحت المكيال . وسوف أتحدث عن هذه القوى لتوي . اما تنظيمها ، فماذا يعلم عنه ؟ على الضبط ما نعلمه : هناك اقتراح كرشتاين و « مليارد من المهاجرين » ، وهناك نداءات « راديو أوروبا الحرة » ، وهناك « اللجنة الوطنية لأوروبا الحرة » . انها ، كما نرى ، ادوات دعاية . وأصلها بالغ التنوع ، وأهدافها وتمويلها متباينة . ان في ميونيخ إذاعة تموّلها وزارة الخارجية الاميركية موجهة الى الشعب الروسي . لكن « راديو اوروبا الحرة » ، بمقدار ما تتيح لي المعلومات التي املكها ان احكم ، يموله المهاجرون انفسهم [2] . والبرامج في مصنع الاخبار هذا متنوعة

---

١ – عصاب نفسي يتميز بفرط التحسس والريبة والكبرياء والأنانية . « ه.م »

٢ – انني أقر بأنه يمكن للمرء ان يتساءل من أين يتدبر هؤلاء المهاجرون أسباب رزقهم . لكن على الضبط ، بعد التحقيق لا قبله ، يحق له ان يقطع برأي .

مكتبة الفكر الجديد

للغاية حتى أننا سمعنا جهاز البث باللغة البولونية يرجو بولونيا ان « تظل هادئة » في تلك الايام نفسها التي كان فيهـــا جهاز البث باللغة المجرية يحث بودابست على التمرد . اما « اللجنة الاستثنائية لإرسال الاسلحة الى المجر » فعبثاً يستشهدون بها : فقد تكونت بعد التمرد . ومهما يكن من أمر ، فإن هذه الدعاية لا عـذر لها على كل الاحوال ، ولقد كانت نتائجها مضرة . ولكنهـا لا تعدو ان تكون اكثر من دعاية . أتجهلون ان « الامبريالية الاميركية » قـــد ترددت دوماً بين سياستين : سياسة « الحصر » او سياسة « الدحر[1] » ؟ وان هـاتين السياستين توائمان تكتلات ذات تكوين ومصالح متباينة ؟ وان سياسة « الحصر » قـــد تغلبت دوماً في الواقع على سياسة « الدحر » ؟ وان تردد السياسة الاميركية هذا بين تشجيع المهاجرين تارة والتخلي عنهم طوراً كانت نتيجته شل خدماتهم شلاً فعلياً ؟ وان المهاجرين انفسهم تفترسهم منازعات داخلية وصراعات عديمة الشفقة في غالب الاحيان ؟ فلماذا تصورون لنـــا الامبريالية العالمية ، إذا كنتم تعرفون هذا كله ، وكأنها قوة موثوقة غير قابلة للانقسام ، تسير الى هدفهـــا مباشرة وتحقق المستحيل ؟ ذلك انني اعرف في النهاية الدعايـة المناهضة للثورة وادرك عن طواعية انها تترافق بالتجسس . لكنكم لن تجعلوني اصدق انه كان من الممكن في ظل الارهاب الراكوزي الشامل تنظـيم وتسليح فدائيين داخـــل الاراضي المجرية . فمن اين كانت ستأتي الاسلحة ؟ هـل كانت تلقى بالمظلات من الجو ؟ كان ذلك ممكناً في فرنسا ، ايام الاحتلال ، باعتبار ان البـــلاد بأكملها كانت تساعد المقاومة . لكن في بلد منقسم كالمجر ، فإن مثل هذا الاحتمال يظل بعيداً كل البعد عن مشاكلة الواقع . عجبـــاً ؟ ألم يسمع راكوزي قط ، طوال اثني عشر عاماً ، بوجود ميليشيا سرية ؟ وحين حاكم راجك ، ألم تتح له الفرصة لفضح عمليات إسقاط الاسلحة بالمظلات[2] ؟ ومن كان يعـــلّم مناهضي الثورة

---

١ – الحصر والدحر : قطبا سياسة جـــون فوستر دالس . والمقصود حصر الشيوعيـة أو دحرها . «هـ.م.»

٢ – أحد المجادلين الشيوعيين لا يضن علي بتنازل، فهو يقول : « كان يجدر براكوزي ،=

مكتبة الفكر الجديد

استعمال الاسلحة الحديثة ؟ واين كان يجري التدريب ؟ في الارياف ؟ لكن إنما في بودابست انفجرت الاضطرابات . أذهب إليها الفدائيون مقدماً ؟ سوف نعود فيما بعد الى هذه الفرضية . وسأذكّر هنا ببعض الوقائع فقط : فحين بدأت الشرطة السياسية بإطلاق النار على الجموع على مقربة من البرلمان ، **كانت هذه الجموع بلا سلاح**، وكان عددها كبيراً جداً حتى ان الصفوف الاولى التي حصرها دفع الآخرين تلقت النار في صدورها بدون ان تتمكن من الهرب ولا من الدفاع عن النفس . وإنما في تلك اللحظة ذهب الطلاب الى الجنود في ثكناتها يتوسلون إليهم ان يأتوا لمساعدتهم . وكان هؤلاء ما يزالون مترددين ، وقد انضموا الى المتمردين فيما بعد : لكن بعد هنيهة من الزمن انفتحت ابواب إحدى الثكنات واتجهت اربع شاحنات محملة بالاسلحة نحو البرلمان . فأين كانت إذن الاسلحة الاميركية ؟ واين كان التنظيم ؟ ان الحزب الشيوعي الفرنسي ، الذي ضللته « الحرب الباردة » ، يفكر بكل شيء بألفاظ عسكرية : فإذا ما شارك بعض الرجعيين في فتنة ، سرعان ما خيل إليه انهم يعتمرون خوذات حديدية ويحملون قاذفات لهب ومدافع بازوكا . فمتى يفهم ان هذه التأويلات لا تمتّ

بدلاً من ان يشنق الابرياء ، ان ينظف البلاد من مناهضي الثورة » . لكن في هذا افتراء على راكوزي : فقد كان لديه الوقت للقيام بالعملين معاً ، ففي المجر لم تكف الحكومة لحظة واحدة حتى في أيام ناجي - عن حث المجريين على الحيطة ولا عن مراقبة الضباط القدامى في الجيش الهورثي ولا عن البحث عن مخازن الاسلحة السرية . ولم تكن الوشايات نادرة وكانت الحكومة تحملها على محمل كبير من الجد : فقد كانت تعتقل ضابطاً سابقاً في السادسة والسبعين من العمر اذا ما اتهمه جيرانه بأنه يملك بندقية . وليس في نيتي ان انتقد هذه التدابير الدفاعية : انما اقول فقط انها كانت تحول عملياً دون أي محاولة لإسقاط الاسلحة بالمظلات ولتخزينها . وكانت الريبة المتبادلة ، وصراعات المصالح والاحقاد المؤرثة ، والجوائز المخصصة للوشايات ، كان هذا كله يحرض الفلاحين على مراقبة بعضهم بعضاً . وما من ريب في أنهم كانوا مستائين من العهد ومن نظام المزارع الجماعية : لكنهم كانوا يناضلون على طريقتهم بواسطة المقاومة السلبية . وما كانوا ليرضوا بوجود جماعات مسلحة في قراهم أو في حقولهم قد يؤدي افتضاح أمرها الى مذبحة . وينبغي ألا ننسى أيضاً ان السهل المجري الكبير لا يوائم كثيراً حركات القناصة والانصار . واليوم تجري المعارك في المستنقعات او في المنطقة الجبلية الضيقة التي التجأ اليها العصاة .

مكتبة الفكر الجديد

بصلة الى الماركسية ، وانها بنت الميثولوجيا ؟ متى يفهم انه لا بد من جمع الوقائع قبل تفسيرها ، وان المنهج الماركسي يسمح بفك لغز التجربة لا بحذفها ؟

ليس على الفور ، هـــذا مؤكد . ان بقية المقطع ، في مقال كازانوفا ، ذات الطابع النظري الصريح ، قد ملأتني ذهولاً وولدت لدي اليـــأس من الماركسية الرسمية . انهـــا تبدأ بداية حسنة : « يجب ان نأخذ بعين الاعتبار عاملين اساسيين : اخطاء الاطراف المعنية ، والنشاط المناهض للثورة ، وان نوحـــد بينهما في تحليل ينطلق من منظور صراع الطبقات » . هذا جيد . لكن لننتظر قليلاً : « ان الخطوة الفكرية التي لا ترى إلا أحد جوانب المسألة او التي تقيم بين هذين العاملين نظاماً تسلسلياً هي خطوة مغامرة قد تزيف التحليل بأكمله » . لا نظام تسلسلي ؟ ما يعني هذا ؟ اننا نقيّم شروط واقعـة تاريخية ، وأكثر من ذلك نزعم اننا **نوحد بينها في التحليل** . فـــلمَ يتوجب علينا أن ننكص عن تحديد اهميتها المتبادلة ؟ ان كل قوة ، في الميكانيك ، تفعل كما لو انها وحيـدة . لكن يتوجب علينا ، في المنظور التـــاريخي ، ان ندرس التأثير المتبادل بين العوامل وان ندرس التعديلات التي يدخلها كل عامل من العوامل على غيره : فهل هذا ممكن بدون ان نلاحظ في كل لحظة استقطابات ، واعادات تجمع ، وحركة دائمة بين القوى البـارزة والقوى الكامنة ، وباختصار تسلسلاً متحركاً بـــين التكيفات المتبادلة ؟ وحين تقول الماركسية عن طبقة صاعدة انها ذات التاريخ ، أفلا تقيم تسلسلاً ؟ وحين تهنىء « الأومانيته » الجيش الأحمر على انه حال دون الحرب العالمية ، أفلا تقيم تسلسلاً ؟ وإلى أين يمكن ان يقودنا هذا القرار الغريب بتبني تفسيرين مختلفين وناقصين ، وبتطويرهما بالتوازي مع زعم التوحيد بينهما ، بدون المقارنة بينهما وبدون إقامة الاتصال بينهما ؟ انه سيقودنا الى نفي كل جدل نفياً باتاً قاطعاً . وهكذا يحـل كازانوفا مفاهيم العقل المعزولة محـــل القوى الواقعية ، ويقدم لنـا في الوقت نفسه تجريدين ــ « اخطاء » الحكومة والقوى المنظمة من قبل الامبريالية العالمية ــ وكل هدفه ان يوازن التجريد الاول بالثاني وان يصل في النهاية الى المخطط الكلاسيكي : الانتهازية اليمينية تضخم أهميـــة

مكتبة الفكر الجديد

الأخطاء ، والتعصب المذهبي اليساري يلقي بتبعة كل شيء على عاتق الامبريالية .

لقد كان ماركس سيسخر من هذه الحمير الفصيحة التي تحسب الصراع الطبقي مثالاً أفلاطونياً أو التي تدليه الى خشبة المسرح بحبل على حد التعبير اللاتيني . فحتى معرفة الوقائع السابقة وبنى المجتمع الجديد – وهي بالأصل معرفة يفتقر اليها كلياً السيدان كازانوفا وفاجون – لا يمكن أن تسلط إلا ضوءاً غير كاف على صيرورة لها تاريخها الخاص ، ولم تكفّ العلاقات أثناءها عن التطور . ان المطلوب تبيانه انما هي التناقضات الواقعية للتمرد الجري والعلاقات المتحركة التي تقوم بين الطبقات . فلنحاول ذلك .

ان الواقعة الاكثر وضوحاً هي ان المطالب كانت منصّبة بشكل أساسي ، حتى ٢٣ تشرين الاول، على الدمقرطة . وكانت النزعة القومية ما تزال منكمشة : فقد عظّم بها الراكوزيون [١] بالكلام وأذلوها بجميع أفعالهم : فعززت هذه المعاملة موقعها في القلوب . لكن لعلها كانت تخشى ان تتبدى بكل عريها : وكان من المرجح أن تظهر كقوة سالبة رهيبة ، تؤرمها كراهية المحتل . لكن المطالب الاجتماعية ، لحسن الحظ، كانت تسمح لها بأن تعبر عن نفسها من غير أن تهتك سترها . فكانت بالتالي عصب الاصلاحات الديموقراطية وشرطها الأول : هل كان من الممكن أن تبحث الجر عن طريقها الخاص الى الاشتراكية بدون أن تسترد أولاً سيادتها كاملة ؟ وهكذا كانت المطالب العينية والمباشرة للغاية تصب بسرعة على المطلب القومي : كيف السبيل إلى رفع مستوى الحياة بدون توزيع جديد للتوظيفات ، أي بدون وضع الخطط الانتاجية من قبل الخبراء المجريين وحدهم ؟ وكيف تعاد الى النقابات وظيفتها الحقيقية إذا كانت معايير العمل تفرض من قبل السلطة وبدلالة الطلبات الروسية ؟ وعلى هذا فقد كان

---

١ – ليس من قبيل الصدفة كلياً ان يكون راكوزي قد ألغى العيد القومي .(لنتصور موريس توريز في الحكم يصدر مرسوماً يلغي الاحتفالات بعيد ١٤ تموز) . وإذا كان قد هدم كنيسة قديمة من كنائس بودابست ، كانت مركزاً لحج سنوي ، ليشيد على مقربة من موقعها تمثالاً فظيعاً لستالين ، فليس هذا أيضاً من قبيل السهو .

مكتبة الفكر الجديد

يبدو مستحيلاً انقاذ الشيوعية في المجر ما لم يعد النظر كلياً في علاقات المجريين والروس .

إلى هـــذا الاساس الاجتماعي كان يستند غريزياً جميع اولئك الذين طالبوا بالدمقرطة . وهذه الوحدة كانت تخفي اختلافات في المصالـــح والمنظورات : فبالنسبة الى المعارضة الشيوعية كان الهدف الأول اعادة الاتصال بالجماهـــير ، ومن هنا كانت السيادة تبدو ، بكل ما يعلق عليها من آمـــال الوسيلة الرئيسية لمتابعـــة التجربة ولإعادة قيمتها اليهـــا ؛ وبالنسبة الى البورجوازية الصغيرة المحـــافظة[1] ، على العكس ، كانت الوسيلة هي الدمقرطة ، وكانت الغايـــة الاستقلال القومي . ومن جهة أخرى كان أعضاء الحزب الشيوعي يتمنون إرخاء قبضة الكلابة الراكوزية ، واعادة الحياة الى الحزب ، والرجوع الى «اللينينية» ، لكن لم يعنّ ببـــالهم لحظة واحدة تعديل نظام الحزب الواحد . وبالمقابـــل لم يكن الاشتراكيون – الديموقراطيون و «الملاك الصغار» يفهمون الديموقراطية إلا كعودة إلى تعدد الأحزاب[2] . وهذه الاختلافات لا تقف عند هـــذا الحد :

---

١ – الكبيرة العدد ، انني اقر بذلك ، حتى بين العمال : وبالفعل كان راكوزي قد عمـــل بشكل منهجي ومصمم على تحويلها الى « بروليتاريا » .

٢ – بعد محاكمة الاشتراكيين الديموقراطيين اليمينيين (تشرين الثاني ١٩٤٧) وتطهـــير الحزب الاشتراكي – الديموقراطي (آذار ١٩٤٨) عقـــد الاشتراكيون - الديموقراطيون والشيوعيون في ١٣ حزيران ١٩٤٨ مؤتمر توحيد ، فنجم عنـــه « حزب العمال الاشتراكيين » الذي ابتلع فيـــه الشيوعيون بكل بساطة اليسار الاشتراكي – الديموقراطي المطهر . وسوف اسمي هذه التشكيلة الحزب الشيوعي المجري بهدف المزيد من الوضوح . امـــا الاشتراكيون – الديموقراطيون الذين أعنيهم هنا فهم ناخبون وانصار احتفظوا بتكوين اشتراكي – ديموقراطي بـــدون ان تمثلهم جماعة مستقلة بنفسها . والشيء المثير للفضول بالاصل هـــو ان مركز الحزب الاشتراكي الديموقراطي ، بعد المحاكمة والتطهيرات والدمج ، ما يزال قائمـــاً في بودابست ، كمنظمة فارغة مصفاة ، لا صلة لها بهذه التيارات الواقعية . وحزب « المالـــك الصغير » لم يجر حله هو الآخر ، لكنه ابتلع في تشكيلات من نمط « الجبهة الموحدة » . ومجلس الرئاسة المجري (أي رؤساء الجمهورية) ما يزال يرأسه الى اليوم عضو سابق في « المالك الصغير » ، دوبي الذي ليس له من وظيفة سوى ان يمثل في شخصه تنوع الاحزاب . لكن في الارياف وبين صفوف =

مكتبة الفكر الجديد

فبين اعضاء التشكيلات القديمة غير الشيوعية كان هناك رجال لا تتجاوز مطالبهم ، لوثوقهم من ان الحزب الشيوعي سيعارض كل استشارة انتخابية ، المشاركة الفعلية في الحكومة . وكان آخرون يحتفظون لأنفسهم بحق المطالبة في الوقت الموائم ، بالعودة الى النظام البرلماني . وكان هؤلاء الاخيرون سينقسمون على انفسهم بسرعة بصدد مسألة لم تكن قد طرحت نفسها بعد بكل إلحاحها : هل ينبغي اعادة تشكيل الاحزاب التي كانت تحكم عام ١٩٤٥ فحسب ، أم ينبغي أيضاً القبول بانبعاث احزاب أقدم وبولادة تشكيلات جديدة ؟ ان الرأي الأول يضيق بشكل تعسفي المبدأ **الليبيرالي** ، والرأي الثاني يجازف ، بحجة الانفتاح الليبيرالي الكامل ، بفتح الباب أمام الفاشية . لكن هذه المواقف لم تكن واضحة ولا قاطعة من خلال الالتباس العام الذي ساد النصف الأول من شهر تشرين الأول . وكان في الامكان ان تتعايش أو ان تتوالى بالتتابع لدى جماعة واحدة ولدى الفرد الواحد . والشيء المشترك بينها جميعاً هو رفض الدكتاتورية الراكوزية ، وعلى مستوى أعمق المطلب القومي .

في « اتحاد الكتّاب » ، في « نادي بيتوفي » ، كانت حركة **المثقفين نقدية وسلبية** بوجه خاص : فقد سجنت نفسها في معارضة كانت تزداد عنفاً ، بدلاً من أن تضع مشاريع إيجابية للحكومة . وهذا لأن الوضع كان يتطلب هذا الموقف

=البورجوازية الصغيرة في المدن لم تضعف البتة شدة هذا التيار « المالك الصغير ».ولم تكن قد تبقت صلة مشتركة بين التشكيلات الواجهية ، التابعة كلياً للحزب الشيوعي ، وبين التيارات السياسية الواقعية . كان من الممكن ان يكون هناك اسم رسمي لحزب غير شيوعي ، لكنه ما كان موجوداً خارج اسمه. ان واقعه يظل مستمراً في قلب الشعب لأنه يمثل بعض المصالح وبعض الطبقات (سوف نعود الى هذا الموضوع) ، لكن بعد ان فقد اسمه وقدرته على التعبير . ان غلطة الحزب الشيوعي الفاحشة هي اعتقاده بأنه « يلعب اللعبة » باحتفاظه ببعض الشخصيات السياسية الغريبة عن الشيوعية ، وبتسليمه اياها بعض الوظائف العالية ، وبتقديمه لها، «مطوقة»، لانتخابات معروفة النتائج سلفاً ، بدلاً من ان يقيّم الموقف ويحدد عمله الذاتي بدلالة الظروف الواقعية : ولو كان فعل ذلك لفهم ان عمق التيارات غير الشيوعية كان يفرض عليه ان يعمل باتجاه الجماهير وهذا يعني : اقامة تحالف واقعي مع الاحزاب الديموقراطية ومقاومة تأثيرها بواسطة سياسة ايجابية .

مكتبة الفكر الجديد

دون أي موقف آخر . كانت مهمة المثقفين تمثيل السلبية : لم يكن المطلوب اقتراح بعض تحسينات على النظام على راكوزي ، بـــل كان المطلوب كشف جرائمه للجميع والإجهاز على سمعته المتدهورة ، وإجباره على الاستقالة . ونحن نعرف انهم نجحوا . وإذا كان نقدهم قد ترك أثراً لا يمكن نكرانه في الجماهير العمالية، فهذا على وجه التحديد لأنه كان سلبياً . ان أحداث بولونيا قد أظهرت الطريق الواجب اتباعه : الاتحاد وتسليم السلطة ، قبـــل أي تغيير آخر ، لشيوعيين وطنيين قادرين على التفاوض مع الاتحاد السوفياتي . وكانت البـــلاد بأسرها تطالب بناجي . وكانت تنتظر هذا الشيوعي مهمة لا يحسد عليها : إذ لم يكن قد جرى تحديد أي شيء كان ، لا برنامج الدمقرطة ولا مناهجهـا ولا إيقاعها ولا مداها . كانت الدمقرطة موضوع مطالب قويـة ومحددة ، لكن كان لا بد من تنظيمها تبعـــاً للامكانيات العملية : كان الكاتب الذي يفضح الجدانوفية والعامل الذي يطالب بزيادة أجره يساهمان كلاهما في تحديد اتجـاه الدمقرطة ومضمونها . لكن كان من الضروري أيضـاً رسم سياسة شاملة على أساس هذه المعطيات تأخذ بعين الاعتبار الاستعدادات الروسية والمطامـــح المجرية والوضع الاقتصادي والاخطار المناهضة للثورة في آن واحد . وإنما ههنا كانت تكمن فرصة السيد ناجي : ففي نظر المجريين كانت الدمقرطـــة تختلط ، في البدايـــة على الأقـــل ، بعمل حكومـــة صادقة مخلصة تملك تجربة سياسية ، وتعتمد على خبراء وفنيين ، وكفوءة بما فيه الكفاية لتنظر الى المشكلة في شمولها . وكان في مقدور حكومة ناجي ، بتزعمها الحركة الاصلاحية وبقولها الحقيقة كلها **وبتجاوزها** بعض المطالب وبتفسيرها على الفور للبـــلاد السبب الذي يحول دون التلبية المباشرة لبعض المطالب ، كان في مقدورها ان تزيـــد من حظوة الحزب الشيوعي وأن تنقص من حظوة الاشتراكيين – الديموقراطيين . ان **دمقرطة** صادقة وشاملة كانت ستجعل **السير باتجاه الليبرالية** مستحيلاً .

في ليلة ٢٣ – ٢٤ ترنح كل شيء . فانطلقت الدمقرطه الى المستوى الثاني،

مكتبة الفكر الجديد

وانفجرت النزعة القومية نتيجة العدوان السوفياتي . كان جميع أولئك الناس ، بالأمس ، يسعون الى التفاهم حول برنامج سياسي واجتماعي : فإذا بهم يلتقون داخل « جبهة متحدة » ، تألفت عفوياً ، ومهمتها المباشرة مقاومة المعتدي . لقد وثّق التدخل الروسي أواصرهم، وبلور نزعتهم الكامنة المعادية للسوفييت، ودمج هؤلاء السكان الغائرين ، وأعطاهم أهدافاً أخرى ، سلبية في جوهرها . ولا ينبغي ان نرى في هذا التمرد لا رد فعل أعمى وغير منظم ولا حركة منظمة موحدة القيادة. وليطمئن السيد غارودي نفساً : فلا وجود للعفوية. ان سنوات من الاضطهاد كيفت هؤلاء الناس وكيفت الروابط الواقعية التي تجمع بينهم . ان وحدة الحزب ووحدة طرائقه وإرهابه قد أوجدت بين الشعب – بالرغم من تباين المصالح وحدة الرفض المبهمة . وقد تجلت هذه الوحدة في ردود أفعال متماثلة ، غير منظمة ، لكن غير منعزلة : لم يكن أحد بحاجة إلى الكلام ليعرف ان موقفه الشخصي هو موقف الجميع . ان الاستغلال عندنا يعتمد على قوى مفسخة : فلا بد بالتالي من مجهود مستمر للحفاظ على الوحدة . اما دكتاتورية راكوزي بالمقابل ، فإنها برغبتها في تحقيق الاندماج بالعنف قد قربت بين العمال، لكنها قربت بينهم **ضدها بالذات** . وبتوحيدها اياهم بواسطة علاقات كاذبة تذر الرماد في العيون عن تبعيتهم ، جعلتهم يعون صلاتهم الحقيقية . وقد ظلت هذه الصلة في منتصف الطريق بين الوحدة الفعلية التي تفترض تنظيم التنوع وبين التماثل الذي هو محض تعايش بين جزيئات متشابهة يجهل بعضها بعضاً : كانت تلك الصلة ، اذا شئنا ، المعرفة العميقة لكن الغامضة بتماثل سلبي . وهذا ما يفسر الطابع المتفرد للتمرد : فهو تمرد منعزل ، مبهم ، لم تعد له العدة اي قوة تحت ارضية واي قيادة سرية . لكن هذه الفوضى الظاهرة تخفي تحتها نظاماً وليداً. فكل جماعة من جماعات المقاتلين تعي انها تمثل الشعب بكامله ، على وجه التحديد لأن رد فعلها الخاص هو تخصيص لرد الفعل العام . انها ليست بحاجة ، لمعرفة ذلك ، الى ان تعلم بالتفصيل وقائع القتال : فهذه المعارك المتشتتة هي بالأصل **قومية** في نظر كل متمرد ، وهي تعد بالوحدة التمردية وتظهر ضرورتها . ان كل

مكتبة الفكر الجديد

جماعة قد اختارت لنفسها زعماءها . وبعد فترة وجيزة من الزمن تحقق الارتباط بين المسئوولين : فاكتسب بعضهم نفوذاً مرموقاً (كان اكثرهم هيبة مالاتر وهو شيوعي) . لكن التمرد سيظل حتى النهاية افعى متعددة الرؤوس . وصحيح ان احد المغامرين الميالين الى الفاشية قد احتـــل مع رجاله – ومن بينهم شيوعيون – مبنى نقابة الصحافة . لكنه انسحب منه بعد مدة وجيزة بدون ان ينكل بالصحفيين، وبعد يومين أو ثلاثة، في المؤتمر الأول للوحدات المتمردة، تبرأ منه الزعماء المجتمعون بالإجماع باستثناء صوت واحد .

كثيراً ما نوهت الصحف الشيوعية بوجود مهاجرين مسلحين لكنها لم تقـدم على ذلك أي دليل . وهي تتكلم بإبهام عن أسلحة اميركية لكن بدون حماسة. وبين الأسرى ؟ ألا وجود لأي عميل للأجنبي ؟ لقـــد ألقي القبض في برلين على ألمان قدموا من الغرب . وقد نشرت صورهم، وأذيعت محاكمتهم . لكن لا شيء من هذا في المجر: ومع ذلك كم كان سيكون باعثاً على الارتياح! في ٢٣ تشرين الأول كان الجيش الأحمر يحتل المدينة ويعزلها عن العـــالم . ثم تركها في ٣٠ ، لكن ليطوقها . ووجود القوات السوفياتية لا يمنع بالطبع التسرب لكنه يحول دون مجيء التعزيزات الفاشية بشكل كثيف. ان بيتر فراي، مراسل «الديلي ووكر» الشيوعي ينقل خـــبراً عن الشيوعيين النمساويين مفاده ان ٢٠٠٠ مهاجر مسلح ومدرب من قبل الاميركان قد دخلوا المجر قبل ٤ تشرين الثاني . هل كان هؤلاء الشيوعيون على اطلاع دقيق ؟ وبواسطة اي شهود ؟ اننـــا لنجهل ذلك . وإذا كنت أروي هـــذه القصة فتقديراً لشخص فراي الذي كتب ، كما هو معروف ، مقالات مرفوضة لفرط إخلاصها . وعلى كل حال ، فهذه هي الاشارة الوحيـدة التي نملكها والتي تستأهل التمحيص . وحتى لو أخذنا بها ، فإننـــا سنلاحظ ان ٢٠٠٠ مهاجر ، ولو مسلحين ، عـــاجزون من تلقاء أنفسهم عن تغيير مجرى ثورة . وعلى كل ، وما دمنا في صدد معلومات لا يمكن التأكد من صحتها ، فإن علي أن أشير ، نقلاً عن مراسل « النيوستيسمان » المعروف باستقامته ، إلى أن مراكز الحدود التي كانت في ايدي العصاة كانت ، حتى ٤ تشرين الثـــاني ، ترد

مكتبة الفكر الجديد

جميع المهاجرين الذين ارادوا دخـول المجر ، وبخاصة فيرنيش ناجي ، زعـيم المهاجرين . لقد قيل انه كان هناك **فدائيون** . وقد أكد لي مراقبون شيوعيون أن هذا كان يقال في بودابست . كان يقال لأنه كان هناك من يتحدث به . لكن هؤلاء المراقبين أنفسهم قطعوا المدينـة طولاً وعرضاً ، بين ٢٤ تشرين الأول و ٣ تشرين الثاني ، بدون أن يصادفوا قط واحداً منهم وبدون ان يصادفوا شخصاً أمكنه أن يراهم يعملون . إن ذكرى الإرهاب الأبيض وذكرى ١٩١٩ لم تُمح من ذاكرة الكثيرين من المجريين ، وبخاصة في أوساط اليسار. ولقد خيـل اليهم انهم يحيون من جديد ماضيهم . ولكن حـتى لو كان هناك وجود لأولئك الفدائيين ، فهل كانوا يعرضون الديموقراطية للخطر ؟ لنفكر بالأحرى بالآخرين، بالغالبية الكبرى من المتمردين من عمال وطلاب وجنـود وبورجوازيين صغار : انه ما من أحـد بات يجرؤ اليوم على نعتهم بالفاشية ، حتى ولا السيد والديك – روشيه . ان السيد ستيل يلاحظ باستخفاف حداثة سن المقـاتلين (من الزازوات [1] بنوع ما) : ان هذا الازدراء يوائم الى حد مدهش ممثل جهـاز مصاب بتصلب الشرايـين ما عاد يستطيع ان يجند أنصاره من بين صفوف الشباب ، والمعدل الوسطي لعمره يرتفع عاماً بعد عام . لكن ملاحظته تنقلب ضده : ففي عام ١٩٤٥ ، في المجر المنقسمة على نفسها ، المخربة ، المرهقة بسنوات من الفـاشية ، على من كان يستطيع ان يعتمد النظام اللهم إلا على الشبيبة التي سيعمل على تكوينها ؟ لقد اتيحت له اثنتا عشرة سنة لربطها به، وكانت النتيجة الوحيدة لجهوده هي ان الشبيبة ازدادت شراسة في حربها له. ألا كم كان اساتذتها مدعين ومتحجرين ! وكم كان تعليم الماركسية غبياً ومغرقاً في النزعة التبسيطية ! إن بين الطلاب اولئك الذين نفـرهم ستالين من ماركس : ولما كانوا محرومين من تماس مع الثقافة الغربية ، فقد وجدوا أنفسهم بلا ايديولوجية بديـلة . فالتفتوا نحو أدبهم القومي الذي كان دوماً سياسياً والذي يعكس منذ أكثر من مئة عام طموح الشعب الى الاستقلال. ولا ريب في انهم كانوا قوميي النزعة وقوميي النزعة

---

١ – اسم كان يطلق في باريس عام ١٩٤٢ على الشباب الشاذ الأطوار . « ه . م »

مكتبة الفكر الجديد

فقط . وقـــد بقي بعضهم إلى اليسار لكن كراهيتهم للاستبداد البيروقراطي امتدت الى المبادىء التي يزعم طغاتهم انهم ينتسبون اليها : انهم يريدون قبل كل شيء حريات ، حرية الكلام والتعبير عن أفكارهم ، حرية النقـــد ، حرية الاطلاع ، حرية الاجتماع كما يحلو لهم . وهذه المطالب المشروعة كلياً، لا يؤمنون لسوء الحظ بـــأنهم يستطيعون أن يشيدوها على ماركسية لم يكشف لهم منها سوى عن مظهرها الاستبدادي . وهكذا حددت هذه المطالب لديهم ، كما لدى بعض الكتاب ، عـــودة لا شعورية الى نوع من الفوضوية [1] . ولا ريب في أن هذا الميل يمكن ان يكون خطراً لكن على المدى الطويل : فهو يدفع إلى عـدم الانضباط اكثر بكثير مما يدفع الى الفـاشية . وعدم الانضباط هذا كان يمحي ، طيلة الزمن الذي دارته المعارك ، امام انضباط المقاتلين الطوعي . ثم كان هناك الآخرون – الأخيار من الجائز – أقصد اولئك الذين لم تستطع تعاليم الستالينيين المتحجرة الضيقة الأفق ان تخفي عنهم امكانيات الماركسية اللامحدودة . ولقـد قاتل هؤلاء لينقذوا الثقافة .

تحت اسم الراكوزية كان كثيرون من البورجوازيين الصغار يحاربون الاشتراكية عن وعي أو عدم وعي. لكن عددهم ليس كبيراً جداً بين المتمردين، ثم أنه لمن الخطأ الفاحش – وأنا واثق ان السيد كازانوفا لن يرتكبه – أن نخلط بينهم وبـــين اعضاء الجهاز والاطارات الذين يعيشون عيشة بورجوازية

---

١ – اني اعتقد ان القارىء سيذهل مثلي من الحيرةالنظرية التي تتخبط فيها النصوص المجرية التي تنشرها « الأزمنة الحديثة ». ان هذا اليسار في ازمة ، وهو بحاجة الى إعادة التفكير بنفسه، والى الرجوع الى المسائل الاساسية والمناهج الاشتراكية : لكن أليس هذا ما يقوله هو نفسه ؟ ان عدم الاستقرار الفكري يدل فقط على استحالة ايجـاد ايديولوجية بديلة : وما كان المترددون سيحتاجون الى زمن طويل حتى يعودوا الى الماركسية ، الماركسية الحقيقية . ان القارىء سيقارن النصوص المجرية مقارنة متمرة مع النصوص البولونية التي سننشرها في العدد القادم . ان التحفظ والمداراة اللذين كانت تظهرهما حكومة بولونيا السابقة حتى في العنف ، ورغبتها الغريبة في عـدم تجاوز الحدود بعد ان تخطيت الحدود كافة ، واعتدالها في الشناعات ، وبخاصة التطور السريـــع لكن التدرجي منذ بوزنان ، كل ذلك سمح للحكام الجـدد بإجراء الاصلاح مع بقائهم ماركسيين وشيوعيين .

مكتبة الفكر الجديد

والذين حمل بعضهم مع ذلك السلاح . والحقيقة التي لا جدال فيها على الاخص هي ان العمال كانوا يشكلون غالبية المقاتلين . ويبدو من تصريحات نقابي مجري قابله قادة « الاتحاد العام للشغل » في براغ ان عمال الضواحي الصناعية ما كانوا مسلحين في البداية . وهذا مفهوم : فالتمرد انفجر في قلب بودابست . وقد قلنا ان امدادات السلاح الأولى التي سلمت الى الجماهير انما تولتها الثكنات ، والقد كان بين هذه الجماهير من مختلف الفئات : عمال ، وكذلك وعلى الأخص طلاب وبورجوازيون صغار . وقد استهلكت هذه الامدادات الأولى بسرعة المخازن التي في متناول اليد ، فبقي عمال المصانع الكبرى عزلاً لمدة بضع ساعات أو بضعة أيام . لكن ثبت اليوم أن ناجي شرع بتسليح البروليتاريا – عن طريق النقابات على الأرجح – ليعارض عودة الرجعية المحتملة بقوى ثورية أصيلة . ولن ينقض أحد ، بلا ريب ، شهادة الماريشال جوكوف الذي قال في ٣٠ تشرين الأول : « انني أعتبر ان تسليم العمال السلاح دليل على أن الحكومة المجرية الجديدة تعتمد فعلياً على الطبقة العاملة » . ومن سوء حظه ان الطبقة العاملة قد استخدمت هذا السلاح للدفاع عن الشعب المجري ضد الجنود السوفياتيين : فالقتال قد احتدم بوجه خاص في « شسبيل » ، **لدى العمال** . فما سيكون الرأي ، عندنا ، بتمرد يندلع بوجه خاص في «حزام باريس الأحمر» ؛ هل سيجرؤ أحد على إتهامه بالفاشية ؟ وإنما ههنا يوجهون الينا ضربة العفوية : فيقول السيد غارودي : أنتم تعلمون جيداً أنه لا يمكن أن تُترك البروليتاريا لردود أفعالها التلقائية . هذا صحيح كل الصحة إذا كان المقصود به ان على الحركة العمالية أن تحدد نفسها يومياً عبر جدل وثيق يعارض بين الاطارات والجماهير ليحقق بينها وحدة أمتن ، وأن على الاطارات أن تناضل ضد الاخطار الخارجية بالتثقيف والتفسير الصادق والتحريض ، وان على الجماهير ، ما أن تبدأ بالسير ، ان تتجاوز قادتها وان تجرهم بتأصيلها من تلقاء نفسها المطالب وبإعطائها طابعاً جذرياً . لكن هذا لن يعني شيئاً اذا كان المقصود أنه يحق لحكومة اشتراكية أن تقمع بالقوة تمرد بروليتاريا لم يترك لها غير اليأس منفذاً .

مكتبة الفكر الجديد

ذلك أننا إذا ما تركنا جانباً الاساطير والرموز ، حق لنا أن نتساءل مـــاذا كان يقصد لينين عندما تكلم عن العفوية ؟ لقد قصد فقط ان عوامل عدة – نستطيع أن نخص بالذكر منها شرط العامل بالذات والخوف من قمـ ـع دموي ودعاية البورجوازية الايديولوجية وقوى التكتيل (التحويل إلى كتلة أو جماهير سائبة) – تقود العامل المفتقر الى الثقافة السياسية **في بلد رأسمالي** الى أن يضع أمله في النزعة الاصلاحية [1] . وأي معنى يتبقى للنظرية عندما تزعم أنهـــا تنطبق على الثورة المسلحة للبروليتاريا في بلد اشتراكي ؟ ان ماركس يشرح ان قوة العامل الثورية في المجتمعات البورجوازية « تولد من التناقض بـــين **طبيعته** الانسانية وبين وجوده الحياتي الذي هو نفي جلي حاسم وشامل لهذه الطبيعة » . وبالرغم من الشكل الاشتراكي للمجتمع المجري ، لا يفكر احد بإنكار استمرار هذا التناقض فيه . فمـــا دخل العفوية هنا ؟ ولو سلمنا بهـــا لقلنا إنها تجعل البروليتاريا في البلد الاشتراكي تجنح نحو الاصلاحية أكثر من جنوحها في ظـــل نظام رأسمالي [2] . اذن فليست هي التي تدفـــع بالجماهير الى العصيان المسلح ، **انما الحاجة** . وانني لأخشى من أن البعض يحـــاول تغطية أحد التناقضات الاساسية التي ولدت النظام الستاليني باسم العفوية : أعني التناقض بـين الحاجة والخطة . وسوف نرجع الى هذا الموضوع . على كل ، من المؤكد ان تركيب البروليتاريا المجرية بعيد عن أن يكون متجانساً : فمن بين ١٫٦٠٠٫٠٠٠ عامل ،

١ – اذن فلينين لا يهدف الى التشكيك بقيمة هذه العفوية العمالية ، انما قصده بالأحرى ان يبين ان العفوية لا وجود لها . لكن يمكننا أن نستثني ونقول : إلا بعد التوحيد ، عبر تجاوز الزعماء وبواسطته .

١ – ما يمكننا ان نسميه بـ « العفوية » ، عبر هذا المنظور ، انمـــا هو بالأحرى صمت البروليتاريا المجرية عام ١٩٥٥ وعطالتها الظاهرية : وسيجد القارىء وصف ذلك وتفسيره في نصوص لاسزلو بال ، وهو عامل خراط استخانوفي ، وبيلا كيس ، وهـــو حداد ، وارفن آيشنر الخراط أيضاً . هذه السلبية – التي تخفي تمرداً عميقاً - هي الموقف الذي تتبنـــاه مؤقتاً بروليتاريا مهجورة . يقول عامل بصدد مقال صحفي : « أخيراً بدأوا يهتمون بنا » . ويقول آخر : « ليأت المسؤولون الينا » . وثالث : « لقد جاء مسؤولون لكنهم لم يدعوا سوى حوالي خمسين عاملاً » ، الخ . ويضيف كاتب ريبورتاجات مجري : « انهم عطاش الى الانسانية » .

مكتبة الفكر الجديد

هناك أكثر من ثلث اجتذبهم التصنيع المبالغ فيه في أعوام ١٩٥٠ . وحتى نأخذ فكرة عن السرعة التي لا تصدق لهذا الانقلاب الديموغرافي ، فلنتذكر ان بودابست قد زاد عـــدد سكانها في **ست سنوات** – ١٩٤٨ – ١٩٥٤ – من ١,٠٥٨,٢٨٨ إلى ١,٧٠٠,٠٠٠ نسمة . وقد احتفظ هؤلاء القادمون الجدد ، الذين بلبلتهم فظاظة الطرائف وسرعة التغيرات [١] ، احتفظوا بالتـــأكيد ، وبقدر متفاوت ، بعقليتهم الفلاحية . ولعل بعضهم ، لو ترك لـ « عفويته » ، أي لعاداته القروية الروتينية ، لأغرتـــه المغامرة السياسية : لكنهم كانوا مطوقين بصلابة بعمال يكبرونهم سناً ، عرفوا دكتاتورية هورتي ، ويملكون تقاليد ثورية حقيقية . وإلى هؤلاء المقاتلين المتمرسين انضم الشبان الذين قدموا الى الصناعة بعد الحرب مباشرة ، أي بين ١٩٤٥ و ١٩٤٨ . في ذلـــك الزمن كانت الهجرة الريفية أكثر بطئاً ، ومعايير العمل أقل ارتفاعـاً ، والتحولات أقل مباغتة : فاندمجوا دونمـــا صعوبة بالطبقة العاملة . وصحيح ان النواة البروليتارية الاكثر طاقة على الكفاح قبل ١٩٣٩ كانت اشتراكية – ديموقراطية وان الحزب الشيوعي لم يكن له وجود عملياً . لكن لا تذهب بنا الظنون الى أمثال غي موليه عندنا : فالحزب الاشتراكي – الديموقراطي المجري ، بخـلاف الحزب الفرنسي ، كان يمثل البروليتاريا لا البورجوازية الصغيرة . وكان يضم اشتراكيين **متصلبين** كوّنهم نضال خطر وشاق ضد حكومة دكتاتورية . وعلى الرغم من اختفاء الاشتراكية – الديموقراطية رسمياً ، لكن **تأثيرهـــا** استمر وعززته غباوة النظام الراكوزي المجرمة . وبالرغم من الطغيان البيروقراطي ، كانت قلة اليد العاملة ، الناجمة عـــن التصنيع السريع ، تجمد الدكتاتورية البيروقراطية : فقـد كان العمال ، المحرومون من تغذية حسنة ومن مسكن

---

١ – ارتفاع فظ في معايير العمل ، عقلنة مباغتة لمعمل أو لقطاع انتاجي كامل ، ظهور آلات جديدة لا يملك العامل زمناً كافياً للتلاؤم معها ، انخفاض في النشاط خلال العشرين يوماً الاولى من الشهر (لأن المواد الاولية لا تـلم في مواعيدها ، الخ) يتبعه عمل مرهق ساحق في الأيام العشرة الاخيرة ، الخ .

مكتبة الفكر الجديد

حسن ، المرهقون ، المراقبون ، يعرفون ، بالرغم من صمتهم ، وزنهم ، ويعون أهميتهم الحقيقية . وكانوا يشعرون ، بالرغم من إرهاقهم بأكاذيب الدعاية المحطة وبالتفتيش العمالي ، ان الحاجة الماسة اليهم تعيد اليهم قيمتهم كاملة . وهكذا كانت تناقضات النظام تشدد من عزائمهم وتعزز شعورهم الطبقي . وقد حملوا السلاح ليطيحوا بطغيان كان يقود البلاد الى الخراب ، لكنهم لم يشككوا قط – سواء أكانوا شيوعيين أم اشتراكيين – ديموقراطيين – بتشريك الصناعة : فارتضوا لمدة طويلة من الزمن بأن يضحوا بأنفسهم لصالح المجر الاشتراكية ، ثم تمردوا عندما رأوا ان هذه التضحيات اللامجدية لا تمنع لا اضمحلال الأمة ولا تصفية الأسس الاشتراكية أعاجلاً أم آجلاً . ومهما يكن رأي المرء بتمرد بودابست وبما كان سينجم عنه بدون تدخل ٤ تشرين الثاني، فإنه لا يكون مبالغاً مهما ألح على الواقعة الاساسية التي تميزه : وهي ان العمال كانوا مسلحين، وانهم ما كانوا يريدون – وأي جنون كان سيدفع بهم الى ذلك ؟ – ان يعيدوا المعامل للرأسماليين ، انما كانوا يريدون ، كما أثبت الحدث ، ان يضمنوا لأنفسهم الرقابة على الصناعة بانتخابهم لجان منشآت ومجالس عمالية . هذه المجالس العمالية التي تشكلت من الأيام الأولى للتمرد ، والتي لم تكف قط عن العمل ، والتي ما تزال تعمل ، هي التي حولت المقاومة المسلحة الى اضراب عام ، وهي التي عرفت ، في عدة مدن من مدن الاقاليم ، كيف تقضي على الاضطرابات الرجعية ، وهي التي ارغمت كادار على التفاوض معها : فقد بقيت، بعد سحق التمرد ، القوة الحية الوحيدة، الاشتراكية والقومية معاً ، التي تعارض الروس واعادة توطيد البيروقراطية . فمن يجرؤ اذن على ان ينفي انها تمثل ماضياً ايجابياً بالنسبة الى الاشتراكية المجرية؟ وبودي ، بوجه خاص ، ان اسأل الشيوعيين الذين ما زالوا مترددين عما اذا لم يكن هذا الاضراب المطول بالرغم من الارهاب ومن الاعتقالات الجماعية ، وعما اذا لم تكن هذه المفاوضات المقطوعة باستمرار والمستأنفة باستمرار ، التي يعلمنا عنها راديو بودابست يومياً، جديرة بإلقاء شك جدي على الطابع المناهض للثورة

مكتبة الفكر الجديد

للمقاومة المجرية ؟ ان الصحف السوفياتية تزعم ان الجيش الأحمر قد تدخل ضد العصاة ، الى جانب العمال . وقد وجـــه اليها العمال تكذيباً مذلاً : فإضرابهم والتمسك بمطالبهم يبرهنان على انهم كانوا ومـــا زالوا مع العصاة وضد الجيش الاحمر . ان هذه الثورة المسحوقة ، مهما كانت مجازفها واخطاؤها ، تأخـذها الطبقة العاملة في المجر على عاتقها ، وتجعل من نفسها وريثتها وحاميتها . فمـــن سيجرؤ اذن ، عندما يجـــد الروس انفسهم مكرهين على القبول بمفاوضات بودابست ، من سيجرؤ من بين قادة الحزب الشيوعي الفرنسي على رد شهـــادة بروليتاريا بكاملها[1] ؟

ومع ذلك فإن الانزلاق الى اليمـين من ٢٣ تشرين الأول الى ١ تشرين الثاني حقيقة لا تنكر . والوضع في تدهور . لكن لا بد هنا أيضاً من التحديد : فهذا التغير لا يرجع سببه الى الظهور المفاجىء لأبالسة فاشيين نبتوا من حيث لا يدري أحد . انما هو عبارة عن سلسلة من اختـــلالات داخل الحركة المتمردة، نوع من أيض[2] داخلي يهدف الى تعديل بنية الزمر وعلاقات القوة بين المقاتلين .

إن علينا ان نبحث عن السبب الرئيسي لهذا التطور في شروط التدخـــل الروسي الأول . فقـــد كانت البيروقراطية المجرية قد خسرت منذ زمن طويل حظوتها لدى الجماهير ، وكان الحزب الشيوعي مشتبهاً فيه . لكن بالرغم من ثمانية أعوام من الطغيان ، ومن أخطاء فادحة أو فظيعة ، ومن الجرائم ، ظلت

---

١ – حين كتبت هذه الكلمات لم يكن كادار قد حل بعد المجالس العمالية . والآن قـد تم ذلك . اذن انني اغير صيغة سؤالي واسأل : « ما هذه الاشتراكية التي تستفرس في هدم اجهزة الرقابة المنتخبة من قبل العمال ؟ واذا كان قد اعترف بها بالأمس باعتبارها الممثلة الحقيقية للشعب فكيف يمكن اليوم ان يأمر باعتقال قادتها من غير ان يسيء الى سمعته ؟ واذا كان جوكوف قد هنأ حكومة ناجي على اعتمادها على الطبقة العاملة ، أفلا ينبغي عليه ان يدين حكومة تريد ان تكم فمها ؟ لقد صاح أحد اصدقائي الشيوعيين ذات مرة : « مجالس السوفييت في كل مكان! » . انه لبرنامج جميل . وعليهم من الآن فصاعداً ان يحددوه بعض الشي : « مجالس السوفيت في كل مكان إلا في المجر » .

٢ – الأيض هو مجموع المبادلات الغذائية الداخلية التي تتم بين خلايا الجسد البشري .

« م . ه »

مكتبة الفكر الجديد

فرص شيوعية قومية وديموقراطية قائمة لم تمس . فالجماهير واقعية النزعة : انها تطالب في بداية حركة اضراب او ثورة **بالحد** الأدنى ، بتحسين غير محسوس تقريباً لوضعها . ولقد كانت المطالبة بتصفية الحزب الشيوعي ستبدو ، حتى في نظر العمال الاشتراكيين -- الديموقراطيين ، شيئاً غير مناسب ومثيراً للسخرية : فقد كان معروفاً ان السوفياتيين لن يثقوا إلا بحكومة شيوعية ، وان حكومة شيوعية هي وحدها القادرة على التفاوض معهم . وفي ٢٣ تشرين الأول ، قبل بضع ساعات من التمرد ، كان سكان بودابست جميعاً في الشارع . لكن كثيراً ما ننسى ان التظاهرة الأولية تمت على شرف بولونيا : فأحداث وارسو وانتصار ١٨ تشرين الاول البولوني قد حركت مشاعر المجريين العميقة . ولعل بعضهم كان يحتفل بغومولكا **بالرغم من** انتمائه الى الحزب الشيوعي ، لكن التكريم كان موجهاً ، سواء أشاء هذا البعض أم لا ، الى شيوعي . ان ذلك الاحتفال الضخم هو الدليل على ان الجماهير كانت تطالب بـ « غومولكية » مجربة : لا اكثر ولا أقل . وعلاوة على ذلك كانت الاشتراكية – الديموقراطية منزوعة السلاح عملياً : فقد كانت بالنسبة الى العمال تقليداً نضالياً ، نمطاً حياتياً . وكانت تستفيد منذ بضع سنوات ، بصفتها معارضة غير منظمة ، من الاستياء الشعبي ، لكن حدودها كانت متحركة ، وكان كثير من العمال شيوعيين واشتراكيين – ديموقراطيين في آن واحد . ثم انها كانت عاجزة على الاخص عن تقديم برنامج بناء : فبوصفها ماركسية كانت على اتفاق مع الحزب الشيوعي للدفاع عن أسس الاشتراكية ، وعلى اتفاق مع المعارضة الشيوعية للمطالبة بالدمقرطة . ولو ان ناجي استدعي في ١٥ تشرين الأول – وربما حتى في ٢٣ تشرين الأول – واتخذ تدابير فورية لرفع مستوى الحياة ، ولتثبيت معايير العمل ولتزويد العمّال بأجهزة دفاعية حقاً ، واعلن عن رغبته في اعادة تنظيم الاقتصاد الوطني ، وكشف بلا تحفظ ، كما فعل غومولكا ، عن مدى الكارثة ، وقدم خطوطاً عامة لخطة تستهدف اعادة البناء ، واعلن أخيراً انه سيبدأ على الفور في مفاوضات مع

مكتبة الفكر الجديد

السوفياتيين ، لكان سدد ضربة رهيبة إلى المعارضة الاشتراكية – الديموقراطية بتجريده اياها حتى من مبرر وجودها . وبكلمة واحدة ، كان يمكن إنقاذ كل شيء ، وبالدرجة الأولى الحزب الشيوعي نفسه .

لكن جيرويه هو الذي كان يحكم . وبطلبه التدخل الروسي ، من قبيل العناد الغبي أكثر منه من قبيل الجبن ، أطاح بسمعة الحزب الشيوعي بضربة واحدة . فالزخة الأولى من الرصاص جعلت منه بشكل نهائي حزب الاجنبي . ولم يكن ذلك صحيحاً : فقد كان عدد كبير من المناضلين ، الممتزجين بالجموع ، يؤيدون بلا تحفظ المتظاهرين . وقد سقط شيوعيون مجريون تحت رصاص الشيوعيين الروس . ولم يكن هذا الجنون المجرم سوى انتفاضة للستالينية المحتضرة . لكن كل شيء جرى بالنسبة الى الجموع – وفي التالي بالنسبة الى البلاد بأسرها – كما لو أن الحزب الشيوعي أسفر عن وجهه الحقيقي . ولم يشأ المتمردون ان يروا فيه غير اداة وحشية في يد الاضطهاد السوفياتي . وعلى الفور التحمت النزعة القومية بنزعة عداء السوفييت ونزعة عداء الشيوعية الى التمرد . وقد قوبل اعضاؤها بالترحاب ، وأصبح لبعضهم نفوذ على رفاقهم : لكنهم أسمعوا صوتهم **باعتبارهم** متمردين **وبالرغم** من انتمائهم الى الحزب الشيوعي . وكان ناجي نفسه قد فقد حظوته : اذ انه عندما استدعي كان كل شيء قد ضاع ، ولقد اقترف غلطة القبول بالحكم من غير ان يضع شروطاً . وقد حمل على الاخص في البداية مسؤولية استدعاء السوفياتيين . وقد كذب ذلك . وعلى كل ، لا مجال للشك في انه لم يوجه نداء **بصفته** رئيس الحكومة المجرية . لكن المتمردين يقولون : لقد نال جيرويه موافقة اللجنة المركزية على قراره المجرم بالإجماع : والحال ان ناجي كان حاضراً . وهذا ما يرد عليه انصاره النادرون : كان يحضر جلسة اللجنة المركزية لأنه استدعي ، لكنه لم يكن عضواً فيها بعد ، ولم يجر انتخابه إلا بعد تلك الجلسة بمدة طويلة . لعل هناك من قصد توريطه : وفي هذه الحال تكون المناورة قد نجحت . ويجب ان نضيف انه كان عملياً ، في الأيام الأولى ، أسير لجنة مركزية الغالبية فيها للراكوزيين : وهذا ما يفسر انه تبرأ

مكتبة الفكر الجديد

في البداية[1] – برخاوة – من التمرد بدلاً من ان يقف على رأسه ويعطيه برنامجاً يسمح له بتوجيهه . هذا الموقف الملتبس جعله يخسر لهنيهة من الزمن شعبيته . وحين تحرر منه ، كان الأوان قد فات . ان تلك الحكومة التي طالما طالبت بها الجماهير ، والتي لوثتها مجزرة هي منها براء ، ازعجت السوفياتيين من غير ان ترضي المتمردين . كان اولئك يلومونها على استسلامها للضغط الشعبي ، وهؤلاء على وعدها بما لا يمكن ان يُسمح لها بالوفاء به . ذلكم هو التناقض : كان لا بد من حكومة شيوعية للشروع بالدمقرطة مع موافقة الروس وللسير بها حتى النهاية دونما تخلٍ عن مبادىء الماركسية ، وكانت الحكومة الوحيدة حكومة ناجي ، لكن منذ ليلة ٢٣ – ٢٤ تشرين الأول كان جيرويه قد خرب هيبتها . والانهيار المؤقت لسمعة ناجي وضع المتمردين أمام واقعة غير منتظرة : شغور السلطة . وفي الوقت نفسه كانت القنابل السوفياتية تنسف الماركسية ، وهذه التصفية الفظة للايديولوجية السائدة تركت التمرد بدون برنامج ولا سند . لقد وحد النضال القومي بين المتمردين ، لكنهم ما كانوا قد وجدوا بعد القاسم المشترك لمطالبهم . ولم يأت أي تقييم سياسي لينير أمامهم نضالهم . فكان التمرد ينتشر من غير **ان يعرف نفسه** . وفي غرب البلاد بدا وكأن القوى الرجعية تنتصر ، لكن في كل مكان آخر كانت الغالبية تريد ان تحمي المكتسبات الاجتماعية . بيد ان الحيرة الايديولوجية كانت تنذر في كل لحظة بتفتيت جبهة المتمردين وبتأليبهم بعضهم على بعض . وفي بعض احياء بودابست راح عمال مسلحون يستعدون للقتال في آن واحد ضد السوفياتيين وضد الشرطة السياسية وضد الجماعات المسلحة التي قد تحاول اعادة النظر في التأميمات . كما ان العلاقات بين النقابات – اجهزة الدكتاتورية الراكوزية – وبين المجالس العمالية لم تكن محددة . وفي قلب النقابات بالذات كان خصوم النظام يدخلون في صراع مع الغالبية البيروقراطية . وقد لخص النقابي الذي تحدثت عنه آنفاً هذا الوضع بجملة واحدة: « كان الجميع ضد الجميع » . وما كان ممكناً ان يدوم هذا الوضع:

---

١ – في ٢٤ تشرين الأول والأيام التالية كان يعد بالعفو عن المتمردين الذين يسلمون اسلحتهم.

مكتبة الفكر الجديد

كان لا بد من التغلب على الاختلافات بأي ثمن . وهذا مـــا حول لدى البعض الرغبة في **الدمقرطة** الى مطالبة **بالتحرر الليبيرالي** . وبالفعل كان الوحيدون المؤهلون للحلول محل الشيوعيين هم الاشتراكيين ــ الديموقراطيين . لكن كان لا بد أولاً من الاعتراف بهـــم كحزب . وكيف كان يمكنهم ان يطالبوا **لأنفسهم** بإعادة تشكيل الاحزاب بدون ان يطالبوا بذلـــك في الوقت نفسه لجميع التشكيلات المحلولة التي يقاتل اعضاؤها القدامى الى جانبهم ، ولا سيما « حزب المالك الصغير » ؟ لكن مع هذا الحزب الذي يقوم اسمه بالذات مقام البرنامج ، كان سيتم الإجهاز علي التشريك الزراعي الذي كان الفلاحون بالأصل قد شرعوا بتصفيته. وكيف السبيل الى الحيلولة دون ظهور أو معاودة ظهور قوى سياسية أخرى؟ وهل من الممكن منع الكاثوليك ، الذين حرروا الكاردينال مندزنتي ، من التجمع ؟ وباسم أي شيء ، طالما ان مبادىء الماركسية قد هُجرت وسط ذلك الخليط العظيم الذي يناضل فيـــه ماركسيون ضد ماركسيين ؟ والتجار الصغار السابقون ، والصناع اليدويون الذين ما يزال عددهم كبيراً ، والذين لم ينضموا الى النظام قط ؟ كان من الممكن اعتبارهم اعداء طبقيين : لكن هـــذا لا يمنع انهم دفعوا من دمهم ثمناً لحق التعبير عن رأيهم . ان الصراع الطبقي يخلي الساح ــ كما يحدث في حروب التحرير غالبـــاً ــ للنضال ضد الاجنبي . ومن اللحظة التي شهر فيها كل مجري السلاح ، تلقى ضمنياً من سائر المتمردين الحق في إبداء وجهـــة نظره على الفور وبعد الانتصار . وهؤلاء الرجـــال المتباينة مصالحهم ، بـــل المتعارضة أحياناً ، لن يظلوا متحدين في القتال إلا اذا تفاهموا عـــلى المطالبة باستشارة انتخابية : فالانتخابات هي وحدها التي تستطيع ان توطد وتضمن منافسة سلمية بين ممثليهم .

لم تكن الراكوزية لا دكتاتورية فاشية ولا طغياناً كغيره من أنواع الطغيان: فقد كانت تمثل بالرغم من كل شيء التشريك . وكل ما هنالك انهـا كانت تمثله على نحو رديء ، وهذا ادهى مما لو أنها لم تكن تمثله بالمرة . وكان انتحار هـذا المسخ لا بد أن يترك فراغاً لا سبيل الى ملئه . فقد كان ، بالعنف والارهاب ،

مكتبة الفكر الجديد

قد دمج جميع الطبقات بالنظام : فتحتم بالتالي ان يأخذ التمرد طابع انحـــلال وتفسيخ . كما تحتم أن تظهر على المسرح من جديد قوى مقنعة أو مكبوتة منذ زمن طويـــل : فانساب المتمردون ، الذين حرموا من الحكم نتيجة انفجار الحزب الشيوعي، نحو اليمين للمحافظة على وحدة معركتهم . وقد فرضت عليهم مقتضيات النضال الفورية أن يطالبوا بالعودة الى النظام البرلماني . وفي صبيحة ٣٠ تشرين الأول كان الموقف قد بلغ حدود المفارقة والتناقض : فقد كانت ما تزال هناك حكومة ، لكن الاتحاد السوفياتي كان قد سحب منها ثقته . أمـــا المتمردون فقد اعتبروها قـــوة مجردة مهمتها الوحيدة المصادقة على شرعية مطالبهم . وتحت ضغطهم عدّل ناجي باستمرار وزارته حتى تكون على صورة الجماعات المتمردة . لكنه فقد بالتالي كل مبرر لوجوده ، لأنـــه ليس خصم المتمردين حقاً ولم ينبثق عنهم . وهكذا كانت هذه الحكومة مقصرة دومـاً ، تلهث وراء التمرد ، لأن الأحداث كانت تتجاوزها باستمرار فلا تلحق بها إلا بعد تأخير ساعة أو يوم . وعند كل تنازل جديد كان القادة السوفياتيون يشعرون بريبتهم تزداد وتتدعم : فاعتبروا ناجي في النهاية خائناً . والواقع أنه شيوعي صادق نزع عنـــه مجرى الأحداث الصفة الشيوعية . فالزعيم الشيوعي يعتمد ، بالفعل ، على حزب منظم متماسك يوفر الاتصال ، نظريـاً على الأقل ، مع الجماهير . لكن الحزب كان قد تبخر . فاللجنة المركزية قـد اختبأت ، والمناضلون يطلقون النار مع المتمردين . وحين تفاوض ممثلو الجماعـات المتمردة مع ناجي لم يتوجهوا قط الى شخصه الشيوعي ، انما توجهوا اليه باعتباره رئيساً قوي النزعة لحكومة انتقالية . وهذا هو كل نحس هذا الرجل الطيب والصادق: فهو قد ظل ذاتياً وفياً لحزبه ، وجرى كل شيء موضوعياً كما لو انه قد استقال منه . وهكذا طالبت الجماهير ، بعد ان كانت ارادت الحرية داخـل النظام ، بحرية اختيار النظام الذي يعجبها .

اذن فصحيح ان التمرد كان ينزلق نحو اليمين . وهذا لا يعني ان العنـــاصر اليمينية قد سيطرت عليه بل يعني ان النضال ضد الأجنبي كان يخلق تلقاء نفسه

مكتبة الفكر الجديد

الشروط التي قد تسمح لتلك العناصر ذات يوم بالاستيلاء على السلطة . . . الانتخابات الحرة – التي لا مأخذ عليها في مبدئها – قابلة لأن تعيد الى البرلمان الجديد غالبية من « الملاك الصغار [1] » .

وانتحار الحزب الشيوعي هو الذي غيّر ايضاً طبيعة المطلب القومي يقيناً، ان قتال المتمردين ضد القوات السوفياتية ما كان يمكن ان يكون له سوى دلالة واحدة : كانوا يطالبون برحيل الجيش الأحمر ، وكان هذا الرحيل بالذات سيدشن مرحلة جديدة في العلاقات بين المجر والاتحاد السوفياتي . لكن الحياد ليس سوى شكل بالغ الخصوصية من العودة إلى السيادة . وهناك أشكال أخرى إيجابية ومثمرة أكثر : وعلى سبيل المثال تحالف يؤكد استقلال البلدان الموقعة ووحدة مصالحها ، الشيء الذي يعني انها ستعيد النظر معاً وعلى قدم المساواة في علاقاتها السياسية والاقتصادية والعسكرية . فحين كان الحزب في الحكم ، كان كثير من الناس يلومونه على طاعته الذليلة للاتحاد السوفياتي : ولهذا السبب على وجه التحديد كان هذا الحزب نفسه قادراً ، فيما لو تجدد وتدمقرط وقاده مسؤولون جدد ووطنيون ، على ان يلعب دور الوسيط الفعلي والفعال بين الشعب المجري والحكومة السوفياتية . وبالفعل ، ان هناك تناقضاً عميقاً في جميع الديموقراطيات الشعبية بين القومية والشيوعية . والشيوعي القومي إنسان عاش هذا التناقض ، فتكيف به ، وهو يسعى الى تجاوزه بدون أن يتخلى عن أي حد من حديه . ولهذا السبب أيضاً كان لا بد أن يؤدي تدهور سمعة الحزب الشيوعي المجري وانهياره الى تحطيم كل حلة عينية بين الأمتين وإلى تدمير جميع أجهزة الوساطة : وبالفعل كان هذا الحزب ، حين كان دكتاتورياً ، ينظم ويوجه

---

١ – يوجد في المجر نوع من التوازن الديموغرافي بين القطاع الاول من جهة وبين القطاعين الثاني والثالث من جهة أخرى . لكن حزب الملاكين الصغار نال ٥٣ ٪ من الاصوات عام ١٩٤٥ . اذن فهو قد تلقى عدداً من الأصوات في مناطق التجمع المدينية . وقد يصبح في الغد حزب القرويين والبورجوازية الصغيرة المدينية.ولن يعود في مقدور الحزب الشيوعي ان يعتمد كحد أقصى – سوى على ٤ و ٥ ٪ من الأصوات . وحتى لو افترضنا ان جميع الأصوات الأخرى ذهبت الى الاشتراكية – الديموقراطية ، فإن اليسار الاشتراكي يجازف كثيراً بأن يكون أقلية .

بنفسه ، تحت رقابة الاتحاد السوفياتي ، جميع المشاريع المختلطة سواء أكانت اقتصادية أم ثقافية . ولقد كانت نتيجة جنون جيرويه الإجرامي سد البـاب أمام جميع حلول التفـاوض التي كان من الممكن ان يقبل بها الاتحاد السوفياتي ، وذلك عندمـا ألغى الأجهزة والهيئات المكونة التي كانت تتمتع بثقة الاتحاد السوفياتي : فناجي ، الذي زالت عنه الصفة الشيوعية عمليـاً ، لم يكن يمثـل الحزب في نظر الروس ولا في نظر المتمردين . ولم تبق بين المجر وروسيا سوى صلة واحدة : القتال . وانتفت كل صلة جامعة بين الطرفين . متمردون وروس : هذا كل شيء . وما كان الأوائـل يستطيعون ان يفهموا الاستقلال إلا بشكله الاكثر مباشرة ، اي قبل كل شيء على انه رحيل الآخرين . وما كان الحياد إلا ليعكس هذا المطلب: فما دامت الأواصر مقطوعة ،فبمَ كان يستطيع ان يطالب المجريون ان لم يكن بالتعايش في شكله الاكثر بدائيـة وسلبية ، اي بكلمة واحدة : الاصطفاف المحض ؟ وبديهي انهم كانوا يعتقدون بإخلاص انهم يهدئون من روع القادة السوفييت وهواجسهم بالتزامهم بإقامة نفس العلاقـات او نفس غياب العلاقـات مع جيرانهم في الغرب . ان النزعة الحيادية ، في حد ذاتها ، لا يمكن ان تعتبر موقفاً يمينياً ، وقد وقف منها الاتحاد السوفياتي في أمكنة أخرى موقف المشجع . لكنه شجعه بمقدار ما يضعف الكتلة الغربية . اما حياد المجر أفليس هو التنافس الاقتصادي ، على **الأرض المجرية بالذات** ، بـين الشرق والغرب ؟ أليس هـو ، ربمـا على المدى القريب ، انتصار الولايات المتحدة الاميركية ، بـل عودة الرأسمالية ، من يدري ؟ هذا على الأقل ما كان يخشاه السوفياتيون بصدق .

هكذا كانت حصيلة الجرد في الايام الأخيرة من تشرين الاول : كان تدمير الحزب الشيوعي لنفسه يفرض برنامجاً سلبياً على التمرد . وكان هـذا البرنامج السلبي – انتخابات حرة ، حياد – قادراً ، فيما لو قُبل ، على إرجاع المجر الى كتلة الغرب . ويكذب من يزعم انه يفسر الانزلاق الى اليمين بغزو المهاجرين أو بالظهور المباغت لمناهضي الثورة الذين كانوا يختبئون في انحاء البلاد . والعكس

مكتبة الفكر الجديد

بالضبط هو الصحيح : اذا كانت بعض العناصر الرجعية قد أمكنها أن تلقى هنا وهناك اذناً صاغية ، فهذا لأن تبجح الحزب الشيوعي المبالغ جعل هذا الانزلاق محتماً ، رغم أنف المتمردين انفسهم .

ينبغي أن نضيف ان رحيل القوات الروسية ازاح بصورة مباغتة ، بدءاً من ٣١ تشرين الأول ، غطاء المرجل – انفجار من الفرح والحقد والعنف – الشيء الذي دفع بالجموع الى سحل الشرطة السياسية وبعض الشيوعيين على ما يبدو [١] . وفي الوقت نفسه راح الكاردينال مندزنتي يتكلم من الراديو . وتصريحاته توحي بأنه كان يعتبر نفسه ملهم القوى الرجعية ، إن لم يكن زعيمها .

هل كان وضع الاشتراكية والديموقراطية ميئوساً منه ؟ هذا ما يراد لنا ان نعتقده . لكن لنمعن النظر ملياً . ان اعمال السحل تلك هي أولاً مقرفة . لكننا سنثير علينا السخرية حين نريد أن نسحر بها وأن نعطيها دلالة سياسية . ولا ينبغي على كل حال أن ننسى ان الراكوزية كانت نظاماً بوليسياً وان

---

١ – يبدو ان اعمال سحل الشيوعيين في بودابست كانت قليلة . لكن حدثت في الاقاليم بعض تصفيات حساب جدية . ولكم استغلت هذه الحجة ! هذا لأنها تسمح باللجوء الى ما هو مقدس : « لم يحدث قط ان قبل عمال ، لم يحدث قط ان قبل اشتراكيون صادقون بأن ترفع اليد أمامهم على رفاق شيوعيين ». اذن فالسحالون هم من ذوي الصلبان المعقوفة ، واذا قلت العكس تكون قد أهنت البروليتاريا . لكن صحة هذه المحاكمة – أيكون السبب انني لا أملك حس المقدس ؟ – تفلت مني . فإذا كان الرفيق الشيوعي مسؤولاً ، واذا كانت انتهازيته وقسوة قلبه قد جعلتاه متواطئاً مع الارهاب الراكوزي ، واذا كان قد اثار البغضاء ضده بتعاليه وبالامتيازات التي يتمتع بها ، واذا كان قد اعتقل ونفى ابرياء ، فلماذا سيدافع عنه العمال والاشتراكيون الصادقون ؟ انهم يفضلون بلا ريب ان يحاكم : لكن من سيحاكمه في أيام العنف تلك التي انهارت فيها السلطات ؟ يقيناً ، لا مجال للموافقة على أعمال السحل التي يبدو ان بعضها كان مقرف القسوة . لكن ما الفائدة من استهجانها ؟ أوجدت هناك قط ثورات بريئة ؟ قال لي شيوعي فرنسي : « ضع نفسك مكاننا : انهم يغتالون رفاقنا » . هذا صحيح . لكن راجك وسلانسكي كانا أيضاً رفيقين . فهل ضج الشيوعيون لاغتيالها ؟ حين تسحق السلطة الفائقة القوة مناضلاً ، يسرعون الى التصريح بأنه خائن . وحين يثأر الشعب من مسؤول ، يكون الشعب مجرماً في نظرهم . اننا نرى اذن انهم قد اختاروا .

مكتبة الفكر الجديد

رجال الشرطة السياسية قد وضعوا أنفسهم موضع كراهية الشيوعيين و « الرجعيين » على حد سواء [1] . لكن هناك **على الأخص** رغبة في إخفاء واقعة جوهرية عنا : ألا هي انهم أعطوا اشارة المذبحة في ليلة ٢٣ – ٢٤ تشرين الأول . كان الجنود الروس في غالب الأحيان يترددون ، وأحياناً يتآخون مع السكان : أما رجال الشرطة السياسية فما كانوا يترددون . كانوا يسددون على مهل ، وبإحكام ، ويطلقون . وهذا ما لم تسامحهم الجموع عليه : لقد فتحوا النار ، هم المجربين ، على مجربين عزل من السلاح . كان ينبغي أن يحاكموا : انني اوافق على ذلك . لكن التاريخ يقدم ألف مثال عن اعمال السحل هذه : فهي نتيجة حقد مؤرث وخوف يتحول الى عدوانية . وشلل السلطات هو الذي يجعلها ممكنة . ويراد اليوم أن تلقى على عاتق الفدائيين الهورتيين مسؤولية هذه الاعدامات بالجملة . لقد أراد الجيروندیون في الماضي أن يوحوا بأن مجازر ايلول كانت منظمة : من قبل مارا ، يقول البعض ، أو من قبل روبسبيير . وكان غيرهم يقول : من قبل دانتون . ويقول غيرهم أيضاً : من قبل كومونة باريس . ويجمع المؤرخون اليوم على اعتبارها حركة جماعية . ولا تقع على الجمعية التشريعية والكومونة ، اللتين جمدتهما ريبتهما وكراهيتهما المتبادلة ، من مسؤولية سوى انهما لم تستطيعا الحيلولة دونها . وفي بودابست كان ناجي عاجزاً . وقد أبى المتمردون في البداية أن يعارضوا الشعب : هل كان في مقدورهم أن يفتحوا النار عليه بدورهم ؟ والحق انه لم يكن أمامهم من وسيلة أخرى غير كسب ثقته ، لكن ذلك كان يتطلب وقتاً . وقد حمل هذا العمل البطيء لكن الحازم ثماره : فما ان أخذت اللجان التمردية الأمور بأيديها ، حتى هبط عدد عمليات السحل . وفي يوم السبت ٣ تشرين الثاني – عشية العدوان السوفياتي – كان كل شيء قد عاد الى النظام . أما الكاردينال مندزنتي فإن الصحافة الستالينية قد جعلت منه ذئبها المسحور . لكن لا يكفي أن تعيد نشر كلمات انسان مسن

---

١ – حصلت ، من مصدر اظنه موثوقاً ، على هذه المعلومات : لقد بلغ عدد رجال الشرطة السياسية الذين قتلوا في بودابست بين ٣٠ تشرين الأول و ٤ تشرين الثاني مئة واربعين .

مكتبة الفكر الجديد

اضناه الألم وفتّ في عضده فسيطرت عليه احقاده حتى تقنعنا بأن وراءه جيشاً من الفاشيين مستعداً للعمل . ما القوى التي كان يعتمد عليها او يخيل اليه انه يعتمد عليها ؟ لقد قُطع عن العالم طيلة اعوام ثمانية ، ثم حُرر على حين بغتة : فهل يمكن ان نصدق انه كانت لديه فكرة واضحة عن الموقف ؟ لقد ارادت الصحافة الشيوعية ان ترى علاقة عميقة بين هذا الصوت الأصم الذي يجرجر نفسه على موجات الاثير وبين المذابح التي كانت تحدث في المجاري . ومن صدق ذلك، فإنما صدقه من قبيل الهوى . والبارانويا الستالينية هي وحدها التي منعتهم من رؤية الحقيقة وهي ان هوة سحيقة تفصل بين هذا الكاهن الهرم المعزول وبين صيادي الرؤوس اولئك . ولم يكن تطور التمرد المجري يتعلق لا بهذا ولا بهؤلاء . انني أعرف : ان تأثير الكنيسة عميق : فمن يدري ما إذا كان مندزنتي لن يمحض حزب مناهضي الثورة تأييده فيما بعد ، أثناء الانتخابات ؟ أجل ، من يدري ؟ لكن من يدري أيضاً ان كان تصلبه لن يقلق روما ويبعد عنه معظم المؤمنين؟ انه ما من احد يستطيع أن يقطع برأي بصدد هذه النقطة. لا عندنا ، مع المعلومات الزهيدة التي نملكها ، ولا حتى في بودابست حيث لم تكن اللعبة قد لُعبت بعد .

وبالفعل ، كانت العناصر الايجابية كبيرة العدد عشية العدوان الثاني ، يوم السبت ٣١ تشرين الأول . والصحافة البورجوازية و « الأومانيته » متفقان على إخفاء وجود هذه العناصر : هذه لحرصها على « سان برتلمي الوطنيين » ، وتلك لأنها تريد أن ترى في المأساة المجرية انتفاضة رائعة لليبرالية المخنوقة . اذن فمن الضروري ان ننوه بتلك العناصر .

ان بلدان اوروبا الوسطى لا تملك جميعها بنية واحدة : فهي تجتاز جميعها مرحلة صعبة لكنها لا تعرف صعوبات واحدة . فبعد عام ١٩٤٥ على سبيل المثال وجدت الحكومة التشيكية نفسها أمام مشكلة خطيرة : فتقدم الصناعة ، في فترة ما بين الحربين ، قد نمى بصورة ملحوظة الطبقات غير المنتجة . وكان لا بد من دمجها بالمجتمع الجديد وابتلاعها شيئاً فشيئاً : وانا لا اعتقد انها توصلت إلى

مكتبة الفكر الجديد

ذلك قط. كما لا أعتقد أن هـــذه البورجوازية قد انضمت قط الى النظام . فهي مثقفة ، قادرة ، والخشية منها لها ما يبررها : فهي تهدد بأن تموه لصالحها تمرداً قومياً ضد القـادة الشيوعيين أو بـــأن تحوله إلى حرب أهلية ؛ وصحيح أن البروليتاريا هناك قوية للغاية هي أيضاً . وعلى كل حال ، لو وقعت الأحـداث في براغ لسارت في منحى آخر حتى ولو بدأت كما بدأت في بودابست . ذلـــك لأن البورجوازية المجرية التي وجدت قبل الحرب لم تكن متطورة تقريباً : فهي ليست بعيدة عن ان تؤلف القوة الاجتماعية المهيمنة فحسب ، بل لا يمكننا أيضاً الا بشق النفس ان نعدها من بين الطبقـــات **السائدة** . فالبورجوازيون الكومبرادوريون الذين ارهبهم كبار الملاك لم يجرؤوا على القيـــام بـ « ثورتهم البورجوازية » ولا على تجهيز البـــلاد بصناعة وطنية . وبالمقابل كانوا يشجعون تطور المشاريع الاجنبية . وكانت المجر فريسة كبار الملاك العقاريين ، وكانت مصادرها الطبيعية مستثمرة من قبل بلدان متقدمة في تصنيعها : لهـــذا حق لفرانسوا فيجتو أن يسميها « أمة نصف مستعمرة » . والقطاع الثالث لم يتطور قط في المجر . ان ادهى خطر يمكن أن تصادفه دولة اشتراكية فتية في بداياتها هو عداء بورجوازية وطنية كبيرة تعتمد على الطبقات المتوسطة التي طورتهـــا بنفسها ، وفيض من كبار المستخدمين والاداريين المخلصين كل الاخلاص للرأسمال بالرغم من كونهم أصحاب اجور [1] . ولقـــد كان مقدراً للدولة المجرية أن تتجنب هذا الخطر سلفاً . فالبورجوازية الكبيرة فيهـــا كانت دوماً ضعيفة وكوسموبوليتية : وقد أجهزت عليها الهجرة والتطهيرات فاختفت نهائياً . ولم يكن هناك خوف من أن تستلم مقاليد القيادة أو من أن تحرف التمرد عـــن مجراه . أما البورجوازية الصغيرة المجرية ، المؤلفة من تجـــار وصناع ، فتمثل

---

١ -- سيجد القارىء فائدة كبيرة في قراءة رواية ستيفان هايم : « عيون العقل » . فهذا الشيوعي الالماني يروي بموهبة كبيرة منازعات أسرة رأسمالية كبيرة مع الحكومة التشيكية ومع العمال بين ١٩٤٥ و ١٩٤٩ . قد يقال : « انها محض رواية » . بالتأكيد : لكنها تقدم تحليلاً ناعماً ومتماسكاً للمنازعات الاجتماعية والمصاعب التي عانتها تشيكوسلوفاكيا بعد الحرب .

مكتبة الفكر الجديد

بالتأكيد ميولاً محافظة . لكن هذه الميول لا يمكن أن تقارن في أي حال من الأحوال بإرادة الاستغلال التي تميز طبقة رأسمالية ، وهي لا تعدو أن تكون أكثر من تعلق عميق بالملكية الفردية . ولا مجال للشك في أن هذه الملكية الصغيرة (ملكية المخزن أو الدكان) ، التي ما يزال الحكام المجريون يبدون تجاهها تسامحاً كبيراً ، لا يمكن أن تتطور تطوراً طبيعياً إلا في مجتمع ذي بنية رأسمالية يؤدي فيه قانون المزاحمة ، الذي يعلي من شأن البعض على حساب الآخرين ، الى التمركز . لكن هذا النمط من المجتمع على وجه التحديد لم يستطع قط ان يثبت اقدامه في المجر. وهو لم يعد على كل الاحوال سوى ذكرى أو حلم: فأين هي القوى القادرة على اعادة تكوين الرأسمال الخاص؟ ان هذه البورجوازية الصغيرة تعيش عيشة الكفاف وتتشبث بآخر امتيازاتها أكثر مما تفكر بتحقيق مكاسب جديدة[1] : لقد بقيت في عهد راكوزي على ما كانت عليه في عهد هورثي ، و « لزوجتها الطبقية » كبيرة إلى حد ان الابناء لا يرتفعون فوق الآباء ، اللهم إلا اذا اصبحوا شيوعيين ودخلوا حرم الإدارة . وبالفعل ، ان ما يغير كل شيء هو انه توجد فوقها زمرة اجتماعية تملك الرفاه والسلطة البورجوازية ، وتستطيع ان تجر البورجوازية الصغيرة : انها البيروقراطية الاشتراكية التي تأتيها القوة والثروة من انتمائها الى ممارسة والى ايديولوجية ما يزال ينفر منهما البورجوازيون الصغار . انني لم اعتبر البيروقراطية طبقة قط . بل انني أجد هذا الخلط بينهما باطلاً كل البطلان : لكن هذا لا يغير شيئاً من واقع ان كبار الموظفين بل حتى رجال البوليس السياسي العاديين يتمتعون بامتيازات فاضحة في المجر . وعلى هذا فإن العصيان المجري قد عارض الثراء وسعة العيش بالبؤس والعوز . وإن ما دافعت عنه البورجوازية الصغيرة الى

---

١ – ان التاجر الصغير ، المدموج بالنظام ، المراقب ، الشاري والبائع بأسعار محددة البضائع المقدمة من قبل الحكومة ، يبدو اصغر وحدات التوزيع المدوّل . لكن طالما ظلت مضاعفة عدد المخازن الكبيرة « الجامعة » مستحيلة ، فإن مراكز البيع تلك ستحتفظ بظاهرة من استقلال ذاتي .

مكتبة الفكر الجديد

جانب العمال لم يكن في البداية مبدأ الملكية الخاصة . إن تناقض هـذه الطبقة الرجعية يكمن في انها كانت تقاتل ضد الامتيازات وضد الـترف باسم الحق في الحياة لا أكثر . وعلى هذا، ومهما كانت مراميها البعيدة والذاتية ، فانها كانت موضوعياً تدافع عن اشتراكية محققة لمزيـد من المساواة الى جانب الاشتراكيين وضد الاشتراكيين الفاسدين المرتشين .

اما كبار الملاك العقاريين فكانوا قد هاجروا : وعلى فرض انهـم ارادوا العـودة ، تحت جنح الفوضى ، فعـلى أي سند كانوا يستطيعون الاعتماد ؟ فالقرويون،عند اعلان العصيان،قد اعادوا فيما بينهم توزيع أراضي التعاونيات . وبكلمة واحدة : دمروا مجهود الثورة الاشتراكي . لكن هذه التصفية لم تعدهم الى عام ١٩٣٩ : فهؤلاء التعساء – الذين لم يعمل كبـار السن بينهم حتى الحرب إلا في أراضي الغير – وجدوا انفسهم مالكين . وبذلك يكونون قد احتفظوا من النظام بإصلاحه الأول ، بذلـك التوزيع للأراضي الذي يمكننا ان نسميه « بورجوازياً». ولو قبلت حكومة ناجي بهذه « السياسة الاقتصادية الجديدة »، ولو كرست افلاس الجماعية السريعة ، لا لتظل مكتوفة اليدين الى الأبد ، بـل لتعاود التشريك بحذر وبطء ، لوجد الفلاحون المجربون انفسهم في وضع مالكي الثروات القوميـة أيام الثورة الفرنسية ، ولكانوا دافعوا عـن النظام كما دافع ملاكنا الصغار عن الجمهورية ، لأنهم كانوا سيخشون قبل كل شيء، شأن الفلاحين الفرنسيين ، عودة المهاجرين . ولقد احس بذلك الكاردينال مندزنتي ، ما دام قد بدأ بالتصريح بأنه يقبل بلا تحفظ بتأميم املاك الكنيسة. وعلى كل، لم تحدث اضطرابات تذكر في الأرياف. وكانت معظم القوات الروسية مشغولة في المراكز الصناعية الكبيرة . ولم يأت ذكر لقتال أو مذبحـة . وبالكاد بعض تسويات حساب . وبعد ذلك التوزيع الجديد للأراضي ، الذي جرى في كل مكان برضى الجميع ، اعتبر الفلاحون ان مطالبهم قد لبيت واستأنفوا العمل . كان هـذا الوضع الجديـد يشتمل على أخطار : فالتعاونيات لم تكن تهـدف إلى زيادة الإنتاجية فحسب ، بل أيضاً الى الحيلولة دون اعادة تكوين المزارع الكبيرة .

مكتبة الفكر الجديد

لكن هذا الخطر كان خطراً على المدى البعيد : وكان في مقدور حكومة راسخة الدعائم ان تتخذ تدابير صارمة ، وان تمنع بيع الأراضي أو التنازل عنها ، وان تضرب الكولاك الجدد بضرائب باهظة . ان المالك المجري الصغير قد انضم الى الكولاك ضد التشريك القسري ، وهو سينضم الى الحكومة ضد الكولاك الذين قد يريدون إفلاسه للاستيلاء على أرضه : وهو في كلتا الحالتين يناضل ضد المصادرة .

والواقع ان برنامج المتمردين لم يكن رجعياً قط . ولقد كان لا بد من الاعتراف بالافلاس الشامل للتعاونيات . كان ذلك عدلاً ، وكانت تمليه ايضاً اعتبارات السياسة [1] . ولكن اثناء اجتماع زعماء التمرد ، في ثكنة كيليان ، اعلن احدهم ، وهو شيوعي ، ان مكاسب الاشتراكية ستظل قائمة مهما حدث . وقد نال اقتراحه إجماع الأصوات . وكان يقصد بالطبع تشريك الصناعة . وعلى كل ، وبعد فترة وجيزة ، أرغم التمرد ناجي على القبول ، كنقطة انطلاق ، بنظام قائم أصلاً كان قد اثار استهجان الروس لكن أخطاء راكوزي جعلته محتماً : ان القطاع الصناعي سيظل مؤمماً ، والقطاع الزراعي سيترك مؤقتاً للملكية الصغيرة الخاصة . لقد أشرت الى اخطار هذا النظام وبينت ضرورته . أما المستقبل فكان منوطاً بالاحزاب والرجال الذين سيحملهم التمرد الى السلطة .

---

١ -- كان ذلك عدلاً . فسوء النية والمقاومة السلبية اللتان أظهرهما الفلاحون المرغمون على العمل في المزارع الجماعية كانت نتيجتها في المجر ان الملكية الصغيرة، المثقلة بالضرائب والمكوس، والخاضعة لأمرّ المضايقات ، اعطت مردوداً افضل نوعاً وكماً من الاستثمارات الجماعية الكبيرة . اذن فـ « العودة الى الوراء » كانت تفرض نفسها فرضاً ، من الزاوية الاقتصادية الصرف اولاً وعلى الأخص .

وكانت تمليه اعتبارات السياسة . فتجاه خصم كلي القدرة ، كان التمرد يريد ان يحقق وحدة البلاد بأسرها . ولو لم يصادق على اعادة توزيع الأراضي ، لأمكن الفلاحين ان يعتقدوا ان الثورة تجري ضدهم . وبالفعل ساعد الفلاحون متمردي المدن بفضل « الجبهة المتحدة » لجميع المطالب . ان بودابست ، بموجب شهادة الشهود العيان ، لم تعرف قط تموينا افضل من ذاك الذي عرفته في الأيام الأخيرة من تشرين الأول .

مكتبة الفكر الجديد

والحال ان المقاتلين المجرمين فكروا بتمتين اواصرهم بعـــد رحيل القوات السوفياتية الكاذب . ولتجنب انبعاث التشكيلات السياسية القديمة أو للحد من مجازف الاستشارة الانتخابية ، فكروا بتشكيل حزب كبير للثورة يضم اليمين المسيحي والبورجوازي الصغير والاعضاء السابقين في « حزب الملاك الصغار » والاشتراكيين – الديموقراطيين والشيوعيين وكانت المفاوضات قد بدأت جدياً حين تدخل الجيش الأحمر من جديـد بشكل سافر . وتوجب تعليق المفاوضات لحمل السلاح من جديد . ولا احد يدري إن كانت ستصل الى نتيجة إيجابية . وحتى في مثل هذه الحال ، لا يستطيع احـــد ان يؤكد ان ذلك الحزب لن ينفجر . لكنه لو كان لجم تناقضاته ، لفاز بلا شك بغالبية الأصوات . ولكانت الاشتراكية قـــد استفادت فائدة ملموسة : فقد كان الحزب الشيوعي والحزب الاشتراكي – الديموقراطي سيجدان نفسهما في مقاعد الاقليـــة في برلمان يجري تشكيله على أساس انتخابات ١٩٤٥ ، تجاه احزاب معاديـة ومغلقة على نفسها ومسدودة دون تأثيرهما . ولكانت المعارضة تشكلت منهما – ربما معارضة غير فعـــالة . وبالمقابل ، وداخـل حزب الثورة الكبير ، لم يكن هنـــاك أي سد يفصلهما عن رفاقهما القدامى في الكفاح . والحال انهما كانا الوحيدين اللذين يملكان ممارسة ومنهجاً وايديولوجية ، وكانا الوحيدين اللذين يرميان الى اهداف بعيدة عبر الاهداف المباشرة : ولا شك في ان نقاط التفوق هذه التي لا مجـــال للمباراة فيها كانت ستسمح لهما بممارسة تأثير حاسم على رجال مترددين يفتقرون الى التجربة السياسية .

ومنذ ٣ تشرين الثاني حمل اتحاد المتمردين أولى ثماره وبدأ النظام يستتب من جديد . وتلكم هي اللحظة المحددة التي اختارها الجيش الأحمر ليضرب . فكيف يجرؤ البعض على الزعم بأن الدبابات قد عادت الى بودابست لمواجهة حالة تنذر بشر مستطير ؟ ان الفوضى المؤقتة التي كانت ما تزال تسود في هـــذه المدينة المطوقة لم تكن تشغل بال الكرملين تقريباً . وما كان يشغله قبل كل شيء انمـا هو التطور اللاحق للموقف وانعكاساته . والحال ، لا يمكن لأحد أن يشك في

مكتبة الفكر الجديد

أن العودة الى الهدوء كانت ستكون بداية صراع قاسٍ . فقد كانت تناقضات الاقتصاد الممزق بين قطاع الصناعة المشرك وبين قطاع الزراعة « الحر » ستبعث بسرعة التعارض بين المدن والأرياف ، وبين العمال والفلاحين . وكانت مشكلة التموين والاسعار ستنطرح فوراً : كان غضب القرويين سيستيقظ اذا فرضت الضرائب على المنتجات الغذائية ، وكان العامـــل سيجوع اذا لم تفرض تلك الضرائب. وكانت الطبقة المتوسطة ستستغل هذا النزاع لتطرح نفسها كَحكَم، لكنها كانت تحمل في ذاتهـا تناقضاتها : فبصفتها مدينية كانت حاجاتهـــا وحاجات البروليتاريا واحدة ، وكانت السياسة التعسفية في التموين والاسعار ستخدم مصالحها ، وبصفتها محافظة كانت ستنضم الى الطبقات القروية للدفاع عن الملكية الخاصة . ولقد قلت ان الوضع في الريف كان يحتاج الى الكثير من البراعة والمهارة لمنع الكولاك الجدد من استغلال الفقراء أو مصادرة أراضيهم . اما على صعيد الثقافة فكانت الماركسية ، التي ما تزال قوية وان فقدت شيئاً من اعتبارها ، ستواجه الايديولوجيات البديلة المقدمة بسخاء من الغرب ، وقـــد تواجه أيضاً — من يدري ؟ — يقظة مباغتة للايمان المسيحي . وانمـا على مجموع هذه النزاعات يجب ان نطلق اسم « الصراع الطبقي » لا على « روكامبولات[1] » جريدة «الاومانيته». العمال، البورجوازيون الصغار، الفلاحون، الكولاك والملاك الصغار : انما بتواجه هذه القوى وباللعبة المعقدة لتحالفاتها وللعلاقات مع الاتحاد السوفياتي والغرب ، كان يمكن ان يتعلق مصير المجر . لكن عجباً ؟ أليس هذا بالضبط ما يتعلق به اليوم وسيتعلق به غداً ؟ ان الروس لا يستطيعون شيئاً حياله . هل توقف الصراع الطبقي في عهد راكوزي ؟ ألم يكن من نتائجه ذبول التعاونيات ؟ هل تراخت هيمنة المسيحية ؟ وهل كف العمال لحظة واحدة عن ارادة الاشتراكية بالرغم من الأشيـاء المقرفة التي كانت تُجرع لهم ان سورة الغضب وفداحة الأخطار يمكن ان توحدا القـــلوب لفترة من الزمن ، والقوة

---

١ - نسبة الى روكامبول بطل روايـــة بونسون دي تيراي المشهورة ، وصاحب المغامرات الخارقة . « هـ.م »

مكتبة الفكر الجديد

الوحشية تستطيع ان تسحق لبعض الوقت الخلافات : لكن لا بد دوماً من العودة إلى السياسة ، ومن السير في مشروع غير موثوق ، ومن ركوب المجازف ، ومن الوثوق ببعض الطبقات والاعتماد عليها . ولقد اساء السوفياتيون دوماً تقدير القوة الثورية للحركات العمالية . وفي القضية المجرية رأوا على الفور الإنزلاق إلى اليمين ولم يستطيعوا أن يميزوا ما اكتسبه اليسار في الوقت نفسه من قوة : إن الريبة ليست جدلية . ولا المانوية . والبيروقراطية السوفياتية لا تحب العمال المسلحين ، وهي تفضل عليهم الجنود أكثر بكثير . وفي ٤ تشرين الثاني راهنت ضد الثوريين الماركسيين ومع انتصار الثورة المضادة . وصحيح أن الصراع الذي بدأ كان يمكن أن يقود الى الحرب الأهلية ، لكنه كان سيؤدي أيضاً الى دكتاتورية البروليتاريا الحقيقية . ذلك ان الطبقة العاملة كانت مسلحة . وكانت ستحافظ على سلاحها : فقد كان المتمردون يريدون ان يشكلوا ، بعد رحيل الروس، حرساً قومياً مؤلفاً من طلاب وعمال. وخلاصة القول انهم كانوا سيجعلون من أنفسهم حراس الصناعة المؤممة . وأي قوة كان سيظهرها ضد المهاجرين ومناهضي الثورة هؤلاء الرجال الذين لم ترهبهم المصفحات الروسية ! لقد وقف أحد ممثلي لجان المصانع في ١٦ تشرين الثاني ، بعد سحق التمرد، يطلب إلى رفاقه استئناف العمل تحت شروط معينة . كان يتكلم بوصفه مهزوماً ، بكبرياء رائعة : فقد أعلن ان الاضراب سيوقف لمساعدة سكان بودابست وانه سيستأنف على الفور اذا لم تلب مطالب المضربين . ولقد فاه بالعبارة التالية ، في مبنى محشو برجال الشرطة، وسط مدينة مخربة تقوم فيها الدبابات الروسية بأعمال الدورية: « إن العالم أجمع يعرف قوتنا » . إننا نعرفها ، هذا صحيح : ان مليوناً وستمئة الف عامل يقف دونهم عاجزاً أقوى جيش في العالم . فهل ثمة من يعتقد ان هؤلاء الرجال كانوا سيعجزون عن خنق الثورة المضادة من تلقاء أنفسهم ؟ كان لا بد ، بالتأكيد ، من ركوب المجازف ومن التنظيم ، ومن تحديد سياسة والبحث عن تحالفات : لكنهم كانوا مستعدين لذلك . فهل كان هذا مشروعاً بالغ الجنون ؟ وأيهما كان الأفضل **لبلد الشغيلة** : أذبح عاصمة وتقتيل سكان وتدمير

مكتبة الفكر الجديد

اقتصاد كان يقف بالأصل على شفا الهاوية ام الثقة ببروليتاريا واعية ومسلحة ؟ كان لا بد من توقع صراع ، أجل ، لكنه كان صراعاً **حقيقياً** ، صراع قوى المجر الفعلية . هل كان النزاع الطبقي سينفجر ، علناً وجهاراً ؟ بلا ريب ، لكن ما الفائدة من إخفائه وتقنيعه ؟ هل كان الاتحاد السوفياتي سيشهد ، عاجزاً ، انسحاق القوى اليسارية ؟ ولماذا ؟ أما كان يستطيع ان يساعدها ؟ ان يقبل بتقديم معونة غذائية لحكومة تمثل الشيوعيين بنسبة كبيرة ؟ لا فائدة ترجى من إيقاف التطور الحر لبلد من البلدان بالقوة : فعليه وحده تقع مهمة التغلب على تناقضاته . لكن سيقال : والمهاجرون ؟ والفدائيون ؟ والغرب ؟ كفى ! ان الاتحاد السوفياتي قد سحق المقاومة المجرية ولم يتحرك بلد من بلدان الغرب . لقد وقف احد الخطباء النجباء يتكلم بالأمس في مقر حركة انصار السلم : « ما الداعي لاهتمامنا بالمجر ؟ إنه ما من انسان سيحارب من أجل المجر » . كان هذا الخطيب تقدمياً وقد صفق له الشيوعيون . اذن ؟ أهناك من يعتقد بأن الاتحاد السوفياتي ما كان يستطيع أن يتفاوض مع الولايات المتحدة الاميركية ؟ وأن يفرض حياد الغرب الشامل مقابل حياده هو ؟ وان يعلن انه سيعتبر الغربيين مسؤولين عن الجماعات المسلحة التي ستتكون لديهم والتي قد تحاول تخطي الحدود المجرية ؟ وأن يعلن انه سيرسل مئتي ألف « متطوع » – كما فعل من أجل السويس – في حال دخول مهاجرين مسلحين الى المجر ؟ ان ثرثاري الغرب قد عرضوا أنفسهم لبغضاء المجريين الذين دفعوا بهم الى التمرد ليتركوهم من ثم لمصيرهم : أفما كان باستطاعة الاتحاد السوفياتي ، مهما تكن النزعة المعادية له قوية ، ان يعتمد على النزعة المعادية للغرب ؟ ولو سحب قواته ؟ أما كان سيستعيد – جزئياً على الأقل – المواقع التي خسرها ؟ آه ! كان في ذلك مجازفة . أجل. لكن هل هناك من يتصور ان المجازفة ليست أكبر في حال اللجوء الى القوة ؟

لا يحق لاي إنسان ان يقول ان احداث المجر جعلت التدخل محتماً . لا يحق ذلك لأي إنسان : ولا حتى لمن قرره . وعلى كل ، ان هناك أكثر من دليل واحد على التردد السوفياتي : التصرفات الخرقاء والندم عليها ، الرحيل الكاذب

مكتبة الفكر الجديد

ثم العودة[1] ، شلل القوات الغريب أمام الاضراب ، اعـــلان راديو بودابست لقرارت النفي ثم تكذيبها في اليوم التـــالي ، حركة الذهاب والاياب الغريبة للقطارات المكتظة بالاسرى المقادين الىٰ الحدود « لاستجوابهم » والذين اعيدوا فيما بعد ، « الانزلاق نحو اليمين » من قبل حكومة كادار التي بـدا عليها للحظة من الزمن انها تتبنى جميع تنازلات ناجي (باستثناء اعلان حياد المجر) ثم تصلبها المباغت ، ورفضها البات القاطع للمطالب العمالية الذي تلاه استئناف المفاوضات ، ثم حل اللجان[2] . كلا : ليست المسألة مسألة انتفاضة سلطة شعبية وجـــدت نفسها على حين غرة مكرهة على استخدام العنف أو على القبـول بمـــا لا يمكن اصلاحه والتعويض عنه في المستقبل ، بل هي بالاحرى مسألة عمل غير منسجم ، تارة رخو وطوراً فظ ومتسرع ، لحكومـــة منقسمة على نفســـها ، تحرجها انقساماتها الداخلية وايديولوجيتها الخاصة ، وتحتار امـــام موقف جنودها ، وتكتشف ذاهلة ، لكن بعد فوات الاوان ، الحقيقة التي كان يخفيها عنهـــا عملاؤها . إن ما جعل التدخل محتماً ، ليس هو الارهاب الابيض في بودابست ، بل انتصار سياسة معينة في موسكو . يراد لنا ان نعتقد ان ذلك التدخـــل كان ضرورياً للحال ولأسباب يمكن ان يقبل بها اليساريون جميعاً . وهذا غـير صحيح : والحقيقة هي ان هنـــاك أناساً ، انطلقوا **من منظور سياسي معين** ، يقوم على تقييم **خاص بهم** للوضع الدولي ، وارتأوا بأنه من الأفضل لهم ان يرفضوا منح القوى الاشتراكية في المجر الجديدة فرصتها وان يغرقوا هـذا البلد

---

١ — كانت المفاوضات ما تزال جاريـــة في بودابست بين العسكريين الروس والعسكريين المجريين حين صدر الأمر بالهجوم . ولم يفوت اعداء الشيوعية عندنا هـــذه الفرصة للتنويه بالمكر السوفياتي . وأنا لا أؤمن بهذا المكر : وقبل كل شيء لأن الوسائل التي استخدمت كانت تغني عنه . ويبدو بالأحرى ان تكتلات الكرملين المختلفة كانت تبحث عن حل القضية المجرية جميعها معاً في آن واحد وبطرق مستقلة . ولقد كانت الغلبة في النهاية لأنصار القمع .

٢ — هي اللجان نفسها التي يريـــد كادار ان يعيد تشكيلها اليوم من نفس الاعضاء الذين انتخبوا لها ، والتي يزعم ان حكومة جيرويه كانت تفكر بتنظيمها قبل ٢٣ تشرين الأول ، بينما تدين البرافدا وجودها ... في يوغوسلافيا .

مكتبة الفكر الجديد

في الفوضى . ان احداث المجر لم تقيّم قط في حد ذاتها ، ولم تؤخذ بعين الاعتبار الا الانعكاسات التي يمكن ان تكون لها على أوروبا الوسطى ، وفي المقام الاخير على الكتلتين .

وبالفعل هل ثمة من سيصدق ان السوفياتيين ارادوا ، في المجر ، الدفاع عن الاشتراكية المجرية ؟ واذا كانوا قد تصوروا ذلك ، فيا لها من سذاجة ويا له من فشل ! ماذا ربحوا ؟ لا شيء . ماذا خسروا ؟ كل شيء . لقد اشعلوا في القلوب حقداً لن ينطفىء وشيكاً ، الرجعية أول من سيستفيد منه . ولقد شوهوا الى الأبد سمعة الحزب الشيوعي المجري وارغموه على إنكار نفسه بتبديله اسمه . واجهزوا في النهاية على الاقتصاد ، وألبوا الجماهير على الحكومة في الوقت الذي ستحتاج فيه اعادة بنائه الى التعاون الفعال من جانب الشعب بأسره . وقد نصبوا على سدة الحكم شيوعياً قومياً كان يمكن ان تفيدهم شعبيته ، لكنهم شوهوا سمعته مقدماً بإرغامه على نسب مسؤولية المجازر الى نفسه . وقد سببوا إضراباً احتجاجياً عاماً بات معه الجيش الاحمر ، جيش الشغيلة ، عدو الشغيلة المجريين في نظر العالم اجمع . انهم لا يجرؤون على اللجوء جهاراً الى القوة لإعادة العمال الى المصانع ومع ذلك يضاعفون عدد الاعتقالات . انهم لا يستطيعون الذهاب في حال سبيلهم بدون ان يكنس غضب الشعب الحكام المفروضين عليه فرضاً ، ولا البقاء بدون ان يحكموا على فرصة كادار الوحيدة ، الدمقرطة ، بأن تظل مجرد حبر على ورق . لقد وقعوا في فخ نصبوه بأنفسهم ، وعلقوا في دبق احتلال آمل ان يكون قد اثار اشمئزاز قواتهم ، احتلال يبرر نفسه اكثر فأكثر بالشر الذي يقترفه وبالحقد الذي يشعله . ان العنف والاضطهاد يبعدان تدريجياً هذا البلد الشهيد عن المعسكر الاشتراكي . ولم تبق أمامهم من وسيلة لإبقائه فيه سوى الاضطهاد والعنف . لقد كانوا ، قبل شهر تشرين الاول ذاك ، يحرزون النصر تلو النصر ، فقد خرجوا رابحين من الحرب الباردة ، وتصالحوا مع تيتو ، وأعادوا بناء وحدة المعسكر الاشتراكي ، ومدوا نفوذهم حتى الهند وحتى الشرق الأوسط . وفي الديموقراطيات البورجوازية أتى هجومهم الثقافي أكله ،

مكتبة الفكر الجديد

وجرد المؤتمر العشرون دعاية الخصم من سلاحها . امـا اليوم فإن نهرو يدينهم ، والبلدان الافريقية – الآسيوية تقف مترددة ، قلقـة ، والبرافدا والبوربا [1] تتبادلان الشتائم . لقد قضت مجـازر بودابست على سنوات من الجهود في سبيل الانفراج وللتعايش والسلم . ولم يحدث قط في الغرب أن واجه الشيوعيون عزلة كتلك التي يواجهونها اليوم ، ولا ان وقعوا في حيرة كتلك التي هم واقعون فيها اليوم، ولا ان اقام اليمين حول انتصاره ضجة كتلك التي يقيمها اليوم . ولقـد كان من الممكن توقع هذا كله . ففي يومي ٢ و ٣ تشرين الثـاني القاتمين ، حين كان الراديو يعلن دخول الامدادات السوفياتية الى المجـر ، راح اليساريون واصدقاء الاتحاد السوفياتي وبعض الشيوعيين ، في فرنسا وغيرها ، يزنون نتائج استخدام القوة ويقولون في انفسهم : هذا غير ممكن ، انهم لن يفعلوها .

لقد فعلوها لكن باسم أي شيء ؟ وماذا أرادوا ان ينقذوا؟ الجواب بسيط : لقد فعل المسؤولون عن التدخل ما فعلوه وكلهم قناعـة بحتمية نزاع عـالمي ، وكانت السياسة التي استلهموها هي سياسة الكتل والحرب الباردة .

ما منشأ هذه السياسة ، وما الاهداف التي تنشدها ، ومن هم الرجـال الذين يمارسونها ، وما دلالتها بالنسبة الى الاشتراكية ... هذا ما يتوجب عـلي ان اوضحه الآن .

* * *

نحن نعرف ، في بلداننا البورجوازية ، مـا كلفنا تحقيق التراكم البدائي » ، ولم ننس التبذير المسرف بالحيوات الانسانية ، والعمـل القسري ، والبؤس ، والعصيانات ، والقمع . ويبدو ان تكاليف تصنيع الاتحـاد السوفياتي كانت اقل . ومع ذلك ، كم اقتضى من مجهود رهيب ! كم من عرق ، وكم من دم : لقـد كان سباقاً ضد الساعة ، في بلد متخلف ، زراعي بأكمله تقريباً ، مطوق ، كان عليه ان يجهز نفسه بالرغم من الحصار الاقتصادي وتحت التهديد الدائم بعدوان

---

١ – الصحيفة الرسمية لرابطة الشيوعيين اليوغوسلاف . « هـ.م »

مكتبة الفكر الجديد

مسلح . ولا يستطيع أحد ان يقول الى أي حد كان هـذا « الحصن المحاصر » يستطيع ان يقلل من آلام وشقاء شاغليه بـــدون ان يجازف بدماره شاملاً . والشيء المؤكد هو أن القادة الشيوعيين اخذوا على عاتقهم مسؤولية النظام كاملة في عظمته وفي عيوبه . ان البورجوازي الليبيرالي يرافع على أساس أنه غـــير مذنب : فليس هو الذي خلق العالم ، وهو يخضع كغيره لقوانين الاقتصاد العديمة الشفقة . لكن الثوريين السوفياتيين ، بعـــد بضع سنوات من التردد ، فهموا في النهاية ان الاشتراكية لا يمكن ان تفصل عن التخطيط . وعلاوة على ذلـــك ، كانت الاخطار الوشيكة وجهل الجماهير ترغم الحكومة الروسية على اختيار تخطيط استبدادي . ومن هنا وحد القادة انفسهم بالخطة عينهـــا ، فاستعارت الخطة وجوههم واصواتهم وايديهم ، واصبحت هي الحكومة الحقيقية . وهـذا الاستلاب للقيادة من قبل مشروعها ما كان إلا ليزيـد تفاقم التناقض الأول في المجتمع السوفياتي : اعني به تعارض مصالح البناء الاشتراكي البعيدة الأمد مـع المصالح المباشرة للطبقة الشغيلة . وبالفعـل ، ان البروليتاريا ، في الديموقراطية البورجوازية ، هي بحد ذاتها كما يقول ماركس : « تفسخ المجتمع بوصفها طبقـة خصوصية » . وفي هذا الوضع السلبي ، يكون هناك تلاؤم كبير بـــين ردود افعالها المباشرة وبين مهمتها التاريخية بحيث ان الجماهير هي التي تعطي مثال الموقف الجذري : اذ ان نتيجة مطالبها العفوية ، هي التعجيل بانحلال المجتمع الرأسمالي في الوقت نفسه الذي تعبر فيه عـن الصفة العميقة للبروليتاريين ، عـــن « سر وجودهم بالذات » . وعلى هذا فإن الطبقة المضطهَدة ذات « طابع شمولي نتيجة لآلامها الشاملة » ، ولا يجد ماركس بأساً من استعمال لفظـة « واجب » التي يستعيرها من عـلم الاخلاق ليصف بهـــا مطالب تقوم في أساسها على المصلحة المباشرة وبعبارة أخرى ، ان حاجات العامل في نظام رأسمالي ، تعبه وجوعه على سبيل المثال ، ذات طابع اشتراكي في عريها بالذات : فما دامت هذه الحاجات بنت الاستغلال فهي لا تستطيع ان تؤكد نفسها بدون ان تضع الاستغلال موضع اتهـــام ، ولا يمكن أن تلبى بدون إنقاص الربح وتعريض الرأسمال للخطر .

مكتبة الفكر الجديد

لكن الهم الاول للحكام في روسيا السوفياتية سينصب على توفير الشروط المادية التي ستسمح بحل المشكلات التي خلقتها الثورة . والحال ان ردود أفعال الجماهير العفوية احتفظت بطابعها السلبي بالنسبة الى حاجات الاقتصاد العامة . ان الحركة المطالبة للجماهير ، في فترة البناء التالية للثورة ، وفي الوقت الذي تريد فيه الدولة الاشتراكية ان تزود البلاد بتجهيز صناعي ، تهدد بإحباط كل مجهود : فالعامل قد يرفض العمل الشاق ، وقد يطالب بزيادة الأجر وبملابس واحذية وسياسة سكنية . وبكلمة واحدة ، تحمله مصلحته المباشرة على المطالبة بتطوير الصناعات الاستهلاكية في مجتمع سيهلك إذا لم يجهز نفسه اولاً بصناعة ثقيلة . ان مطالبته ، الشمولية في مجتمع بورجوازي ، تصبح خصوصية في مجتمع ما بعد الثورة ، مع ان وضعه لم يتغير . فصحيح انه ما عاد يرزح تحت نير الاستغلال لكن « التناقض بين طبيعته الانسانية ووجوده الحياتي » لم يتلاشَ : فالثورة ، مهما تكن ، لا تصنع المعجزات ، وهي ترث البؤس الذي أنتجه النظام القديم . وبديهي ان هذا النزاع لا يقتصر على التعارض بين الخطة التي هي شرط لازم للتقدم نحو الاشتراكية ، وبين الشغيل باعتباره قوة عمل ونظام حاجات . ان ذلك النزاع كامن في كل فرد : ذلك ان العامل يريد تحقيق الاشتراكية في الوقت نفسه الذي يريد فيه تلبية حاجاته . وباسم الاشتراكية يقبل بلجم حاجاته . ومن الممكن ان تطلب منه تضحيات جدية . لكن اهدافه تتعرض لنوع من انتقال : ففي ظل النظام الرأسمالي كان يهدف الى الاطاحة بالبورجوازية والى دكتاتورية البروليتاريا عبر مطالبه العينية ، فكانت اهدافه البعيدة تعطي الحاجات المباشرة **معناها** ، وكانت الحاجات المباشرة تعطي مضموناً **راهناً** لهذه الأهداف . كان العامل على اتفاق مع نفسه وكان القادة **ينظمون** حركة الجماهير في الوقت نفسه الذي يخضعون فيه لرقابتها : فما كانوا يستطيعون ان يقودوها إلا الى الامكنة التي تريد الذهاب إليها . وفي فترة البناء ما بعد الثوري ، تستند اشتراكية العامل الى اساس متين : تشريك وسائل الانتاج[1] . فهو يعرف ان

---

١ – حق بعد افلاس الاقتصاد الموجه في المجر وبولونيا ، اعتبرت البروليتاريا انها ربحت=

مكتبة الفكر الجديد

جهوده ستفيد عاجلاً او آجلاً الطبقة العاملة نفسها ، ومن خلالها ، بمجمل السكان. ولم يعد العمل يبدو له كقوة عدوة ، بل كرابطة عينية بين مختلف الاوساط الاجتماعية . إن التفهم العقلي للوضع ولحاجاته ، والرغبة في عدم تعريض المكتسبات للخطر ، والوفاء للمبادىء وللهدف : إن هذا كله يحمله على استعداد مسبق لضغط حاجاته ما استطاع الى ذلك سبيلاً ، ولاعتبار تعبه حدثاً خاصاً يعنيه هو وحده ، في حين انه كان يرى فيه ، في زمن الاستغلال البورجوازي ، تعبيراً عن تعب طبقته الشمولي . لكن هذا لا يمنع ألا تعود اهدافه الاشتراكية تتجلى له عبر الضرورة المعاشة التي تقوم عليها مطالبه : فحتى لو شاء ان يعمل اكثر ليحرر ابناءه من إكراه الحاجات ، فإنما بحاجات ابنه يربط تقدم التصنيع لا بحاجاته هو . انا لم اقل ان الطلاق كان سيكون واضحاً الى هذا الحد لو ان ثورة تشرين الأول اندلعت في انكلترا او في المانيا بدلاً من روسيا : ففي هذين البلدين المجهزين صناعياً من الاصل كان ايقاع التوظيفات وتوزيعها سيسيران في منحى آخر . لكن ما دام على الاتحاد السوفياتي **قبل كل شيء** ان يصنع نفسه ، فلا بد ان ينقضي زمن طويل قبل ان تكون النتيجة **المنظورة** لجهود كل فرد وتضحياته ارتفاعاً لمستوى الحياة . وفي بولونيا الجديدة يتجلى هذا التمزق الفعلي للشغيل في المرحلة الاولى من بناء الاشتراكية بشكل مثير للفضول في تعايش مجالس الادارة والاجهزة النقابية المنتخبة من العمال انفسهم في بعض المنشآت . ولقد سأل بورديه عما إذا لم يكن هناك خطر من ازدواجية السلطة في هذه الحال ، فأجابه العمال بالنفي : «ان لجنة الادارة ، وإن كانت منبثقة مباشرة منا ، مأخوذة بعجلة الحركة العامة للاقتصاد . انها تمثلنا في شمولنا القومي بوصفنا عمالاً اشتراكيين وتجازف من هنا بالذات بإساءة تقدير حاجاتنا العينية ومصالحنا المباشرة . ولهذا السبب كانت النقابات ضرورية » . وهكذا يقود التناقض

= شيئاً ما هي على استعداد لحمايته بالسلاح : فهي في كلا البلدين لم تعد النظر ولم تسمح لأحد بأن يعيد النظر في الاشتراكية . انما هي فضحت سياسة معينة (وفي المجر ادانت الحزب المسؤول عن هذه السياسة) ، لكنها ظلت وفيه للنظام .

الاشتراكي الى ضرورة وجود تمثيل مزدوج لفئة واحدة من العمال : فالتعارض الدائم بين لجنة الادارة وبين النقابة هو انعكاس على صعيد الموضوعية الساطعة للنزاع الذي يعيشه كل عامل على نحو غامض . ولعل هذا الانتقال الى صعيد الموضوعية قد يسمح بتجاوز التناقض : لكنه كان غير معقول في الاتحاد السوفياتي في الايام البطولية للخطط الخمسية الاولى . فقد كانت البروليتاريا تتضخم يومياً بكتلة من الفلاحين الأميين الذين كانت تنتزعهم ضرورات التمركز من الارياف . وكانت الحرب الاهلية قد صدعت صفوف النخبة العمالية . ولم تكن هذه الجماهير المختلطة ، المفتقرة الى التثقيف السياسي ، تعي مهامها ومستقبلها وعياً واضحاً . ولم يكن الصراع بين الشمولية والخصوصية موجوداً فيها إلا في حالة جنينية . وكانت تتميز قبل كل شيء بحاجاتها نظراً الى إرهاقها ونقص تغذيتها . وبالمقابل كان التناقض جلياً على مستوى القادة ، لكنه كان يظهر قبل كل شيء كمشكلة ينبغي حلها في إطار الخطة : فالحاجات البشرية تبدو عاملاً اولي الاهمية ، لكنه في الآن نفسه عامل سلبي يميل إلى عرقلة الانتاج ؛ ومن الانسانية ومن السياسة ان تقدم لهذه الحاجات اوسع التنازلات مع اخذ الحاجات الحيوية للاقتصاد السوفياتي بعين الاعتبار . في هذه المرحلة الاولى ، تفقد الجماهير القدرة على الإبانة بنفسها عن حاجاتها الخاصة . والخبراء هم الذين يحددون لها ما يناسبها . ولقد كانت الاطارات والجهاز في المرحلة السابقة للثورة خاضعة – مهما كانت استبدادية – لرقابة الطبقات الكادحة . اما بعد الثورة فإن التجربة الاشتراكية تفلت جزئياً من هذه الرقابة **الانسانية** ، وتتجه الى إحلال معايير تكنيكية محلها . ونظراً الى اضطرار القادة **الى فك ألغاز** التناقضات الموضوعية للحركة الاقتصادية ، فإنهم ينفصلون عن الشرط العمالي. فإذا بهم يتلخصون في المعرفة الخالصة للموضوعية وفي العمل الاستبدادي الذي يحل الصعوبات . وهكذا تصبح الجماهير موضوعاً سالباً ولاواعياً للتناقضات التاريخية بينما يتولى القادة تقرير سياسة التوظيفات ومعايير العمل ومستوى الحياة عن طريق « حساب عقلي » حقيقي .

مكتبة الفكر الجديد

وفي الوقت نفسه تقريباً يحدث التصنيع انقلاباً ديموغرافياً يتطلب نمواً في الانتاجية الزراعية . وهذه التبدلات تظهر على حين بغتة التناقضات التي تعارض بين العمال والقرويين : فأولئك لا يستطيعون التعويض عن نقص الأجور إلا بواسطة تخفيض الاسعار الزراعية وتحديدها بصورة تعسفية ، وهؤلاء يطالبون بأن يتناول التخفيض المنتجات المصنوعة . وتجد الحكومة نفسها مرغمة على تطبيق الجماعية في الارياف بالإكراه : فالمشاريع الكبيرة تعطي مردوداً افضل والرقابة عليها أيسر . وتدعم الطبقة العاملة بلا تحفظ سياسة العنف هذه التي تخدم مصالح مراكز التجمع المدينية . وعلاوة على ذلك ، يعتبر الشغيلة الصناعيون تأميم المنشآت اكبر نصر للبروليتاريا : وبالتالي يبدو لهم تطبيق الجماعية في الزراعة نتيجة ضرورية لتشريك الصناعة . وعلى العكس من ذلك الريفيون ، فهم لا يكفون عن مقاومة ما يعتبرونه مصادرة حتى لو كانوا يعملون في كولخوز مزدهر . والحقيقة ان هؤلاء وأولئك كانوا خاضعين لاستبداد الخطة غير المشروط : لكن هذا لا يمنع ان تكون مقتضيات البناء قد أوجدت شروط صراع طبقي حقيقي بين العمال والفلاحين ، وان يكون هذا الصراع قد استفحل حتى تحول الى حرب أهلية . وعمليات التهجير والاعدام ما كانت تستطيع حذف هذا الصراع : وبدءاً من عام ١٩٣٠ اضطر الحكام السوفياتيون الى ممارسة دكتاتورية حديدية باسم البروليتاريا على طبقة معادية من الفلاحين .

وقد ولدت الستالينية من هذا التناقض المزدوج . فالخطة أولاً تولد ادواتها الذاتية : فهي تنمي بيروقراطية خبراء وفنيين وإداريين كما نمت العقلنة في البلدان الرأسمالية القطاع الثالث [١] . ومن اللغو الزعم بأن هذه البيروقراطية **تستغل** البروليتاريا وبأنها **طبقة** وإلا فقدت الكلمات معناها . وليس من الصحيح كذلك ان همها الأوحد هو حماية مصالحها . ان أعضاءها يتقاضون أجوراً حسنة جداً لكن العمل يؤدي إلى اهترائهم بسرعة . وهم يعملون في اليوم مدة أطول مما

---

١ — بقدر ما تفصل الخطة الحكام عن الجماهير ، تنمي بالضرورة السلطة الوحيدة القادرة على تحقيقها : البوليس .

مكتبة الفكر الجديد

يعمل العمال. لقد ولدوا من الخطة، والخطة هي التي تبرر امتيازاتهم : فطموحهم الشخصي لا يتميز عن إخلاصهم للاشتراكية المفهومة على أنها تخطيط مجرد ، أي في النهاية تنمية متواصلة للإنتاج . إن هذا الإستلاب الشامل يسمح لهم بـــأن يعتبروا أنفسهم أدوات الشمولية والعمومية بقـــدر ما تتطلب الخطة ان تكون موضوعة من قبلهم . وبالمقابل فإن مطالب الجماهير هي في نظرهم ، وعلى الرغم من أخذهم إياها بعـــين الإعتبار ، حوادث خصوصية ذات طابع سلبي صرف . ومن هنا يكون وضعهم بالذات متناقضاً ، فصحيح انهم يمثلون الشمولية من حيث انهم يريدون جر البلاد بأسرها إلى بنـــاء الاشتراكية ، لكن من الصحيح ايضاً انهم يمثلون **خصوصية** صرفاً من حيث أن وظيفتهم قـــد فصلتهم عن الشعب الروسي وعن حياته العينية . والحزب يزعم انه يلعب دور الوسيط بين هؤلاء « المنظمين » وبين الجماهير . والواقع انـــه يصحح باستمرار البيروقراطية . فبالاضطهاد المستمر والتسريح و « التطهير » يجعلها دوماً لاهثة الانفاس ويحول بينها وبين ان تطرح ذاتها لذاتها . لكنه هو ، في حد ذاته ، التعبير السياسي عن التخطيط . انه يراقب ويحرض ويحث الجمـــاهير ، بوصفه خالقـــاً للاساطير ومتخصصاً في الدعاية ، ويستطيع ان يوحدها للحظة من الزمن في حركة شاملة ، لكنه ، شأنه شأن النقابات ، يعكس مصالحها المباشرة لا مطالبها ولا التيارات التي تحركها . إن الطبقات الكادحة تنغلق على ذاتهـــا وتسقط حياتها الواقعية في نوع من السرية : وهذا الابتعاد يولد ريبة متبادلة . وسوف يتساءل الحكام بعـــد مدة طويلة جداً (كانوا يطرحون على أنفسهم السؤال عام ١٩٥٤ حين كنت في موسكو) عن الطريقة الكفيلة بإثارة إهتمام الجماهير **كجماهير** بالانتـــاج . لكن جرت العادة ألا يكشف النقـــاب عن المشكلات إلا عندما تكون وسائل حلها متوفرة . والتقدم الفـــائق الذي حققه الاقتصاد السوفياتي يسمح اليوم بالتفكير بحلول واقعية : ان الحركة الثورية ، في النظام الرأسمالي ، تتميز بالوحدة العميقة بين مراميها البعيدة وأهدافها المباشرة ، لكن هـــذه الوحدة تحددها كسلبية ، وبالمقابل فإن تطور الإقتصاد السوفياتي عند درجة معينة من التشريك يستطيع

مكتبة الفكر الجديد

ان يسهل توحيد الأهداف الشعبية في عملية بناء إيجابية . لكن في الفترة التي تلت الثورة ، حلّ تناقض مستعصٍ محل الوحدة التي كانت متحققة في الفترة السابقة للثورة . وأصبح من الضروري بالتالي خلق نخبة عمالية ، ينعكس نمو الإنتاجية سريعاً بالنسبة اليها في تحسن مادي لمستوى حياتها ، وتعتبر مصلحتها المباشرة منوطة بتحقيق الخطة وتجاوزها . وهذا الربط بين الرفاه المباشر وبين البناء الاشتراكي مصطنع كل الاصطناع : فهو يُحقّق بواسطة السلطة وبالنسبة الى البعض فقط عن طريق اقتطاع نسبة معينة من فضل القيمة الشاغر . إن « ابطال العمل » هؤلاء يُضرب بهم المثال في كل مكان ، لكن المثال كاذب . فعددهم الصغير هو شرط رفاهيتهم بالذات . وبالمقابل فإن وجودهم وحده يكفي لرفع المستوى العام لمعايير العمل ، رغماً عن الجماهير أحياناً . إن ضرورات التشريك تدفع بالحكام الى اساءة تقرير القوة الثورية للبروليتاريا . فهم يؤثرون عليها من الخارج بالدعاية ، وبإكراه خفي ، وبالتحريض ، ويفضلون عليها على كل الاحوال الاستخانوفيين الذين ولدوا مثلهم من الخطة والذين يستلبهم مثلهم نمو الإنتاج. وتنتمي الجماهير من جانبها الى النظام ، لكنها لا تمحض البيروقراطية ثقتها . يقيناً ، ان عمال الصناعة هم وحدهم الذين يحتفظون ، بين بيروقراطية مستلبة وطبقة فلاحية مسحوقة ، بشيء من الاستقلال ، بل – في حدود محددة – بحق معين في النقد. لكن هذا لا يبدل شيئاً من حقيقة كونهم يشعرون بأنهم محكومون من الخارج . إن البروليتاريا لم تعد ذات التاريخ ، وهي لم تصبح بعد الهدف العيني للتشريك : انها تشعر بأنها **الموضوع الرئيسي** للعناية الادارية **والوسيلة الاساسية** للبناء الاشتراكي . ولهذا السبب على وجه التحديد تظل الاشتراكية « واجبها » الطبقي وتكف عن ان تكون واقعها . بيد ان البيروقراطية تشد على نفسها وتتابع بدون إبطاء توحيدها . وتناقضات الاشتراكية ، وبخاصة نزاع البروليتاريا والفلاحين ، ترغم الحكام على انعطافات مباغتة وعلى انحرافات متواصلة وعلى تصحيح الانحرافات السابقة . كما ان التخطيط يتعرض الى افدح الاخطار نتيجة وجود فئة يمينية وفئة تدعي

مكتبة الفكر الجديد

اليسارية : إذ ان كل تراجع تكتيكي أو تصلب مؤقت يُصور على انه انتصار سياسة ، أي انتصار فريق وبرنامج . والواقع ان الخطة ليست سوى فرضية خاضعة باستمرار لرقابة التجربة ، وينبغي ان تكون قابلة للتصحيح بدون أي موقف مسبق وبدلالة التجربة نفسها . والحاجة الى تصحيحات سريعة تتطلب تفاهماً تاماً بين المنظمين. وهذا التفاهم هو وحده الذي يستطيع ان يمنع الانحراف الآني من ان يطرح ذاته لذاته ومن ان يتحول الى اتجاه . وهو وحده الذي يسمح باستبعاد كل تدبير ضار بما في ذلك التدابير التي جرى تقريرها للتو وهو وحده الذي يجعل خضوع الحكام الدائم للموضوعية ممكناً . ومن جهة أخرى تتضح وتتحدد الاخطار الأجنبية. وكذلك ترفض كتلة الريفيين الصامتة المعادية الانضمام الى النظام . فيتوجب تشديد قبضة الاكراه . والحال ان أي زمرة دكتاتورية لا بد لها ان تمارس أولاً دكتاتوريتها على ذاتها . ومن هنا تصبح وحدة الحكام غير القابلة للانحلال ضرورة ملحة نتيجة الخطر الخارجي والمقاومات الداخلية . وزمرة « المنظمين » المفتقرة الى جذور عميقة وإلى دعم فعلي لن تحتفظ بهيبتها ولن تضمن السلامة القومية إلا اذا حققت أولاً من الداخل ، بنفسها وعلى نفسها ، سلامتها الخاصة . وترغمها الاحداث على السير في اندماجها حتى الحد الاقصى . لكنها لن تبلغ أبداً الحد الاقصى لأن وحدة الشخص البيولوجية والذهنية هي التي تقدم الصورة المثلى عنه . ومن هنا ينشأ هذا التناقض الغريب : فكل شخص يصبح مشبوهاً في نظر الآخرين وحتى في نظر نفسه لمجرد ان وحدته تحول دون التمثل المطلق ، لكن الشخص أيضاً هو وحده القادر على ان يصبح مثال عملية التوحيد الاجتماعية وعاملها وحدّها الأمثل . وفي الوقت الذي يعتبر فيه كل فرد نفسه لا أساسياً بالنسبة الى الزمرة منظوراً اليها في كليتها ، يتوجب ان يتجاوز تعدد البشر نفسه ويتجمع في الوحدة المقدسة لشخص أساسي . وعلى هذا فإن عبادة الشخصية هي قبل كل شيء عبادة الوحدة الاجتماعية في شخص إنسان معين . ووظيفة ستالين ليست تمثيل عدم قابلية الزمرة للانحلال ، بل ان يكون هو نفسه عدم قابلية الانحلال

مكتبة الفكر الجديد

هذه وان يبتدعها في الوقت نفسه . ولا يمكن لأحد ان يدهش من ظهور هذه الصنمية في نظام يفضح ويرفض المذهب الفردي البورجوازي ، لأنها نتيجة هذا الرفض بالضبط . ان كل بورجوازي يشبه سائر الآخرين من حيث انه يلح على تميزه الخاص وعلى قيمة شخصه بالذات . وهذه التوكيدات الوحشية يوازن بعضها بعضاً . والتبادلية الظاهرية بين العلاقات تجعل منها علاقات شمولية . فالبورجوازي يحترم في ذاته ويزعم انه يحترم لدى الآخرين القيمة المطلقة للشخص الإنساني . ومن هنا تسقط هذه العبادة في التجريد ، فطالما ان كل فرد مقدس ، اذن فلا أحد مقدس . وتحت ستار هذا الاحترام يتعلق التقييم الواقعي للذات وللغير بالمضمون الخصوصي لهذا الشكل الشمولي : أي بالطاقات والافعال والسمات . وهذه العناصر المادية يمكن ان تكون موضوع تسلسل رتبي ، لكن لا موضوع عبادة : فليس لأي منها قيمته المسبقة في حد ذاته . إذن فالمذهب الفردي يستبعد كل امكانية للصنمية . إن النجم السينمائي و « الوجه اللامع » و « الإنسان العظيم» وغيرهم من الادوات اللازمة للطقوس البورجوازية ، ليست مهمتهم إظهار التفوق المطلق للبعض على الجميع . بل هم يجسدون في نظر كل فرد امكانياته الذاتية . ونظراً الى المكارم التي تسبغ عليهم والى تبؤئهم ذروة المجد والقوة ، فإن وجودهم يفيد أكثر مما تفيد أمهر الدعايات : فهو يقنع الناس، بخلاف كل حقيقة ، بأن أرفع المقامات مفتوحة لأكثر المواطنين وضاعة . وهكذا تتوحد الوظيفة – باعتبارها قدرة مجردة – بالشخصية باعتبارها شكلاً خالصاً . وهذا الكيان يُجعل موضع عبادة ويُقدس . لكن الصفات **الواقعية** للفرد تسقط بالتالي خارجاً : ان كل فتاة جميلة بعض الشيء تحترم النجمة اللامعة في شخص بريجيت باردو لكنها تظل قانعة بأن صفات هذه الممثلة لا يمكن ان تبرر كل التبرير ارتفاعها . فهناك بين الفردية العينية وبين ما سأسميه بـ « الشخصية – الوظيفة » طلاق كبير بحيث ان الحظ وحده يمكن ان يقود الأولى الى ان تتلبس الثانية . والحال ان الحظ هو **لا شيء** . وهكذا فإن كل فنانة لامعة تعكس لجميع نساء فرنسا امكانياتهن الخاصة في ان يصرن

مكتبة الفكر الجديد

مقدسات[1] .

اما السوفياتي فإنه ، بإلحاقه شخصه بالزمرة ، يتجنب الرذائل الباطلة للمذهب الشخصاني البورجوازي . لكن الحاجة المتزايدة إلحاحاً للحفاظ على الوحدة وتدعيمها تسقط في الوقت نفسه واقعه الفردي في السرية . فهذا الواقع ، بالرغم من الدستور ، محروم من القانون الحامي ، ويظل مجرد عامل تردد ومصدراً ممكناً للشقاق وموضوع ريبة كامنة . والصراعات ، مهما بلغت فظاعتها ، تظل ضمن نطاق الموضوعية : انها حلول ومشاريع تتصارع فيما بينها ، لكن الطموح وتوكيد الذات يظلان ضامرين ولا يظهران ابداً للنور ، والخطة تغطيهما وتبتلعهما . ونظراً الى عجز الارادات الفردية عن التجلي ، فإنها لا تستطيع ان تتعرف نفسها ولا ان تتوازن في نظام يكون بمثابة ضمانة عامة شمولية ضد التضخم المرضي لعبادة الشخصية . والواقع ان ستالين لا يبدو للوهلة الاولى فرداً متفوقا على الآخرين ، بل يبدو شبيهاً بسائر الآخرين . وهو لا يمثل كرامة الشخص ، بل الاندماج الاجتماعي البالغ أقصى حدوده . وعدم قابلية الانحلال هذه — التي هي في الآن نفسه عدم قابلية الفرد للانحلال — تجعل منه عامل التوحيد الممكن الوحيد ، لأن الوحدة هي وحدها التي تستطيع ان توحد التعدد . انه يتحد بالاكراه الذي تمارسه الزمرة على اعضائها بالذات ، وسوف ينفذ الحكم الذي تصدره البيروقراطية على نفسها ، ويتبنى ويستبطن الريبة المبهمة الكامنة في المجتمع الثوري . انه سيرتاب في كل فرد باسم الجميع . لكن الزمرة لا ترتاب فيه . فلو كان في حظيرة البيروقراطية لما مثل سوى التعدد والانقسام . اما وانه يقف فوقها فإنه يعكس لها الوحدة الجماعية

---

١ — تلح الدعاية البورجوازية بمهارة كبيرة على أن الناس « العموميين » ، المحسودين على وظائفهم الاخاذة ، لهم حياة خاصة متواضعة وشبيهة بسائر الحيوات . انها تصورهم في بيوتهم ساهرين مع زوجاتهم في أيام الأعياد (سهرة متواضعة جداً بالطبع) ولاعبين مع أولادهم . وتروي قصص حياتهم ، وتظهرهم كما كانوا في ايام شبابهم ، طامحين ، يقرضون لجامهم قرضاً ، شبيهين بسائر الشباب ، الى ان تتاح لهم ، على حين غرة ، الفرصة ...! وهكذا فإن الزعيم ، الرجل العظيم ، النجم اللامع هو ، في تطوره كما في حياته الصميمية ، انا نفسي زائداً الحظ .

مكتبة الفكر الجديد

المستحيلة . ان يد ستالين اليمنى لا ترتاب في يده اليسرى كما ان اذنه اليسرى لا ترتاب في عينه اليمنى . ان ستالين لا يمكن ان يصبح جاسوس ستالين ولا ان يكف عن ان يكون على اتفاق مع ذاته . ان الزمرة لا يمكن ان تظل على قيد الحياة بدون ثقة . ولا يكفي ان نقول انها تضع ثقتها في ستالين ، بل يجب ان نقول أيضاً انها تستمد ثقتها من ثقة ستالين بنفسه . وهذه الثقة لا **يتمتع** بها أحد البتة باستثناء ستالين شخصياً . لكن كل واحد يعرف ان الجماعية البيروقراطية موجودة ، في الاعلى ، في ستالين ، تحت شكل اندماج أسمى ، وانها متصالحة مع نفسها . وهكذا فإن كل عضو من اعضاء البيروقراطية يكتشف ، وهو أبعد ما يكون عن ان يرى في ستالين تعظيماً للشخص الانساني ، اقول يكتشف في هذه الخلاصة المكثفة للجماعية النفيَ الجذري لشخصه الذاتي لصالح الوحدة . فالحركة الصاعدة التي تذهب من الزمرة الى ستالين تتميز اذن بالتدمير الشامل للفردية . وبالمقابل ، هناك حركة نازلة : فستالين لا يستطيع ان يحل مشكلة الاندماج إلا اذا دفع بالتسلسل الاجتماعي الى اقصى حدوده . فالمسؤولون ، من أعلى السلم الى أدناه ، يستمدون سلطتهم منه بصورة مباشرة أو غير مباشرة . وهكذا يولد **الشخص** من جديد . لكن هذا الشخص لا علاقة له البتة بالفرد البورجوازي . فهو لا يستمد وجوده من نظام شمولي ، بل من الشخص الوحيد الذي تضعه ضرورات الاندماج فوق الزمرة . وواقعه ، القابل للفسخ دوماً ، يأتيه من وظائفه بالذات . وفي علاقاته مع أقرانه يظل عامل تعدد ، وبالتالي موضوع ريبة . أما بالنسبة الى مرؤوسيه بالمقابل ، فهو أقنوم لستالين ، وبالتالي عامل توحيد وموضوع عبادة . وفي جميع درجات التسلسل نلقى التناقض نفسه . فالاستقلال الذاتي البيولوجي والذهني يبدو كعنصر تعدد وكرمز اندماج . والفرد الواحد يطرح نفسه كقوة تركيبية تجاه مرؤوسيه وينكر واقعه الحي في علاقاته مع رؤسائه . وعلى كل حال فإن ما يؤسس وما يدمر الشخص السوفياتي هي وحدة الزمرة المستحيلة . وستالين هو وحده وحدة خالصة : انه الفعل . وما يعبد فيه ليست سجاياه الشخصية ،

مكتبة الفكر الجديد

ولا صفته « كزعيم ملهم » كما هي حال هتلر في نظر النازيين . ان عبادته ليس فيها من الصوفية شيء : بل هي تتوجه الى وحدة واقعية باعتبارها قدرة على التوحيد . وهذه العبادة غير قابلة بالاصل للانفصال عن الارهـــاب : فستالين المجسد للربية الجماعية لا يستطيع ان يقضي على التعدد إلا اذا حاول تقليصه . وما المعادل السلبي لنظام التسلسل إلا ذلك الارهاب الدوار الذي تمـــارسه البيروقراطية على نفسها بيد ستالين والذي ينعكس في عمليـــات « التطهير » والنفي .

ان « الاشتراكية في بـــلد واحد » ، أو الستالينية ، لا تشكل اشتراكية منحرفة : انما هي طريق ملتوٍ فرضته عليها الظروف . وإيقاع وتطور هـذا البناء الدفاعي لا تحددهما اعتبارات الطاقات والحاجات السوفياتية وحدهـا ، بل تحددهما أيضاً علاقات الأتحاد السوفياتي مع العالم الرأسمالي ، وبكلمة واحدة ظروف خارجية عن التشريك ترغمه باستمرار على الخروج عن مبـــادئه . وتناقضات هذه المرحلة الأولى تسبب نزاعاً طبقياً بين العمال والفلاحين وتفصل الحكام عن الجماهير الكادحة . فيتوطد نظام استبدادي وبيروقراطي يضحى فيه بكل شيء لصالح الانتاجية . وهذا النظام يعكس تناقضاته في بُناه الفوقية الايديولوجية : فهو يقول انه ابن الماركسية – اللينينية ُ لكن هـــذا الغطاء لا يتقن اخفاء حكم تقييمي مزدوج على الانسان والاشتراكية . فمن جهـة أولى تدعي الدعاية وروايات « الواقعية الاشتراكية » الوردية تفاؤلاً منفراً : فكل شيء حسن في البلد الاشتراكي ، ولا وجود لنزاع إلا بين قوى المـاضي والقوى التي تبني المستقبل . ولا مفر من ان تنتصر الاخيرة . ان حركة التاريخ تستعيد وتنقذ كل شيء : الفشل ، الألم ، الموت . بل يبدو من المناسب لحين من الزمن كتابة روايات خالية من الصراع . وعلى كل حال ، يجهل البطل الايجـــابي المصاعب الداخلية والتناقضات . انه يساهم من جهته ، بلا تخاذل ولا اخطاء ، في بناء الاشتراكية ، ونموذجه هو الاستخانوفي الشاب . واذا كان جنديـاً فإنه يجهل الخوف . ان هذه القصائد الرعوية الصناعية والعسكرية تدعي الانتساب

مكتبة الفكر الجديد

الى الماركسية : فهي تصور لنا سعادة مجتمع بلا طبقات . هذا من جهة ، أما من الجهة الثانية فإن ممارسة الدكتاتورية وتناقضات البيروقراطية الداخلية تولد بالضرورة تشاؤماً لا يجرؤ على التصريح باسمه : فطالما ان القوة هي وسيلة الحكم ، فلا بد أن البشر أشرار . فأبطال العمل اولئك ، وكبار الموظفين المخلصين اولئك ، ومناضلو الحزب المستقيمون الاطهار اولئك ، تكفي نفحة واحدة لتطفىء أسطع فضائلها : فإذا بهم مناهضون للثورة ، جواسيس ، عملاء الرأسمالية . ان عادات النزاهة والاستقامة المتأصلة وثلاثين عاماً من الوفاء للحزب الشيوعي ، ان هذا كله وغيره لا يستطيع ان يحميهم من السقوط في التجربة . وإذا ما ابتعدوا عن الخط ، فسرعان ما يُكتشف انهم كانوا مذنبين **بالولادة** . والمآثر الكبيرة التي أسبغت عليهم كل تلك المكارم وكل تلك المدائح ، يُكتشف على حين غرة انها كانت جرائم : إذن فلا بد ان يكون المرء مستعداً لتبديل جميع احكامه ، ولاحتقاز الانسان الذي كان يرفعه الى السماء من غير ان يدهش من انخداعه به مدة طويلة من الزمن : ان من الواجب ، في هذا العالم المظلم والمختلط ، توكيد حقيقة اليوم وتشديد التوكيد عليها كلما كبر الاحتمال في ان تكون خطأً في الغد . والدولة ، بدلاً من ان تتلاشى ، يجب ان تتدعم : وسيأتي تلاشيها يوم يستبطن كل فرد بفضل تربية استبدادية الاكراهات التي تمارسها . وليس هو تحرر البشر الذي سيغني عن الحاجة إليها ، إنما هو تأهلهم الذاتي وتكيفهم الداخلي : انها لن تختفي ، بل ستنتقل الى القلوب ، وهذا الارتياب بالانسان يجد تعبيره في « الخطأ النظري » المشهور الذي ارتكبه ستالين ، أعني قوله ان الصراع الطبقي يحتدم في فترة بناء الاشتراكية . ولقد زعم البعض أنه كان يريد بذلك ماجناً تبرير « تطبيقه » . لماذا ؟ انه التطبيق الذي يولد هنا نظريته الخاصة . على كل ، ان هذا التشاؤم يتجلى ايضاً في السياسة الخارجية . فالاتحاد السوفياتي لا يريد الحرب لكنه يراها قادمة : ولقد كان مصيباً لان جيوش هتلر قد غزته عام ١٩٤١ . لكن هذه المخاوف المبررة تماماً ادت الى تبسيط فظ للمشكلات : فالعالم الرأسمالي ، العصي المنال ، غير

مكتبة الفكر الجديد

المعروف على حقيقته ، يصبح قوة هدامة خالصة تنشد بلا رحمة إبادة الشعب السوفياتي وتصفية الاشتراكية بقوة السلاح : وصحيح ان الكلام ما يزال يدور عن تناقضاته ، وعن قوى السلام التي تعارض في الغرب قوى الحرب ، لكنه كلام ما عاد احد يؤمن به ، وبخاصة بعد فشل الجبهة الشعبية : ذلك ان السياسة الوحيدة الموثوقة ، في حالة العزلة التي تواجهها روسيا الاشتراكية ، هي التسلح ، والتسلح باستمرار **كما لو ان الحرب واقعة غداً** : وعلى هذا فإن السياسة الخارجية والداخلية يجب ان تحدد نفسها على الدوام بدلالة أخطار الكارثة ، لا بدلالة فرص السلم . وإن على الاتحاد السوفياتي ، ما لم يلحق بالأمم الغربية ، ان يبقى وفياً للمبدأ التشاؤمي : إذا أردت السلم فأعدّ العدة للحرب[1] ، الشيء الذي يعني بالفرنسية : « الأسوأ مؤكد دوماً » .

* * *

أينبغي ان نطلق اسم الاشتراكية على هذا المسخ الدموي الذي يمزق نفسه بنفسه ؟ بصراحة أجيب : أجل . بل كانت هي الاشتراكية في مرحلتها الاولية ، ولم يكن هناك اشتراكية غيرها ، أللهم إلا في سماء افلاطون ، وكان لا بد من إرادتها هي على الضبط او عدم إرادة اي اشتراكية البتة . وفشل الاتحاد السوفياتي إنما جاءه عام ١٩٤٥ من انتصاره : فقد حصل في يالطا على منطقة نفوذ جعلته لأول مرة في وضع يمكنه معه ان يمارس هيمنته على مجموعة من الامم الاجنبية . كانت هذه الدولة القارية الكبيرة ، المسيطر عليها خوف التطويق ، المنغلقة على ذاتها ، المتكيسة ، قد بحثت حتى ذلك الحين عن الخلاص في فرط التسليح وفي توثيق روابطها الداخلية . ولم تكن قد شعرت بالحاجة قط ولا وجدت المناسبة لتزود نفسها بأعضاء جديدة تسمح لها بمد نفوذها : فالحرب نفسها قد ربحتها فوق أرضها بالذات عن طريق نوع من الانكماش . وكانت خارجة بريبة من عزلتها ، وقد خشي ستالين على جنوده من هذا الامتحان

---

١ - مثل سائر لاتيني . « ه.م »

مكتبة الفكر الجديد

الحاسم : الاحتكاك مع الغرب[1] . وكان الاتحاد السوفياتي يطلب صداقة اولئك الحلفاء الاضطراريين لكن اللازمين ، لكنهم ما كانوا يوحون إليه إلا بالريبة : فبعضهم كان عدو الامس ، ومعظمهم يقدم إليه صورة بنيته القديمة : فلاحون كثيرون وعمال قليلون . وفي رومانيا والمجر لم يكن هناك شيوعيون البتة . وبالاصل لم يكن ينظر الى العمال انفسهم ، سواء كانوا شيوعيين ام لم يكونوا ، بعين التقدير الكبير في غير بلاده : ففي أعوام ١٩٢٠ تمنى الروس الثورة العالمية بحرارة كبيرة باتوا معها لا يستطيعون إلا أن يكنّوا البغضاء للبروليتاريا الاوروبية نظراً الى تخلفها عن القيام بها . وفي البداية لم يكن للتوسع السوفياتي سوى فائدة عسكرية . وقد تكفل الجيش الاحمر بتحقيق الثورة في كل مكان : ولم يكن القصد آنذاك تصدير الاشتراكية بل خلق أنظمة شعبية تحمي نفسها بحمايتها الاتحاد السوفياتي . وهكذا تشكلت في كل مكان حكومات ائتلافية بقي فيها الشيوعيون في غالب الاحيان اقلية ولا يمارسون نفوذهم إلا سراً .

ومشروع مارشال هو الذي قلب كل شيء رأساً على عقب . فهذه المناورة الحربية كشفت النقاب عن حقيقة مقلقة : ان الولايات المتحدة الاميركية تستطيع ان تفزع فوراً لمساعدة تلك البلدان الفقيرة أو المخربة ، في حين ان الاتحاد السوفياتي لا يملك بعد وسيلة تجهيزها . وما كان للتضامن السياسي الذي تحقق بصعوبة وزن يذكر أمام التضامن الاقتصادي الذي كان يقترحه الغرب وكانت ترددات تشيكوسلوفاكيا قد اظهرت هشاشة النظام . وكانت الحكومة السوفياتية ، العاجزة عن الرد على التحدي ، مكرهة على التخلي عن حلفائها أو على ابقائهم بالقوة . وقد اختارت ان تشدد قبضتها ، وان تؤمن في كل مكان دكتاتورية الشيوعيين وان تدفع بجميع البلدان « الدائرة في فلكها » في طريق بناء الاشتراكية .

---

١ ـ قال لي السوفياتيون انه كان مقتنعاً بأنه ستقع حوادث فرار كثيرة . لكن الانسان لا يبرر دوماً شكوك المتشائمين : إذ لم يفر احد . ولقد عاد الجنود بتقنيات جديدة وافتراحات وانتقادات ، وبرؤية جديدة للعالم لكن لم تخطر لهم حتى ولا فكرة اعادة النظر في النظام .

مكتبة الفكر الجديد

ولقد كانت على أتم صواب : ففي ذلك الزمن كان ميزان القوة في غير صالح الاتحاد السوفياتي . وكانت عودة الاقطار الدائرة في فلكه الى النظام الرأسمالي تعني بالنسبة اليه انبعاث التطويق وتفاقمه : فقبل ١٩٣٩ كانت أوروبا الوسطى تفترس نفسها : ففي كل قطر كانت الاقليات العرقية ، التي هي في حالة هيجان مستمر ، تنذر دوماً بخطر الانفصال والحرب الأهلية . وكانت صراعات المصالح أو المنافسات أو الاحقاد القديمة تؤلب كل قطر على سائر الاقطار . كانت هذه المنطقة الفسيحة ، المكتظة بثروات غير مستغلة ، المشلولة بخلافاتها ، موضع رهان سلبي للصراع الدائر بين الامبريالية الالمانية وامبريالية الديموقراطيات الغربية . وكان يمكن ان يتعرض الاتحاد السوفياتي للتهديد عن طريقها لا من قبلها . اما بعد ١٩٤٥ فقد انقلب الموقف رأساً على عقب : فقد خلق سحق المانيا فراغاً في أوروبا، وأخذ السوفياتيون بأنفسهم بيد الأمم الصغيرة ، وكانت الحرب قد وضعت عقبات في وجه المنافسات العرقية والقومية . وفي كل بلد تمكنت سلطة قوية من تحقيق وحدة حقيقية لأول مرة في تاريخه : فلو افلتت الديموقراطيات الشعبية من الرقابة الروسية لأصبحت ، بعد ان تمونها الولايات المتحدة الاميركية وتجهزها وتسلحها ، خنادق متقدمة للعدو على الحدود السوفياتية . وكان هذا التهديد المباشر والفعال سيجعل موقف الاتحاد السوفياتي أصعب مما كان حتى في زمن المانيا الهتلرية . ولم يكن أحد يفكر جدياً في امكانية بقائها على الحياد . فالحياد منوط بالظروف التاريخية : إن ميزان القوى يميل اليوم الى التوازن ، فلا عجب اذن ان تطالب بعض الامم ، في بعض الظروف ، بوضع حيادي تضمنه جميع الدول ، ولا عجب ان تطلب الشعوب نهاية الحرب الباردة و « الكتل » . اما في ١٩٤٨ ، فكان الخطر يأتي من انعدام التوازن : إذ لم يكن في وسع أي دولة ان توفر على نفسها المجهود المجدب والمؤلم الذي سيؤدي ذات يوم الى تساوي الطاقات العسكرية . كان الجيش الاحمر في قلب أوروبا ، في برلين . وكانت اميركا قد خفضت تسليحها جزئياً لكنها كانت تزيد يومياً مخزونها من الاسلحة الذرية . كانت الولايات المتحدة الاميركية تخشى

مكتبة الفكر الجديد

من حرب كلاسيكية تحمل الجنود الروس حتى الى شطآن الاطلسي . وكان الاتحاد السوفياتي يخشى من الفناء في حرب جديدة ، مفتوحة لتطورات لا يمكن التنبؤ بهـا ، ويوجهها الفنيون على مسافـة بعيدة بأسلحة أمن الغرب لنفسه احتكارها فعلياً . كانت هذه الرهبنة المتبادلة تشطر العالم الى شطرين : فما كان أحد يتشبث بأحد حقلي القوة إلا ليتلقفه الحقل الآخر . وفي تلك الظروف بدا مشروع مارشال كتحدٍ : فتحت مظاهره السلمية كانت تكمن بدايـة سياسة « دحر » . ولما كان السوفياتيون لا يملكون آنذاك الوسيلة لمقاومة هذا التغلغل الاقتصادي في ميدانه بالذات ، فقد كانوا مكرهين على معارضته بالقوة. وراحوا يخسرون على جميع المستويات : فقد كشف الاتحاد السوفياتي عـن نقطة الضعف فيه ، وراحت دعاية حاذقة تتهمه حتى في الديموقراطيات الشعبية بأنـه يردّ بمنطق القوة على عرض الولايات المتحدة المتجرد وبأنـه يحرم البلدان المتخلفة من مساعدة هي أحوج ما تكون اليها . ولقد رأى الحكام الروس الفخ ولم يترددوا في تحمل مسؤولياتهم . ولقد كانت سياستهم ، في مبدئهـا ، عادلة : فبالضغط الذي مارسوه على حلفائهم انقذوا السلام وبناء الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي، **وامكنهم أيضاً الحفاظ على حظوظ التشريك في اوروبا الوسطى .**

لكن بشرط الشروع بهذا التشريك **لصالح** الامم الصغيرة ، واخذ أوضاعها وحاجاتها ومصادرها وبناها الاجتماعية ومقاوماتها الداخلية بعين الاعتبـار . ولقد كان من الضروري ومن الممكن تجنيبها تجارب الاتحاد السوفياتي الرهيبة . والحال ان هذا بالضبط ما لم يشأ الحكام الروس ان يفهموه . ترى هـل كانوا يعتقدون حقاً ، هم الذين يحق لهم ان يفخروا بتاريخهم المأساوي والعظيم ، بأن على الامم الاخرى ان تنسخ هذا التاريخ آلياً ليس إلا ؟ أم تراهم عموا عـن الفروق التي تفقأ العين وقد ضللتهم تشابهات سطحية ؟ لكن من الجلي الواضح مع ذلك ان السوفياتيين ، بالرغم من صمودهم الرائع ، مـا كانوا لينجحوا البتة في تحقيق « الاشتراكية في بـلد واحد » لولا ثروات روسيا الطبيعية الفائقة [1] .

---

١ – ولولا يد عاملة لا ينضب لها معين عملياً .

مكتبة الفكر الجديد

ويقيناً ، ان اوروبا الوسطى لا تفتقر الى الموارد ، لكن هذه الموارد موزعة بشكل غير متساوٍ بين الامم : وبالتالي كان البناء الاشتراكي يقتضي وحدة وثيقة بين الديموقراطيات الشعبية كافة ووضع خطط لانتاج بصورة مشتركة . وهذا ما أوضحه ناجي بصراحة كبيرة في خطابه في البرلمان عام ١٩٥٣ . فقد قال : « لا شيء يدعو الى التصنيع المبالغ فيه . وهذا المجهود لتحقيق استكفاء صناعي ، وبخاصة اذا لم تكن الموارد اللازمة من المواد الأولية متوفرة ، هو بمثابة تخلٍ عن الامكانيات الثرة التي يوفرها تبادل دولي كثيف للبضائع وقبل كل شيء التعاون الاقتصادي مع الاتحاد السوفياتي والديموقراطيات الشعبية والصين الشعبية . ان الجهود يجب ان تركز على الصناعة الخفيفة والغذائية مع تخفيض وتيرة تطور الصناعة الثقيلة تخفيضاً جدياً » . ولم يكن يقصد بذلك ، كما ظن البعض، ان يفضح أولوية الصناعة الثقيلة ، كما ان الانهيار الحالي للاقتصاديات المجرية والبولونية لا يضع بالضرورة هذا المبدأ موضع تساؤل . ان ما يسميه السوفياتيون « التنمية الأولوية لانتاج وسائل الانتاج » هو ضرورة نلاحظ وجودها أيضاً في الاقتصاد الرأسمالي باعتبار ان التقدم التكنيكي يرتد ، عند التحليل الاخير ، الى الهيمنة المتزايدة للآلة في صنع المنتجات . وكل ما هنالك ان هذه الضرورة — إلا في حالة بعض الدول المحظوظة جداً — تؤدي في الغرب الى تعزيز روابط التبعية بين الامم والى تكوين كارتلات وشبكات وسنديكات دولية . ويقيناً ، ان روح السعي وراء الربح تهيمن على كل شيء ، لكن توحيد الاقتصاديات المتكاملة ، في المرحلة الراهنة من التطور الصناعي ، مهمة تفرض نفسها في كل مكان ومهما يكن النظام . وناجي لا يريد ان يقول شيئاً آخر : فأولوية الصناعة الثقيلة في نظره لا يمكن ان تفرض نفسها إلا داخل مجموعة عضوية تلبي فيها موارد الأرض وباطن الارض متطلبات التصنيع . ولقد كان أحد معاونيه المباشرين أكثر صراحة أيضاً ، فقد قال : « لقد اخطأنا لأننا أسأنا تفسير سياسة التصنيع الاشتراكي » . وان تطوير الصناعات الخفيفة ، كما حاولته حكومة ناجي بين ١٩٥٣ و ١٩٥٥ ، لا يعني التخلي عن الموضوعة

مكتبة الفكر الجديد

« الماركسية – اللينينية » : إنمـــا يعني فقط التوكيد على استحالة تحقيق « الاشتراكية في بلد واحد » **في الجو** . ان جنون ستالين والستالينيين المذهـل هو إيمانهم بالانسجام المسبق أو دفعهم بالناس الى الإيمان بذلك : وبالفعل كيف نفسر ، اللهم الا اذا لجأنا الى العناية الالهية ، ان كل ديموقراطية شعبية هي في آن واحد نتاج معقد للتاريخ العام وعضوية اقتصادية تفرز من تلقاء ذاتها معظم شروط استقلالها الذاتي أو جميعها تقريباً ؟ واي زيغ دفع الى الإعتقاد بأن من واجب كل واحدة منها ان تسير بتصنيعها حتى النهاية لتقيم سيادتها على استكفاء ذاتي حقيقي ؟ ومن امكنه أن يتصور ان عرق الشغيلة ودمهم سيخصبان الارض ويبعثان الفحم أو الحديد حيث لا وجود لهما ؟

في البداية لم يكن أحد يقول بهـذا المذهب الغبي : بل منذ ١٩٤٥ ، على العكس ، اطلقت بعض دول أوروبا الوسطى فكرة اتحاد فيدرالي اقتصادي . ويمكننا التخمين بأن ستالين لم ينظر الى هذه الفكرة بعين الرضى : لكن يبدو مع ذلك انه لم يعارضها كلياً . وقد أجرى معه تيتو محادثات غريبة حول هـذا الموضوع . والواقع ان أشرس المقاومات جاءت من الدول البلقانيـة الصغيرة ، الغيورة دوماً على استقلالها الذاتي ، لكن بديهي ان الاتحاد الفيدرالي كان سيتم – مع تلك الدول أو بدونها – لو ان الكرملين قرره . وعلى كل حال ، قضى تحدي مارشال دفعة واحدة على الفرص الضعيفة للاتحاد الفيدرالي . فقد انتصر موقف الريبة المسبق . ولم يعد يكفي سلخ هذه الدول عن هيمنة الغرب ، بل أصبح من الواجب عزلها وتقسيمها للسيادة عليها . لقد كانت « الاشتراكية في بلد واحد » مذهباً ومشروعاً ضخماً لأمة مفصولة عن العالم . وحتى تفصل كل ديموقراطية شعبية عن العالم المحيط بهـــا لُقنت كمبدأ وفرضت عليها كمهمة « الاشتراكية في بلد واحد » . ولم تكفّ الستالينية عن استغـلال الحزازات السياسية بين الدول الدائرة في فلكها . وحتى تخفي عنها ان اقتصادياتهـا يمكن ان تصبح متكاملة في بعض القطاعات على الاقل ، ارغمتها على ان تكوّن لنفسها اقتصاديات متشابهة التركيب بصورة مصطنعة . وبمساعدة الاتحـاد السوفياتي

مكتبة الفكر الجديد

– خبراء واسواق ومعونة مادية في حال الضرورة العاجلة – ستنطلق كل منها في التصنيع المشتط وفي التطبيق المتسرع لمبدأ الجماعية في القطاع الزراعي . وكان من المتوقع أن تكون لهذه الفورة المباغتة نتيجة أخرى : فقد كان كل الظن ان سكان تلك البلاد ، المستغرقين في عمل بناء جبار ، سينسون مارشال وانجازاته . وما التشريك على الطريقة الروسية سوى ردهم الفخور على عروض الاجنبي : اننا لسنا بحاجة الى أحد ، اننا نعمل لنكفي انفسنا . لقد كان الاتحاد السوفياتي المرشد الأمين، وكان يقود اشقاءه الاصغر سنا منه نحو الوفرة: وكبير عنايته وعطفه ينسيهم ضعف معونته المادية . وقد سلمه الحكام ، في كل ديموقراطية شعبية، « زمام أمورهم » : فمن الواجب ستر الدكتاتورية السوفياتية بإنعاش الشوفينية . وركزت اللهجة على المجهود الرائع للشعب الذي يكسب استقلاله بعرق جبينه . وقد اراد البعض ان يعطيه رموزاً حسية لانتصاراته : فبنى راكوزي في بودابست قطار مترو غصباً عن رأي الخبراء، وشاد ستالينغاروس، وهي مدينة خارقة ميتة ، ورشة هائلة لا يعمل فيها أحد . وأراد الستالينيون البولونيون ان يزودوا البلاد بصناعة سيارات . وبكلمة واحدة ، جرت محاولة لإقامة نزعة قومية جديدة على اساس عظمة « الانجازات » . وتبنى كل قطر ، من خلال انعزاله التام عن جيرانه ، بنية المجتمع السوفياتي المنكمشة ، وستر استعباده وبؤسه ببنائه منشآت ضخمة خادعة للنظر .

وقد تمّ بلوغ الهدف بسرعة : كانت الحكومات تتبادل البرقيات ، وكان في مقدورها ان تتبادل زيارات اللياقة ، وكان في استطاعة الامم تبادل البعثات ، لكن العلاقات الحقيقية بين براغ ووارسو ، بين بلغراد وبودابست ، كانت تمر بالضرورة بموسكو . وبذلك نجد أنفسنا من جديد تجاه مبدأ التسلسل الستاليني : فالمرؤوسون لا يتصلون فيما بينهم إلا بواسطة رئيسهم . وذلكم كان خطأ ستالين الفادح : فبدلاً من ان يشد الاتحاد السوفياتي حلفاءه إليه بتضامن فعلي وإيجابي ، فضل ان يخلق مسوخاً لا تستطيع ان تعيش بدونه .

مكتبة الفكر الجديد

وفي الوقت الذي كانت تُنعش فيه النزعة القومية ، كانت الريبة الستالينية تجهد في إذلالها. ولم يكن يبدو على أحد بالفعل انه يدرك الهوة السحيقة التي تفصل هذه الثورات المصطنعة عن ثورة اوكتوبر . فقد كانت الثورة الاخيرة نتاجاً اصيلاً . ومهما كانت فيما بعد تناقضاتها ، ومهما كان المجتمع المتسلسل الذي ولدته هذه التناقضات ، فقد كانت منبثقة من تحت ، وكانت تحملها الجماهير ، في البداية على الاقل . وبالمقابل كانت الاشتراكية بالنسبة الى الديموقراطيات الشعبية بضاعة مستوردة ، وكانت الثورة مصنوعة من فوق ، وكان الجيش الاحمر قد فرض زعماءها ، وكان معظمهم من موسكو . والحكومة الوحيدة التي كانت تتمتع بالثقة الشعبية ، حكومة تيتو ، استمدت من دعم الجماهير القوة لمعارضة مطالب الاتحاد السوفياتي . ونحن نعرف النتيجة : فقد طلبت الريبة الستالينية ، بعد ان تعززت ، تصفية « الشيوعيين القوميين » اينما كان . والحال ان هؤلاء هم وحدهم الذين حاربوا في المقاومة ، ووحدهم الذين احتفظوا بشيء من النفوذ الشخصي على الشغيلة . اما الرجال الذين بقوا ، فقد كانوا ، بغضّ النظر عن درجة إخلاصهم للاشتراكية ، يستمدون قوتهم من دعم الاجنبي . ولقد ذكرت كيف انفصلت البيروقراطية السوفياتية عن الجماهير . لكني بينت ايضاً ان هذا الانفصال كان نتيجة تناقضات محتمة واخطار بالغة . اما في الديموقراطيات الشعبية ، فإن الحل المفاجىء للجبهات الائتلافية و « ستلنة » الاحزاب الشيوعية قد أوجدا هذا الانفصال **مسبقاً** واساءا الى سمعة السياسة الجديدة في الوقت الذي لم تكن الفرصة قد سنحت فيه بعد للاعداد لها بالصورة الواجبة . وقد استصوبت هذه الحكومات التي انجبتها الحرب الباردة سياسة التغني بالنزعة القومية لفظاً في الوقت الذي كان فيه محض وجودها يعتبر بمثابة إذلال فعلي لها . ولم تفهم انها تكوّن جيشاً سينقلب عليها عاجلاً او آجلاً . وقد اشتط راكوزي في غيه اكثر ايضاً : فقد ايقظ لاسامية المجرمين بالرغم من انه اسرائيلي ومحاط بإسرائيليين .

وغرق كل شيء في التجريد : وميرلو – بونتي على صواب عندما يشير في

مكتبة الفكر الجديد

هـذا الصدد الى فشل التخطيط « الاداري النزعـــة » الذي أدى الى مشاريع « لاواقعية » . لكنه يخطىء إذ يعمم هذه الادانة على الخطط الموضوعة للاتحاد السوفياتي من قبـل خبراء سوفييت هم اكثر الناس إلمامـاً بمتطلبات اقتصادهم القومي وامكانياته . يقيناً ، لم يتم الوصول دوماً إلى النتائج المأمولة ، لكن هذه المشاريع ، مهما تكن تعسفية و « ارادية النزعـة » ، مع هامش الخطأ الذي تنطوي عليه ، تظل محتفظة بقيمتها او على الاقل قابلة للتصحيح طالمـا انهـا **قومية** . اما في الديموقراطيات الشعبية فإن الخطط ، الموضوعة من قبـل خبراء روس ، لم تكن تأخذ بعين الاعتبار البتة شروط الانتاج الواقعية . ولم يكن في مقدور أحد ان يعيد النظر فيها بعد ان يكتمل وضعها . والحال ان هذه الخطط لم تكن غير أحلام : لقد كانت تطلب ، بالتأكيد، **اكثر مما ينبغي وبسرعة اكبر مما ينبغي** ، لكنها كانت تطلب **شيئاً آخر** . شيئاً غير الذي يمكن ان يقدم لها . كانت تفرض على القطر اقتصاداً مصطنعاً لا يستطيع احتماله الاقتصاد الواقعي . وحتى تظل هذه البنى الاجنبية قائمـــة بالقوة ، كانت الاقتطاعات من الدخل القومي تزداد يومياً : ففي المجر، واثناء تنفيذ الخطة بين ١٩٥١ و ١٩٥٣ لم تكفّ عن النمو نسبة التوظيفات في الصناعة الثقيلة (مضافاً إليها استهلاك أجهزة الدولة واستهلاك الجهاز الاداري) : فقد كانت محددة في البدايـة بـ ٢٨٪ من الدخل القومي ، وبعد عامين ابتلعت نصفه . بل هناك مـــا هو أدهى : فحين كانت المطالب السوفياتية تتبدل كان يعاد النظر جزئياً بهدف تلبيتها ، في التوظيفات من غير ان يعـــاد النظر في مجمل التخطيط : وبالنتيجة كانت بعض القطاعات تضمر على حين غرة بينما كان غيرهـــا يتضخم تضخما مرضياً . لقـــد كانت الاقتصاديات تتأكلها قرحات .

والنتائج معروفة من الجميع : فقد فشلت التعاونيات في كل مكان بنتيجة عداء الريفيين . ولم تكن الحكومات واثقة بما فيه الكفاية بقواتهـــا لتلجأ الى استخدام القوة . ذلك ان الحضور المنظور للمحتل كان يسمم كل شيء : فهـــل

مكتبة الفكر الجديد

كان الجنود المجريون سيطلقون النار على الفلاحين المجريين ليرغموهم على اتبـــاع تعليمات الاجنبي؟ وهل كان من الممكن اللجوء الى القوات الروسية من غير ان يؤدي ذلك الى تفاقم الوضع ؟ لقد كانت سلطة الدكتاتوريين الفعلية اقل متانـة مما كان يبـدو للوهلة الأولى : فقـــد كان في مقدورهم ان يشنقوا بيروقراطيين لكنهم ما كانوا يتوصلون الى كسب الفلاحـــين الى جانبهم ولا حتى الى تثبيت العمال في مكان العمل . وعلى كل ، كان المزارعون يعرفون التأريـــخ المأساوي للجماعية الزراعية السوفياتية : وغني عن البيان ان الصحافـة البورجوازية أو الفاشية في فترة ما قبل الحرب قد وجدت جـل مناها في تزويدهم بالمعلومات . ومـــا كانوا يحاولون ان يعارضوا بالقوة تكوين التعاونيات : لكن مقاومتهـم السلبية اجهزت في النهاية على النظام . فقد كان مستوى الحياة يأسن عندمـا لا ينخفض . وفي العديد من القطاعات الصناعية لم تدرك الإنتاجية ، بالرغـــم من المجهود الفائق الذي كان يفرض على العمال ، مستواها في ما قبـل الحرب . ولم تكن الاهداف المحددة من قبـــل الخطة تُدرَك إلا عـــلى الورق . وكانت كل ديموقراطية شعبية مزدوجة : فهناك المجتمع – السراب والمجتمع الواقعي . امـا المجتمع – السراب فكان الاتحاد السوفياتي بصورة مصغرة : كانت بيروقراطية تملى بالاحصائيات تقود بيد من حديد الجماهير الكادحة نحـو الاشتراكية ، ومن القمة الى القاعدة كان النظام التسلسلي يقمع الافراد بعض الشيء لكنه كان يدعمهم . اما المجتمع الواقعي فكان دوراناً عـلى النفس لاقتصاد وبيروقراطية طاش صوابها معـــاً ، ثم الفراغ ، ثم مزيجـــاً عجيباً من الاكراه والفوضى عـــلى مستوى الجماهير[1] . كان النظام ما يزال صامداً لأنـــه لم يكن احد يعرف الحقيقة كامـــلة : فقد كان العمال والفنيون يرون فداحة الأخطاء

---

١ – بلغ البؤس حداً بات معه كثيرون يعملون في العمل « الاسود » ، أي يشغلون وظيفة اضافية واحياناً وظيفتين . وينجم عن ذلك ان الاقتصاد الواقعي (القائم جزئيـــاً على العمل السري) مختلف ، في بنيته بالذات، عن الاقتصاد المدول . والجدير بالذكر ان الروائي دودنزيف ينوه بالواقعة نفسها في موسكو : عمال لا يتلقون اجراً كافياً ينشئون تعاونية سرية .

مكتبة الفكر الجديد

المرتكبة في قطاعهم لكنهم ما كانوا يستطعون ان يدركوا ان الحالة نفسها سائدة في سائر القطاعات . ولم يكن الحكام يتبينون مدى الفاجعة : فقد كان يُكذب عليهم وكانوا يكذبون على ستالين . ومضى ستالين والمكتب السياسي في ضلالهما : فخاصة التشاؤم ان تؤكد نتائجه . وبعد عملية مارشال حكم القادة السوفييت بأن فرص الحرب اكبر من فرص السلام . وكانت النتيجة المنطقية لهذا التقدير العودة الى التسلح وكذلك الى سياسة الكتل : وعبر هذا المنظور المبرر للريبة ، كان طبيعياً معاملة أولئك الحلفاء الأجانب الذين اسرعوا يرهفون السمع عام ١٩٤٨ لنداء الاطلسي الساحر على انهم مشتبه فيهم . لقد قيل ان الاتحاد السوفياتي **استعمر** البلدان الدائرة في فلكه : وهذا غير صحيح . فالاستعمار نظام اقتصادي محدد لا تنطبق أوصافه على الحالة المدروسة هنا : فأين رأينا معمرين يرغمون المستعمَرين على تصنيع بلادهم ؟ ان الدولة المتروبول تصدر منتجات مصنوعة لتستورد منتجات خاماً او مواداً غذائية . والحال ان طبيعة المبادلات بين الاتحاد السوفياتي والديموقراطيات الشعبية متنوعة تنوعاً كبيراً . فقد تشتري روسيا منتجات مستخرجة من المناجم وتدفع مقابلها حبوباً (الفحم البولوني مقابل القمح السوفياتي) . وقد تنمي (في تشيكوسلوفاكيا وحتى في المجر) صناعات متممة لصناعتها : ويحدث لها في هذه الحالة ان تسلم منتجات خامة مقابل استيرادها ، أي أن تلعب دور البلد المتخلف[1] . وفي حالات أخرى يتناول التبادل سلعاً مصنوعة . سيقال : بلا شك ، لكن هناك **استغلالاً** . وهذا غير صحيح ايضاً . أو على الأقل ليست هذه هي النقطة الجوهرية . يقيناً ، لقد سعى الحكام السوفييت دوماً الى تحقيق اتفاقيات تكون

---

١ – يلاحظ فيجتو مصيباً : « بعكس ما يميز بوجه عام العلاقات بين الدول العالية التصنيع والبلدان المستعمرة او نصف المستعمرة التي تمون الأولى بالمواد الأولية بأسعار بخسة ، نلاحظ هنا (في المجر) ان دولة كبيرة متخلفة نسبياً تتمتع بمركز مهيمن تجاه بلد تستطيع طاقته الصناعية ان تكل طاقتها . ان ضعف الاتحاد السوفياتي ، اذا ما قورن بحاجاته الاقتصادية والعسكرية ، يفسر ايضاً عدم منعه المجر من تطوير صناعتها الثقيلة ، بل دفعه بها على العكس الى الشطط في في تنميتها ... » . (المأساة المجرية – ص ١٠٨) .

مكتبة الفكر الجديد

في صالحهم . وقد وضعوا يدهم بلا تكليف على اليورانيوم المجري . وحين كانوا يخلقون شركات مختلطة ، كانوا يدبرون أمرهم حتى يضمنوا لأنفسهم هامشاً اضافياً من الأرباح . كما انه لا مجال للشك في انهم كانوا يشترون الفحم البولوني دون سعره . لكن هنا ايضاً وقعت مبالغة او أسيء طرح المشكلة : فما يأخذه كثيرون من الشيوعيين على الروس في الديموقراطيات الشعبية ليس شراؤهم منتجاتها دون الاسعار العالمية (رغم ان هذا قد حدث في بعض الأحايين) ، بل على العكس اتخاذهم من الأسعار العالمية اساساً لحساباتهم ، الشيء الذي كانت نتيجته المباشرة في غير صالح الأمة المتخلفة . وخلاصة القول انهم يأخذون على هؤلاء الاشتراكيين سلوكهم كرأسماليين لا انهاكهم في استغلال فظيع تحمر له وجوه الرأسماليين أنفسهم على حد ما يقال . وعلى كل ، ليس هذا ما دمر اقتصاديات البلدان التابعة . وينبغي ألا ننسى ان هذا الاستغلال الجزئي كان يعوض في الحالات العاجلة بمساعدة مادية . كلا ، لم يستعمر الاتحاد السوفياتي ولم يستغل بصورة منهجية الديموقراطيات الشعبية . والشيء الصحيح هو انه **اضطهدها** طوال ثمانية أعوام . كان في وسعه ان يحاول كسب صداقتها ، لكنه آثر الإكراه عن عمد ، مدفوعاً بالتشاؤم والازدراء . ان هذه الدولة الكبيرة المتوحدة لم تعرف ولم تشأ ان تحطم قوقعة روتينها وريبتها لتتلاءم مع وضعها الجديد ولتتولى « قيادة » اوروبا الوسطى . ولقد ذكرت ان للريبة ثمنها : فأولئك الحلفاء المضطهَدون ، المفلسون ، المعاملون معاملة المشتبه فيهم ، قد أصبحوا اكثر فأكثر حلفاء لا يؤمن جانبهم . ان القوة هي برهان نفسها . وفي ١٩٤٨ وُضع الرهان عليها . وهي وحدها التي تضمن اليوم للروس وفاء المجر .

بيد ان الجروح ، في زمن ستالين ، ظلت محجوبة . ولا يمكن لأحد ان ينتابه الشك في ان أحداث بولونيا والمجر هي النتيجة المباشرة لما يسمى هنا **باللاستلنة** . لاستلنة ، دمقرطة : ان هذا الانقلاب الخارق للعادة ، مهما كان الاسم الذي يطلق عليه ، لم يأت من ضغط الجماهير . ولا من تدخل الجيش . فالنظام الستاليني لم يكف ، منذ ولادته ، عن تدمير نفسه بمقدار ما كان يبني ،

مكتبة الفكر الجديد

انسجاماً مع وظيفته ، مجتمعاً مختلفاً كل الاختلاف عن المجتمع الذي أنتجه : ففي سنوات ستالين الاخيرة كانت الستالينية قد اوجدت جميع ادوات تصفيتها . كانت عبارة عن فضلة ، متناقضة تناقضاً عميقاً مع البنية الواقعية للمجتمع الجديد . كان الاتحاد السوفياتي قد اكتسب طاقة عسكرية ضخمة : فقد كان الجيش الاحمر قوياً بما فيه الكفاية لبلوغ الاطلسي في ثمانٍ واربعين ساعة . وكانت صناعة التسلح تصنع قنابل ذرية . لم يكن مؤكداً ان الروس سينتصرون في معركة عالميه ، لكن كان واضحاً منذ ذلك الحين ان مهاجمتهم غير ممكنة بدون وضع الجنس البشري على حافة الفناء الشامل . وفي الوقت نفسه – وبالرغم من ريبة ستالين **المنهجية** – ولدت دولة شيوعية كبيرة ، صنعت ثورتها بنفسها ، دونما معونة احد ، ووحدت من البداية – بخلاف الديموقراطيات الشعبية – مطالب البناء الاشتراكي ومطالب المصلحة القومية بصورة غير قابلة للفكاك[1] : ان صين ماو قد انقذت الاتحاد السوفياتي من التطويق . وقليل ان نقول ، كما فعل البعض ، ان هذه الشروط الجديدة تسمح بسياسة انفراج : إنما ينبغي أن نقول انها كانت تتطلب مثل هذه السياسة . فعندما كان الاتحاد السوفياتي وحيداً ، مطارداً ، قابلاً للدمار ، كان في وسعه ان يكون عنيفاً من غير ان يكف عن توكيد رغبته في السلام : فميزان القوى كان في غير صالحه ، وكان تصلب دبلوماسيته وعدوانيتها ، إذا امكنني القول ، تفرضها اعتبارات دفاعية . وكانت دونيته النسبية تحتم عليه – ظاهرياً على الأقل – رفض التنازلات كافة . وكان هذا الموقف السلبي يتجاوب كل التجاوب مع « الانكماش » الستاليني . لكن حين أعلن ستالين ان الصناعة السوفياتية تصنع آلات شاطرة للذرات ، وحين اعلن ماو الجمهورية الصينية ، اصبح هذا الموقف « الانكماشي » خطراً : فعلاقات القوى راحت تميل الى التعادل ، والعدوانية الستالينية تبدل معناها على الرغم منها واصبحت موضوعياً هجومية . وكانت حرب كورية بمثابة رائز : وواضح ان الاتحاد السوفياتي ليس

---

١ – كم من صينيين مقيمين في ما وراء البحار أيدوا الصين الشعبية بدافع القومية !

مكتبة الفكر الجديد

مسؤولاً عنها وان تلك العمليات الموضعية تشكل مرحلة في النزاع الخطير هـــو الآخر آنذاك بين الصين الشعبية وبين اميركا ماك آرثر وضغط رجال الأعمال من وراء الكواليس[1] . لكن الحكومة الاميركية ارتأت رأياً آخر في الموضوع . ونحن نعرف الحملات الصحفية التي اثارت بها هلع الجمهور وكيف اهاجت النزعة المعادية للسوفييت . يبقى ان « يقظـــة » الولايات المتحدة الاميركية وتصلب سياستها والمكارثية وقرار اعادة تسليح المانيا تشهد على ذعر مباغت : فالاتحاد السوفياتي قد اصبح قوياً بما فيه الكفاية ليسفر النقاب عن امبريالته ، وعصابـة دعاة الحرب قـــد نمت نمواً كبيراً في الولايات المتحدة الاميركية . وكان على الكرملين إمـــا ان يسلم امره وينقاد الى الحرب وإما ان يتخذ موقفاً اكثر انسجاماً مع قوته الجديدة والرهيبة . وفي الآن نفسه كان انتصار الشيوعيين الصينيين يخرج الاتحاد السوفياتي من عزلته ، لكنه كان يضعه بالمقـابل في وضع يلزمه بإقامة علاقات اشتراكية حقيقية **مع بلد واحد على الأقل** . لم يكن هناك مجال لإخضاع او استعباد أمـــة من ستمئة مليون نسمة . بيد ان الصين كانت متخلفة ، وكان بين الاقتصادين تبـــاين كبير يهدد بجر السوفييت إلى منزلق الاستعمار النصفي : كان لا بد من الاختيـار بين استغلال ، ولو خفي ، لم يكن الاقتصاد الصيني سيتحمله ، وبين التطبيق الاشتراكي حقـاً للمساعدة المتجردة . وكانت سياسة العطاء هذه هي وحدها التي تسمح للاتحاد السوفياتي بالحفـاظ على

---

١ – جاء العدوان من كوريا الشمالية ، والتحدي من سينغمان ري ، والمسؤولية العميقة تقع بكاملها على ماك آرثر . فقد فعل كل شيء للايقاع بالصين في الفخ الكوري . امـــا المتنبئون المجردون الذين يعتبرون العالم رقعـــة شطرنج والذين يتصورون ستالين وهو يهم بالامساك بالبيدق الكوري الشمالي ليضعه بشراسة في بيت «كورية الجنوبية» فإنني اذكرهم بأن الكوريين الشماليين قد حكموا بالموت واعدموا القادة الذين كانوا في الحكم حين اندلع النزاع . ولم يكن في وسع الصين والاتحاد السوفياتي ، وقد وضعا أمام الأمر الواقع ، ان يردا بطريقة واحدة : فالصين مـا كانت تستطيع ان تسيء الى حظوتها الفتية بسماحها بسحق شعب آسيوي عند ثغورها ، وكانت قـــد دفعت الثمن لتعرف ان كورية كانت ويمكن ان تكون الطريق الكلاسيكي للغزو الياباني ؛ امـا الاتحاد السوفياتي فكان الأمر قد أسقط في يده : كان عليه إمـــا ان ينساق تحت خطر حرب عالمية وإما ان يخسر آسيا بتدخل اخرق .

مكتبة الفكر الجديد

هيمنته على العالم الاشتراكي . وينبغي ان نضيف ايضاً بأنه كان لا بد من ان تظل هذه الهيمنة محدودة جداً في الصين . ولم يكن الحكام السوفياتيون يجهلون ذلك: فعن طريق الصين وعن طريقها وحدها كانوا يستطيعون ان يمارسوا تأثيرهم على العالم الآسيوي لكن حظوة الجمهورية الصينية غير قابلة في الوقت نفسه للفصل عن استقلالها وسيادتها. وبدءاً من ١٩٤٩ وجد الاتحاد السوفياتي نفسه مكرهاً ، لأول مرة ، على إقامة صلاته مع امة اجنبية على اساس الثقة والكرم[١] .

ولم تكف بنيته المجتمع السوفياتي عن التبدل في الآن نفسه . فلم يعد الحصار الاقتصادي امراً يخشى منه ، وأصبح الاتحاد السوفياتي الدولة الصناعية الثانية في العالم . كانت الأولوية المعطاة للصناعة الثقيلة وللتسلح قد عرقلت ارتفاع مستوى الحياة لكنها لم توقفه . وكان هذا الارتفاع يخفف من حدة التناقص الأساسي بين مطالب التصنيع وحاجات العامل . وكان مستوى الثقافة قد ارتفع بشكل محسوس : فالعمال الشبان ، المثقفون ، الواعون ، ما عادت لهم علاقة بجماهير ١٩٢٦ الأمية . وكان في مقدورهم ان يتوقعوا وان يقدموا مساهمتهم لتخطيط عقلي ومفسر بوضوح . وبالمقابل كانوا يتحملون بصعوبة استبداد الصغار من أمثال ستالين في المعمل أو الورشة ، وبصعوبة أكبر أيضاً وجود نخبة استخانوفية تتعارض مصالحها مع مصالحهم . ولم يكن الجيل الريفي الجديد قد عرف المجازر وعمليات التهجير التي جرت قبل الحرب . وكان قد بدأ يحس ، بالمقابل ، بمحاسن استخدام الآلات الحديثة : وهذا ما كان يقربه شيئاً فشيئاً من النظام . وعلى رأس مصانع الدولة ومحطاتها كان جيل من الفنيين ، صلب وطموح وذو تكوين متين ، يقيم في العمل علاقات مفتوحة مع الفلاحين والعمال . لقد تكلم البعض عن « التكنوقراطية » : وهذا لغو . لكن لا شك في ان المرحلة الثانية من البناء الاشتراكي تتميز بأهمية التكنيك المتزايدة وبأن الاختصاصيين يستمدون الحماية والقيمة من وظائفهم . وهذه الاهمية الجديدة المرتبطة مباشرة بالانتاجية تميل الى وقايتهم من الستالينية : ان تكريسهم انما

---

١ - التتمة معروفة (١٩٦٤) .

مكتبة الفكر الجديد

يأتيهم من قدارتهم، وهذه القدرات التي تحميهم من أخطار زوال الحظوة وتؤسس في كل واحد منهم وعيه لذاته .

ومع ذلك كانت الدكتاتورية ، في القمة ، تشتد وتشتط . وكان الإرهاب يطيش صوابه ويدور أكثر فأكثر في الفراغ ويدمر كل شيء . كما كان انعزال الحزب يستفحل . ومن أعلى السلم الاجتماعي إلى اسفله كانت بيروقراطية غير كفؤة ترافق الاطارات الفنية الجديدة وتتطفل عليها . كانت هذه البيروقراطية قد عاشت ساعتها البطولية : فحين كانت الاطارات معدومة تعلمت كل شيء من تلقاء نفسها وانكبت باستعجال على الثقافة والمعارف الفنية التي سمحت لها بتوجيه التصنيع كيفما اتفق . كان ستالين نموذج هؤلاء الشغيلة الكبار : كان يقرأ كل شيء ، ويعرف كل شيء ، ويقدر كل شيء ، ويجد الوقت لمشاهدة جميع الافلام ، وللحكم على جميع الروايات ، وعلى جميع التآليف الموسيقية . كانت ضرورات وظيفته قد ارغمته على اكتساب ما يمكننا ان نسميه، في مزيج من اللوم والاعجاب، بعدم كفاءة شمولية. لكن بمقدار ما كان هؤلاء البيروقراطيون **يقومون مقام** الخبراء والاختصاصيين ، وبمقدار ما كانوا يحققون التلاحم بين روسيا القيصرية الجاهلة والاتحاد السوفياتي المصنّع ، كانوا يحفرون قبورهم بأيديهم : فالتعليم العالي ، الذي وجد وتطور بفضل عنايتهم ، كان ينتج فنيين متزايدي العدد باستمرار ، دورهم هو على وجه التحديد إقصاؤهم . بيد ان هؤلاء الستالينيين ، المدينين بكل شيء لستالين ، احتفظوا بمواقعهم : فكانت البيروقراطية المتحالفة مع الحزب ترتاب في القادمين الجدد وتعتقد نفسها الامينة الوحيدة على الاندفاعة الثورية : وكان هذا يعني ، قبل كل شيء ، انها تعتبر نفسها المؤهلة الوحيدة لوضع الخطط ولضمان تنفيذها . وهكذا كانت حركة التشريك تولد ، في آخر سني ستالين ، تناقضاً كامناً كانت الدكتاتورية ما تزال تحجبه لكنه كان سينفجر عاجلاً أو آجلاً : كانت تلك الحركة بإنتاجها اطاراتها الجديدة ، تخلق التعارض بينها وبين الاطارات القديمة[1] . لقد كان هناك

---

١ – ان واحدة من اولى نتائج « اللاستلنة » ستكون تصفية الاسطورة القديمة عن « العلم=

مكتبة الفكر الجديد

نظامان في الاتحاد السوفياتي : فمن جانب مجتمع خاضع خضوعاً شديداً للتسلسل ، التفاوتات فيه ما تزال صارخة ، لكنه أعطى نفسه ، في ظل ستالين وبفضل الستالينية ، مؤسساته الخاصة وبنيته وانسجامه ، وكان هذا المجتمع بالرغم من تناقضاته الباطنية **يقف من تلقاء نفسه على قدميه** ويتطور باستمرار، لكن اسسه كانت متينة وكانت اجهزته الداخلية للارتباط والوساطة تحميه من الانقطاعات العنيفة أو من التشتت ، وكان اختصاص اطاراته وكثرة تجهيزاته تسمح له **بحمل** الخطة وبالقيام بعبئها بدلاً من ان تجره هي : وفي النهاية كان يفترض في الخطة ان تندمج في حركة الإنتاج العينية . ومن الجانب الآخر دكتاتورية بوليسية غير ذات نفع فعلي ، وادارة عاجزة عن حل المشكلات الجديدة وعن تجاوز التناقضات او عن التحكيم في المنازعات . وحتى البيروقراطية الحاكمة ما عاد في مقدورها ان تتحمل الإرهاب الذي ولدته ونمته: إذ لم يعد هناك خوف من الفناء على يد القوى الخارجية ولا من احتمالات الثورة المضادة في الداخل ، ولم يعد هناك أحد يؤمن كل الايمان بصنم الوحدة المطلقة البربري . فالريبة هي التي ولدت هذه العبادة ، فلا بد بالتالي ان تزول : ان تراخي قبضة الدكتاتورية سيقود من جديد الى القيادة الجماعية التي تستند وحدتها المتحركة الى علاقات متبادلة. كان المنظمون الجدد ، معاونو ستالين ومرؤوسوه، يعيشون في تناقض : فقد كانوا ينتمون في آن واحد الى نظام رهيب لكن غير

=البورجوازي والعلم البروليتاري » . وهذا يعني ان مجتمع البناة ذاك يريد ان يجنب علماءه تأثير البيروقراطية الباطل . ولم يكن القصد اعادة العلم الى سابق « مكانته الرفيعة » كما يقال عندنا ، بل وضعه بأكمله في خدمة التكنيك . لقد قال لي أحد السوفياتيين : « ان التدخلات المشوشة للشخصيات غير الكفوءة قد اضاعت علينا وقتاً كبيراً » .

كما سنلاحظ ايضاً في كثير من الروايات التي ظهرت في الاعوام الأخيرة المعارضة شبه الكلاسيكية بين الاداري والعالم او المهندس . وطبيعي ان الاداري وصولي لا يثق بالعمال ولا يعرف شيئاً كبيراً خارج تعاليمه السياسية المتحجرة . أما المهندس بالمقابل فهو انسان نافع وحقيقي لأنه على صلة بالأشياء المادية وبالآلات . ولهذا فهو صديق الشغيلة . هذا الارتباط (القوي او الضعيف) بين الشغيل والفني ضد البيروقراطي يلاحظ على سبيل المثال في القسم الأول من « ذوبان الجليد » .

مكتبة الفكر الجديد

ناجع لم يعد له من واقع آخر غـــير واقع الدم الذي يسفحه ، والى مجتمع فنيين وشغيلة ترتبط علاقاتهم العينية بنمط الإنتاج قبل كل شيء وتتطلب حكومـــة مسيّرين ومحكمين .

لم يكن في استطاعة النظام ، الخطر على صعيد السياسة الخارجية ، إلا ان يعرقل في الداخل تطور الانتـاج . لقد كانت الستالينية فضلة لا ينبغي أن نفتش لها عن سبب للوجود في غير شخص ستالين بالذات . فطالما انـــه كان مقيماً ، فوق الجميع ، كرمز لدكتاتورية ضروريـة ، لم يكن المجتمع السوفياتي الجديد يملك الوسيلة لمعرفة نفسه : فسياسة الكتل كانت تغذي الحرب الباردة ، ومع الحرب الشعور المبهم بأن شراً مستطيراً يهدد الاتحـــاد السوفياتي – الشر نفسه الذي يسد الافق منذ ١٩١٧ ؛ ثم كان هنـــاك شعار « الصراع الطبقي يحتد كلما اقتربت الاشتراكية » الذي كان يبرر كل نداء الى « الحيطـــة » ، وكانت هناك الدعاية التي كانت تبذل قصارى جهدها لتوحي في كل مكان بالوجود اللامنظور للعدو . كان النظام يتغذى ويدعم من قبـل ستالين ، وكان ستالين ، وقـــد شاخ ، ضحية النظام الاول : فقد حملته الى سدة الحكم الريبة الشاملة فظل مجسداً لهذه الريبة في الوقت الذي لم يعد فيه لهـا مبرر للوجود . وبقدر ما كان يشعر بالطلاق بين نظامه الخاص وبين المجتمع الذي كوّنه ، كان يفقد كل امكانية للعمل عن غير طريق مضاعفة ريبته . ولأنه كان محرك وعامل ذلك « الانكماش » الذي سمح للاتحاد السوفياتي بكسب الحرب ، فقـد جعل نفسه عاجزاً كل العجز عن توجيه الازدهار السوفياتي . ان الانسان تصنعه ممارسته : فهي تحوله ، تكتشف عن طريقه مبادئها ، وحين لا تعود متطابقـة مع الواقع تنكفىء فيه وتترسب في دماغه وفي عضلاتـه تحت شكل روتين . وبدءاً من ١٩٤٨ كان الارهاب الجديد روتينياً . « فمؤامرة الاطباء » كان لها طابع « ما سبقت رؤيته »، وكان لها مظهر الشيء الذي جاء بعد فوات أوانه، وهذا ما زاد في فظاعتها. كانت الرؤوس تتدحرج، لكن البنية الواقعية للمجتمع لم تتعدل . وكان التضاد بين تشاؤم الستالينيين القديم الزنخ وبـين تفاؤل البناة

مكتبة الفكر الجديد

يشتد ويستفحل يوماً بعد يوم . ولقد كان ذلك المجتمع الفتي ، الذي يحق له أن يفخر بنجاحاته ، مبتوراً عن ذاته بكابوس دموي وغامض .

ونحن مرغمون على الاعتراف بأن العامل الرئيسي للاستلنة كان بكل بساطة موت ستالين : فقد انزلق حجاب جنائزي ليُظهر المجتمع السوفياتي لنفسه . وقد اختفى مفهوم بالٍ عن الاندماج الاجتماعي في الوقت نفسه الذي اختفى معه الشخص الوحيد القادر على فرضه . ذلكم هو بالضبط ما يجعل عودة دكتاتور ما مستحيلة : فالمجتمع لن يتعرف نفسه فيه . ان عناصر تلك الهيئة الاجتماعية ، التي لحمت بينها اندماجات عديدة – عمودية وافقية – تحقق الوحدة بواسطة تعدد معقد من التسلسلات والتبادل : فهم ليسوا بحاجة لا الى التوحيد من فوق ولا الى الاسطورة الرومانسية عن الوحدة المجسدة . لقد كان لا بد للمرء من أن يكون ستالين من الاصل حتى يطيل بعض الشيء في أمد دكتاتورية لا مجدية . لكن خلفاءه ما كانوا يملكون وسيلة التشبه به حتى لو رغبوا في ذلك : فهم ليسوا مقدسين ولا يمكنهم أن يصبحوا كذلك : فذلك المجتمع الايجابي قد صفى الاصنام والعبادات . لقد قرأنا مئة مرة في الصحافة البورجوازية ان مالنكوف وخروتشيف ومولوتوف والآخرين قد « تنازعوا على خلافة ستالين » . وهذا لغو . فبعد موت أمبراطور من الاباطرة كان في وسع القادة الرومانيين ان يتنازعوا على عرشه : فالسلطة الامبراطورية لم تكن منوطة بالشخص الذي يمارسها مؤقتاً . لكن كيف كان من الممكن الاصطراع على خلافة ستالين **ما دام لا وجود لها** ؟ ان ستالين لم يترك شيئاً وراءه اللهم إلا العالم الذي صنعه والذي ينكره . لقد كانت اللاستلنة ، في البداية ، اكتشافاً اكثر منها قراراً : فقد فقد الحكام ، بعد ان تحرروا من الشبح الستاليني الكبير ، القوة الفائقة والعبودية معاً . وسوف يظلون ، مهما يفعلوا ، غارقين في المجتمع القومي ، ولن يكون في مقدور احد بعد اليوم الارتفاع فوقه . واصبحت السياسة « الانكماشية » مستحيلة ، وتوجب انتهاج سياسة ازدهار : هل من سبيل لإعادة الحياة الى البيروقراطية والى الحزب ، الى ذينك الجهازين

مكتبة الفكر الجديد

الداميين والمتقوقعين للهيمنة الستالينية ، بدون ان يفتح الطريق امـــامها أولاً لاكتساب ثقة الجماهير من جديد ؟ لكن كيف ستمحضها الجماهـير ثقتها اذا لم يمحضها الحزب اولاً ثقته ، وبكلمة واحدة ، اذا لم تتح بعض الرقابة للقاعدة على الجهاز ؟ لقد ولدت الاستخانوفية من الريبة والاكراه والندرة : فكانت تثـــير الشحناء والمقاومة السلبية لدى غالبية الشغيلة . وكان رفـع الانتاجية يتطلب اثارة اهتمام الجماهير بها . لكن هل من سبيل الى اثارة اهتمامها قبـل أن **تعطى** أولاً ؟ لقد كان في الامكان ، عن طريق اعـــادة توزيع التوظيفات ، تقريب اللحظة التي ستعي فيها الجماهير انها تعمل لذاتها بعملها للأمة . وبكلمة واحدة ، كان لا بد للسياسة الوحيدة **الممكنة** ان تكون ايجابية كليـــاً ، وان تقوم على التفاؤل والثقة . كان الاتحاد السوفياتي الستاليني قد ارتاب في الآخرين لأنـــه كان يرتاب في نفسه . أما روسيا الجديدة فراحت تبدل سياستها لأنهـا راحت تكتشف اخيراً انه في وسعها أن تثق في ذاتها . انها الآن قوية بما فيه الكفاية ، في جميع الميادين ، لتفتح بكبرياء ابوابها للغرب . ان الأسوأ ليس مؤكداً دومـاً بالنسبة الى بلد فتي واثق بقوته . انه يستطيع ان يراهن على السلام : فعـــلى السياسة الجديدة ان تتطور على جميع المستويات معاً . وهي لن تأتي أكلها إلا في مناخ من الانفراج الدولي ، لكنها ستساهم بنفسها في خلقه . انها لم توغل بعيداً جداً كما هو معروف ، في طرق الديموقراطية – وبالأصل كانت الديموقراطية كديموقراطية آخر هموم الحكام – كما أنها لم تسع الى محو التفاوتات الصارخة والى محاربة البؤس محاربة فعالة : لكنها كانت ، على كل نواقصهـا ، السياسة الوحيدة الصحيحة لأنها كانت تنسجم مع الحركة التي تقود الأمة بكاملهـــا الى الزيادة المستمرة لطاقتها الصناعية والعسكرية ، الى الأمل ، الى ارادة الاجيال الجديدة الحارة في الحياة ، التي هي مجرد تعبير ذاتي عن هذه التحولات الخارقة. ولا جدوى من الترديد بأن محطمي الستالينية هم ستالينيون. هل كان في مقدورهم ان يكونوا غير ذلك ؟ ان هذه الحجة الغريبة تذكرني بحجة الجيروندين الذين كانوا يأخذون على روبسبيير انه كان، مثلهم، ملكياً قبل ١٠ آب. أين العجب؟

مكتبة الفكر الجديد

ان الثورة الفرنسية قد صنعت الجمهورية والجمهوريين بواسطة الملكيين. واللاستلنة هي التي ستقضي على ستالينية محطمي الستالينية . ذلك ان التغيرات البـــادئة لا يمكن ان تقف عند ذاك الحد : فهذا المجتمع ، باكتشافه نفسه ، اكتشف ايضاً نزاعاته وعيوبه . والطبقة العاملة مكونة من رجال جدد اكتسبوا المعرفة بقدراتهم وحقوقهم . وصحيح انهم بالمقـــابل خسروا تقاليد النضال الثوري : لكننا اذا كنا لا نريد ان نخلط بين الوقائع فلا بد من ان نقر بأنه ليس المطلوب صنع الثـــورة . ففي مجتمع يقوم على تشريك وسائل الإنتاج ، تستطيع الطبقة العـــاملة ويتوجب عليها ان تحصل على اصلاحات عميقة لكن الثورة تكون **قد أمست وراءها**[1] . هذه الطبقة ، ما إن ينتهي الارهاب ، لا تستطيع التملص من رؤية تناقضاتها : كانت هذه التناقضات تخفى عنها باسم السلامة العامة ، لكن الخطر قد تنـــاءى ، وباتت تدرك ان شرطها العملي متعارض مع دورها النظري كطبقة دكتاتورية . فهي تتحمل تخطيطاً كان ينبغي ان تساهم في وضعه . ان ثقافتها – المتفوقة من بعيـــد على ثقافة اي بروليتاريا أخرى – تتيح لها ان ترى أمامها بوضوح . وهي قادرة على الصياغة الواضحة لمشاكلها ومطالبها. وعلى هذا فالحركة البادئة داخل المجتمع السوفياتي لا يمكن إلا أن تكون عودة إلى مصادر الاشتراكية : فنمو الانتاجية يتطلب الآن الوثوق بالجماهير ، وعلى هذه الجماهير ، بعد ان **تلقت الثقافة** اكثر ممـــا **اكتسبتها اكتساباً** ، ان تستعيد نشاطها الذاتي وان تحرر نفسها بنفسها عبر المعركة الاصلاحية . ان اللاستلنة سيـــاسة انتصار ، تستند إلى النمو المتصل لأمة ماردة ، ذلك النمو الذي سيحرر عاجلاً أو آجلاً ، بالارادة او بالغضب ، جميع القوى الإيجابية في ذلك المجتمع . انها ترفض التشاؤم الستاليني تحت شكله الماركسي الزائف – فليس صحيحاً ان بناء الاشتراكية يؤرم الصراع الطبقي – وتستبدله بمبادئها الخاصة : الأسوأ ليس مؤكداً دومـــاً والانسان ليس شريراً دوماً ، والسلم يجب ان تعدّ له العـــدة بواسطة السلم . وفي

---

١ – هذا لا يعني انه لا يمكن ان توجد هنا وهناك – كما في بوزنان او بودابست – تمردات دامية ، انما يعني فقط ان البيروقراطية والادارة الفنية الجديدة ليستا بطبقتين .

مكتبة الفكر الجديد

الحقيقة ، ليس من كبير الاهمية ألا يكون محطمو الستالينية قد تحرروا كلياً من الستالينية : انمـــا الشيء الذي قد يبعث على القلق هو انه ما تزال في الاطارات العليا والمتوسطة كمية لا بأس بهـا من البيروقراطيين الذين تتعارض مصالحهم مع اللاستلنة . انها ليست مصالح طبقية كما زعم البعض ، ولا حـتى مصالح بيئية : فالستالينيون يتوزعون في كل مكان ومصالحهم تختلط بمصالح البيروقراطية بوصفها جهاز حكم : ان كل واحد منهم مهدد بأن يحل محله اختصاصي تماماً كما ان الآلة العامة حلت محلها آلات متخصصة . وبقدر ما يمثل الفني التعبير الصرف الخالص عن الموضوعية ، يميـــل إلى إبراز عدم فاعلية قرار تعسفي لا يستند الى مجرى الأشياء . وبقدر ما تتوكد اولوية الآلة في تكوين المنتجات المصنوعة ، يفلت منهم التخطيط : فالمعدل الوسطي لنمو الانتاجية ما عاد يتعلق بنفس القـــدر السابق بالبشر وبالاكراه الذي يمـارس عليهم ، بل هو يرتبط اكثر فأكثر يومياً بتحسين التقنيات وتطوير الآلات . ويمكننا القول بأن العتـاد نفسه الذي يحدد امكانياته الخاصة بواسطة المهندسين ، يحـــدد ايضاً ، بالإضافة الى ضرورة اثارة اهتمام الجمـــاهير بأسرها بالانتاج ، سياسة التوظيفات . وامام هذه المتطلبات الجديدة ، يجد الرجال المراوحون في مكانهم انفسهم مهددين بافتضاح عدم نفعهم . فيحامون عن انفسهم بتوحيد قضيتهم بقضية الثورة : ونحن لا نستطيع أن ننكر ان الكثيرين منهم صادقون ، فهم قد فهموا دوماً الحركة الثورية على انها مجهود شرس ، مفروض على الجميع بالاكراه ومدعوم ببطولة الأخيار : فالفلاح القليل التمدين الذي انضم الى البروليتاريا الصناعية حوالي عام ١٩٣٠ كان لا بد من انتزاعه من نفسه ودفعه الى أقصى حدود قواه . وكان المجتمع بأكمله ، تحت دفع البيروقراطيين والحزب ، لا يكف عن تجاوز نفسه باستمرار ، وكان يُطلب منه اكثر مما يستطيع ان يعطي : ولا أحـد يجهل ان أهداف الخطط الخمسية الاولى لم تُدرك . كان هذا الانسلاخ عن الذات يبرر التشاؤم الستاليني ويمنعه من التحول الى عـــداء كامل للإنسان : فالطبيعة البشرية ضعف وانانية وحاجاتها تعرقل التخطيط ، لكن الاستخانوفي كان البطل الستاليني الحقيقي لأنه يرفض

مكتبة الفكر الجديد

طبيعته ولأنه يمثل في النهاية نفيَ نفيٍ . ومن خلال هذا المنظور نستطيع أن نتصور ان الادارة وأجهزة الدولة لم تنظر بـــدون قلق الى تطور مجتمع تتعمق صفته التكنيكية يومـــاً عن يوم : فمن أين سيأتي الدفع الثـوري ؟ واذا كانت الجماهير تبتلع أبطال العمل ، وإذا كان الفنيون يراقبون الانتاج ، أفلن تتبـاطأ حركة التشريك ؟ ألن يتراخى توتر المجتمع الدائم ؟ أليس هناك خطر من تشجيع تنضد الفئات الاجتماعية بعضها فوق بعض وتحجرها ؟ انه لأمر له دلالته البالغة ان يكون ستالين قد أعدم مقرر الخطة الخمسية متهماً إياه بأنه يريد اعادة توطيد الرأسمالية : كان ذلك رد الفعل الوحشي لبيروقراطي ثوري ضد الفني . وهـذه المخاوف باطـــلة بالطبع : وهي انما تدل فقط على ان الحزب ضروري لبناء الاشتراكية وأن عليه ان يحتفظ بوظيفته كمحرض وكمدرب للبشر بشروط ان يبدل بنيته . لكن ستالينيي النظام لا يستطيعون حتى ان يتصوروا هذا التحول. فهم ليس لهم إلا شاغل واحد : ان يسيطروا من جديد على هذه الاجيـــال الجديدة . ان خروتشيف يبدي قلقه من الشبيبة : فقد وجه في الاسبوع الماضي تحذيراً صارماً الى الطلاب ، اي الى فنيي المستقبل . ومولوتوف يحاول ان يبث الخوف في قلوب الرسامين والكتاب . وانا لا أقول البتة ان أياً منهما يمثـــل البيروقراطيين الستالينيين : فهذه مهمة متروكة لمن هم على قدر خارق من الصحو والبصيرة [1] . والشيء المؤكد هو انهما يعكسان كلاهمـا التناقضات الراهنة في المجتمع السوفياتي وانهما يتعرضان معاً لتأثيرات متناقضة حسب الزمن والظروف. إن ما قد يبعث على القلق هو ان وجود هذه العناصر الستالينية ، التي ما تزال كبيرة العدد وقوية ، محافظة وثورية معـاً ، يولد ويغذي ، في الخـــارج كما في الداخل ، وهماً خطراً : فمع وجود تلك العناصر يبدو بالفعل ان البيروقراطية السوفياتية تملك سياسة بديلة وفريقاً بديلاً جاهزاً لتطبيقها . وهذا غير صحيح : قد يكون الفريق موجوداً لكن لا السياسة : فـ « النيوستالينية » غير قابـــلة للحياة ، وقـــد ولدت مقطوعة الرأس . وما يسمى بهذا الاسم انما هو المجهود

---

١ – نحن نعرف الآن حقيقة ما كاناه (١٩٦٤) .

مكتبة الفكر الجديد

اليائس لزمرة محددة دفاعاً عن امتيازاتها ومواقفها المسبقة . فـإلى أين يمكن أن يقودنا ذلك ؟ الى تصفيتها ، اذا مـا واتانا الحظ . وإلا فإلى تشنجات فوضوية ، والى الخطأ والجريمة والحرب .

ومن سوء الحظ انه في كل مرة يراهن فيها الغرب على الاسوأ،يزيد في الشرق من نفوذ اولئك الذين راهنوا على الحرب . ان جميع الناس البصيرين ، مهما يكن اتجاههم السياسي ، قد قالوا وقرروا انه من الواجب التجـاوب مع الانفتاحات الاولى للاتحاد السوفاتي .وقد بينوا جميعهم ان الغرب يركب مجازف كبيرة بعدم تشجيعه اللاستلنة الوليـدة . ومن سوء الحظ ان الحرب الباردة قد بدلت عندنا ايضاً بنية المجتمع . ففي كل مكان حملت نزعة عداء الشيوعية المحافظين الى سدة الحكم : وهؤلاء هم الحلفاء الطبيعيون للستالينية . ثم هناك صناع الاسلحة : ان شبح السلام قد ألقى بهم الى براثن خوف مريع . كل شيء ولا هذا : لهذا اسرع ممثلوهم يصوتون مع اعادة تسليح المانيا . ان اعادة التسليح هذه ، الضارة ، غير المجدية ، ليس لها إلا فـائدة واحدة : انها توقف عملية تحطيم الستالينية وتؤرم من جديد الحرب الباردة . وبالفعل ، حل خروتشيف محل مالنكوف وأكد من جديد أولوية الصناعة الثقيلة .

لكن ما رجح ، من البداية ، كفـة الميزان لصالح الستالينيين ، هو إضراب برلين التمردي . فقد علم القادة السوفياتيون بحقيقتين مريرتين دفعة واحدة : أن حكومات الاقطار الحليفة قـد كذبت عليهم ووضع البلدان التابعة مغاير تماماً للصورة التي رسمتها عنه ، وان اللاستلنة ليست واقعة سوفياتية نوعية : بل كان يجب ان تمتـد بالضرورة الى الديموقراطيات الشعبية وستكون انعكاساتها آنذاك أخطر كلما كان اختلال الاقتصاديات اكبر. في الاتحاد السوفياتي كانت الستالينية تنزع عن الانتصار : فالنظام كان مستقراً ، مقبولاً من الجميع ، والصناعـة قوية ، والانتاج مثابر على معدل نموه وقادر على زيادته ، ومستوى الحياة ، على انخفاضه البالغ ، يرتفع باستمرار . اما في البلدان التابعة فكانت الستالينية تنزع عن الهزيمـة : فلو تراخت قبضة الاكراه لاكتشفت جرائم واخطاء فادحـة

مكتبة الفكر الجديد

وموارد مبـذرة وقبضة من ستالينيين معزولين تجـــاه سكان معادين يكرهون حكومتهم والسوفياتيين وربما الاشتراكية. ان اللاستلنة ، شأنها شأن الستالينية ، ليست سلعة للتصدير : ففي أوروبا الوسطى وجد محطمو الستالينية السوفياتيون انفسهم متضامنين مع مخلوقات ستالين . كان مالنكوف قد هنأ ناجي على عودته الى الحكم ، فاستبدله خروتشيف براكوزي . لكن السياسة الجديـــدة كانت تتطور من تلقاء نفسها في الاتحاد السوفياتي وفي الخارج : كانت الحركة العامـــة للتوسع ترغم السوفياتيين على تسوية خلافهم مـع تيتو . لكن كيف السبيل الى ذلك بدون الاعلان عن ان الاشتراكية يمكن ان تتحقق بطرق مختلفـــة ، أي بدون تشجيع اولئك « الشيوعيين القوميين » الذين اعدم او سجن زعماؤهم في **الديموقراطيات الشعبية كافة** ؟ كان المتهمون العامون قد سعوا على الأخص ، في حينـه ، الى إجراء محاكمة تيتو . والآن يطالب تيتو ، المنتصر ، بتعليق جميـع الاحكام : ان التناقض العميق في هـــذه السياسة لا يخفى حتى عن الأنظار الحسيرة : كان الحكام السوفياتيون يدعمون ستالينيي أوروبا الوسطى لكنهـــم كانوا يسيئون الى سمعتهم بتقربهم من اليوغوسلافيين . كان من السهل ان يلقي خروتشيف وبولغانين على بيريا وحتى على ستالين تبعة أكاذيب وجرائم ١٩٥٠ ، مع إضافتها من طرف خفي : « امـــا نحن فلم نكن في الحكم بعد » . لكن في أوروبا الوسطى كان الذين قد ورطهم ستالين وارغمهم على التواطؤ معه كانوا في الحكم عام ١٩٥٠ وكانوا مـا يزالون فيه عام ١٩٥٥ : إذا كان راجك بريئاً ، شهيداً ، يكون رئيس الحكومة المجرية قاتلاً . ولا يبدو ان راكوزي قد أعار بالاً لهذا المنطق العديم الشفقـة الذي فرض نفسه ، لسوء حظـــه ، على الشعب المجري بأسره . كان السوفياتيون جاءوا بالدكتاتوريين في ناقلات الجيش الاحمر : فأثاروا الشبهات حولهم بتنصيبهم اياهم على سدة الحكم وأثاروا الكراهيـة ضدهم بإرغامهم على انتهـاج سياسة ارهـــاب ، والآن يلوثون شرعهم بإرغامهم على الاقرار بجرائمهم وعلى تقبيل قدمي تيتو . وما كان هذا كله ليكون خطيراً لو ان هؤلاء المجرمين شنقوا على اثر اعترافهم . لكن من اين يؤتى بفريق بديـل ؟

مكتبة الفكر الجديد

كان هذا الفريق موجوداً : كان في السجون رجال محطمة اسنانهم ، مقلوعة أظافرهم ، ما يزال الشعب يمحضهم وده . لكن الحكومة السوفياتية كانت تشك في ان هؤلاء الرجال ، الذين سجنوا بأمر ستالين ، يمكن ان يصبحوا حلفاء موثوقي الجانب : وكانت هذه بلا ريب خطيئتها الكبرى ، فالريبة الستالينية القديمة قد حالت بينها وبين ان تفهم ان هؤلاء الشيوعيين المخلصين سيقدمون مصلحة الاشتراكية ومصلحة بلادهم على احقادهم الشخصية وانهم سيجدون – على اسس مغايرة – تحالفهم مع روسيا . سيقال : من أين اتت هذه الريبة ؟ وهل ربح « الستالينيون » من جديد المواقع التي خسروها ؟ ربما : فتيتو لم يتركنا جاهلين بأن الصراع كان حامي الوطيس بين البيروقراطية القديمة وممثلي الادارة الفنية الجديدة . لكن ما كان له الحساب الاول هو ان محطمي الستالينية لم يتخلوا قط ، بصدد الديموقراطيات الشعبية ، عن موقف ستالين : فهم ما كانوا يثقون بها ، وهي في نظرهم بؤرات للفاشيين والجهال والمرائين والبورجوازيين المموهين[1]. وما العمال إلا اشتراكيون – ديموقراطيون. وكانت نتائج التخطيط الفاجعة تقدم لهم دليلاً إضافياً : انها غلطة الشعوب . وهكذا كان فشل السياسة الستالينية يدعوهم الى متابعتها .

إن للمؤتمر العشرين معنى يفلت منا . يكفي ان نقارن خطاب خروتشيف الرسمي بتقريره السري المشهور لنفهم ان هذا التقرير ارتجل وكتب على عجل . وقد شبهه البعض بنوع من مونولوج شكسبيري ، فوضاه الظاهرية تخفي نظاماً

---

١ – اليكم على سبيل المثال هذا الحوار الذي رواه تيتو والذي دار بين ستالين وبينه عام ١٩٤٤ :

– والتر ، انتبه ! ان البورجوازية قوية جداً في الضرب !

– ايها الرفيق ستالين... انني لست متفقاً معك حول هذه النقطة . ان البورجوازية الصربية ضعيفة للغاية . ولزم الصمت مقطباً حاجبيه ، ولبث الآخرون حول الطاولة – مولوتوف ، ايدانوف ، مالنكوف ، بيريا – فاغري الأفواه » .

وفيما بعد اراد ستالين – من قبيل الريبة ايضاً ولقناعته بالقوة البورجوازية وبضعف حلفائه – ان يقنع تيتو بأن من الواجب اعادة الملك بطرس الى العرش .

مكتبة الفكر الجديد

هوسياً ، وقراءته لا تضيف شيئاً الى معلوماتنا عن الستالينية ولا عن طبع ستالين . أهي مبادهة شخصية ؟ أهو المكتب السياسي الذي كلف خروتشيف بتحريره ؟ نحن نجهل ذلك . كما أننا نجهل هل كان القصد نزع سلاح المعارضة الستالينية بالاطاحة بصنمها ، أم هل كانت المسألة عبارة عن محاولة فرضتها مزايدة غير متوقعة لتجاوز الجهود الخجلة لمحطمي الستالينية ، وبالتالي استلام المبادهة من جديد وعرقلة اللاستلنة ؟ وعلى كل الاحوال ، كانت هذه المناورة الفظة مخصصة جهازاً للاستعمال الداخلي : فقراءة التقرير تمت في غياب المندوبين الاجانب . وقد جرى توزيعه بحذر ، مع تعليقات وشروح ، في المصانع والكولخوزات . ويبدو انه لم يبلغ إلا قادة البلدان التابعة وحدهم . ونحن نعرف ما كانته النتيجة المحتمة لكن المقصود على أغلب الظن : فقد كان كسرٌ بوليشينيل[1] ، وفي مدى ثمانية أعوام كان جميع الناس في الديموقراطيات الشعبية قد اطلعوا عليه . ومرة أخرى تحتم ان تكون لنتائج اللاستلنة في الاتحاد السوفياتي انعكاساتها في أوروبا الوسطي . وهذا شيء لم يتمنَّه لا خروتشيف ولا المكتب السياسي : فالضربة كانت رهيبة ، وقد شطرت الاحزاب الشيوعية في الديموقراطيات الشعبية الى شطرين : ففهم الحكام والمتواطئون معهم أن عليهم ان يغادروا المسرح او يفرضوا أنفسهم بالقوة . لكن القوة كانت قد بدأت تفلت منهم : فالمناضلون الشرفاء يرفضون دعمهم . وفي ايطاليا راح توليياتي يفضح المسؤولية الجماعية للقادة السوفييت : فهم قد دافعوا عن سياسة ستالين او كانوا ادواتها المنفذه . وإذا كانت صحافة البلدان « التابعة » لم تنشر رسمياً هذه الاتهامات ، لكنها — اي الاتهامات — ازدادت قوة عندما تبناها البولونيون والمجريون والرومانيون داخل الحزب وفي المعامل او الجامعات. ونتيجة لارتداد غير عادل ، لكنه ضروري ، خسر السوفياتيون حظوتهم على إثر تلك الصراحة الفظة . فقد أُخذ عليهم انهم ارتكبوا الأخطاء التي يفضحونها وانهم لا يفسرونها . وهذا مأخذ متناقض : فلو ربطت هذه

---

١ — شخصية مشهورة من شخصيات مسرح العرائس ، يقابلها عندنا كراكوز .

مكتبة الفكر الجديد

الجرائم بشروط التشريك بالذات في الاتحاد السوفياتي ، لبرئوا منها جزئياً . لكن كان هذا على وجه التحديد ما لم يكن بالامكان غفرانه لهم : فهم بتصويرهم ستالين على انه شيطان ، استبدلوا الطقوس البيضاء بطقوس سوداء ولم يخرجوا قط من عبادة الشخصية . والحقيقة ان العملية كانت تقتصر **بالنسبة اليهم وفي الاتحاد السوفياتي** على تحطيم الصنم . وما كانوا يريدون بأي ثمن ان يبدو المجتمع السوفياتي للروس كنتاج ممسوخ لانحراف . لكن بالنسبة الى الاقطار الحليفة التي تألمت كثيراً والتي راحت تكتشف الكارثة التي اقتيدت اليها ، وبالنسبة الى مناضلي أوروبا الوسطى الذين لم يبتدعوا عبادة ستالين والذين تلقوها كنتاج جاهز ، كانت مسألة الانحراف تنطرح اولاً : أليست البلدان التابعة منقادة في مدار كوكب مجنون مختل التوازن ؟ ان الامور قد بلغت هذه المرة نقطة القطيعة : فبعد بوزنان شعر الروس بأن حلفاءهم يفلتون منهم .

ان اللاستلنة كانت وراء أحداث بولونيا ورومانيا والمجر . وبالمقابل كان لا بد ان يتأثر الاتحاد السوفياتي باضطرابات أوروبا الوسطى : فلأنه لم يتخل قط عن ريبته ولأن القادة السوفييت رفضوا البحث عن حلول بناءة عندما كان ذلك واجباً ، تملكهم الخوف في النهاية ولجؤوا الى القوة . ولست ادري اذا كانت هناك « فئة ستالينية » داخل المكتب السياسي أو اذا كان هذا الجهاز بأكمله يتأرجح بين موقفين متطرفين وينتقل من الواحد الى الآخر تبعاً للظروف . والشيء المؤكد هو ان « النيوستالينية » قد انتصرت . ان النيوستالينيين لا يوافقون بلا ريب على جرائم مماثلة « بعامل الضرورة » ولا يدركون انها جرائم . انهم يتوقعون الاسوأ ويعودون الى فكرة ان الحرب العالمية مرجحة ، وربما أكيدة ، دون ان يفهموا ان ميزان القوى والطاقات العسكرية يميل نحو التوازن ، واننا لم نكن قط بعيدين عن لهيب معركة عالمية بعدنا عنه آنذاك ، وانه يكفيهم ألا يعودوا يخشونه حتى يختفي شبحه نهائياً . لكنهم ، في عنادهم الرهيب ، عادوا الى استخدام عنف لفظي كان يمكن غض النظر عنه أيام كان الاتحاد السوفياتي هو الاضعف ، بدون أن يفهموا انه لا يطاق البتة اليوم . ان

مكتبة الفكر الجديد

بولغانين حين يهدد باريس ولندن بالصواريخ الذرية ، لا يفكر حقاً باستخدامها. لكن هذه الاسلحة موجودة ، والاتحاد السوفياتي يملكها ، وهذه حقيقة يعرفها الجميع . ومن هنا يأخذ التهديد ، على لسانه ، واقعاً لعله لا يدركه . بل أتراه فكر لحظة واحدة بأن صواريخه ستنفجر في سان دني وسان اوين وبيلانكور[1] على الارجح لا فوق سطح فندق ماتينيون[2] ؟ كانت تلك الالفاظ الطائشة تهدد بالموت ، بصورة غير مباشرة ، بروليتاريا باريس وبروليتاريا لندن ، في الوقت الذي كانت فيه الدبابات الروسية تطلق نيرانها على البروليتاريا المجرية : نحن نعرف انها لا تعدو ان تكون اكثر من دمدمات ، لكنها تدل ظاهرياً بطيشها المضر على الاختيار المتعمد للبربرية والفوضى المطلقة . ونحن نعرف ان هذه الكلمات وغيرها أيضاً استوجبت تقديم الاعتذارات لنهرو[3] . ذلك ان

---

١ – مراكز صناعية وعمالية مجاورة لباريس . « ه. م »

٢ – الفندق الذي تعقد فيه الوزارة الفرنسية اجتماعاتها . « ه. م »

٣ – اليكم احدى النتائج المضحكة للتناقض النيوستاليني . ان البيروقراطية تريد ان تمارس سياسة انكماش وريبة من غير ان تخسر المواقع التي كسبتها بفضل سياسة التوسع السياسي . فنجم عن ذلك انها اصبحت كجانوس بيفرون . كان كل شيء يسير على ما يرام عندما لم يكن نهرو سوى عميل للولايات المتحدة الاميركية ، سوى نذل : فاحتجاجاته ما كان يمكنها ان تمس ستالين لأنها كانت تبرهن على انه من المعسكر الآخر ، لكن عندما اقر القادة السوفييت ، من وجهة نظر سياسة ايجابية ، بالأهمية البالغة للهند وللحكومة الهندية ، وعندما قطعوا في ذلك شوطاً طويلاً الى حد انهم ذهبوا لزيارة رئيسها ودعوه الى الاتحاد السوفياتي ، وعندما اعتبرته دولة شيوعية اخرى كبرى ، الصين ، وسيطاً ممكناً بين حكومة واشنطن وحكومة بكين ، عند ذلك يصبح واجباً الاقرار بأنه قد سُلم لهذا الوزير الاجنبي ، لهذه الامة الأجنبية الكبيرة ، بالحق ببعض الرقابة على السياسة السوفياتية . لا نقال : فهذه الرقابة لا يمكن ان تمارس إلا بخطابات في الهند وباقتراعات في الامم المتحدة . لكنها تظل مع ذلك مخيفة : فمركز نهرو في هيئة الامم المتحدة يسمح له بالتأثير على الرأي العام . وهكذا فإن الستالينية لا معنى لها ازاء الهند : والادانة الشكلية للتدخل السوفياتي لم تؤد الى قطع اواصر الصداقة بين الحكومة الروسية والحكومة الهندية . لكن الاتحاد السوفياتي التفت في الآن نفسه نحو الغرب وهدده – حتى يجعل الناس ينسون المجر – وان تراجع عن ذلك في المذكرة التي بعث بها الى الحكومة الهندية . وكانت النتيجة تلك الجمل المزدوجة المعنى ، التي هي في آن واحد فورة عنف لفظية ومجرد لغط ، تذكير موضوعي بالقوة=

مكتبة الفكر الجديد

ليس هنـاك سوى وسيلة واحدة لتجنب الحرب المنذرة بالاشتعال ولكسبها في حـال اشتعالها بالرغم من كل شيء : ألا هي الاستعداد لها . وهكذا عادوا الى سياسة الكتل . أمن الممكن ان تكون الحكومة السوفياتية قـد اعتقدت فعلاً ان المحاولة الانكلو – فرنسية البائسة، ان ذلك الإنزال الفاشل يمكن ان يكون السبب في قتال عالمي ؟ ان العالم قاطبة قـد اداننا . وفي هيئة الأمم المتحـدة عُزل ممثلونا وأُلبسوا طاقية الحمار . وقـد كفى السيدين خروتشيف وشيبيلوف أن يتكلما عن متطوعيهما حتى نعد بأن نكون عقلاء . لكن هـذا التهديد لم يكن حتى ضرورياً : فبضعة مراكب أغرقت في القنـاة وضعتنا تحت رحمـة الولايات المتحدة الاميركية . وكنا على استعداد لبيع روحنا والمزق الباقية من « شرفنـا العسكري » مقابل بضع قطرات من الوقود . والحال انه لا مجـال للشك في ان قوى الحرب، في اميركا اليوم، هي في حالة تراجع واضح[1] .

___

= الستالينية ورد فعل منفلت يقتصر على التعبير عن مزاج الحكام الذاتي. ذلك انما على صعيد الذاتية يحاولون ان يجدوا لأنفسهم الاعذار : « لقد احتددنا قليلاً ، هذا صحيح ، ونتفوه احياناً بأكثر مما ينبغي ، لكن ماذا تريدون : ان للصبر حدوداً ! » . ان هذا اللجوء الى الذاتي بوصفه موقف تراجع هو من اغرب خصائص الدبلوماسية الستالينية الجديدة . انهـا خاصة ضرورية لسياسة الانفتاح : فهي التي تسمح بتخفيف حدة النزاعات الكثيرة التي يمكن ان تـبرز عند اللقاءات الاولى . وهي علامة من علامات تحطيم الستالينية : لا بسبب اللجوء الى الذات – الشيء الذي لا دخل له تقريباً بالسياسة الخارجية - لكن قبل كل شيء لأنها وليدة وضع جديد يصبح فيـه التلاؤم ضرورياً . ان ستالين لم « ينرفز » قط ، وقد حافظ دومـاً على لهجته البـاردة واللاذعة : لكن هذا لأنه كان مقطوعاً عن العالم . لقد زارته بعض شخصيات كبيرة . لكنه لم يزر احـداً قط : انه لمن الصعب ان نتصوره حاضراً في مأدبة يقيمها العماليون الانكليز في لندن .

١ – سنحاول في عدد قـادم ان نحلل وضع الولايات المتحدة الاميركية وان نكشف النقاب عن البنى الاجتماعية الجديدة . لكن يكفينا الآن أن نذكر بأن القنابل الذرية قـد اصبحت – الى حد ما – عامل سلام من اللحظة التي عرف فيهـا الاتحاد السوفياتي كيف يصنعها . وتبقى هناك الأخطار الكلاسيكية للشطط في التسلح : لكنها اقل تهديداً واضعف في المرحلة الراهنة . يقيناً ، لقد أصبحت صناعة الحرب في النهايـة قطاعاً اساسياً من قطاعـات الاقتصاد الاميركي (والاقتصاد السوفياتي كذلك) لكن خطر الأزمة مستبعد مؤقتاً : فالاختراعات والتحسينات الفنية تجدد باستمرار مخزون الاسلحة ، بل تمنعه من التكون . ان الميزانية العسكرية ما تزال =

مكتبة الفكر الجديد

لقد نطق احـــد النواب ، في اجتماع لحركة انطار السلام ، كما سبق وذكرت ، بهذه العبارة الدالة : « لمـــاذا تطالبون حركتنا بأن تهتم بأحداث المجر ؟ فالسلم العالمي ليس مهدداً في المجر : مـا من انسان يريد ان يخوض الحرب من اجـــل بودابست . إنما في الشرق الأوسط يمكن ان تشتعل النار من جديد » . وبصريح العبارة : ان الغرب يغسل يديه ممـا يجري في المجر . لكن الاتحـــاد السوفياتي يستطيع ان يعتبر العدوان الفرنسي – الانكليزي سبباً للحرب . والحال ان هـــذا التدخل كانت له اهداف دنيئة لكن محدودة تماماً : فقد كان محاولة **للاحتفاظ** لا للأحذ . كان ايدن يريد ان يحمي حملة أسهم « الشركة » . وكان موليه ، تحت تأثير لاكوست ، قـــد فكر بمشروع غبي لسحق ثوار الجزائر في بور سعيد . وحتى يجد المرء في هذه البعثة العسكرية البائسة التي اعدت لهـــا العدة من دون علم الولايات المتحدة الأميركية دليلاً على تصلب الغرب ، لا بد ان يكون قد راهن سلفاً على الحرب : ذلك ان ما تكشف النقاب عنه هـــذه البعثة إنمـا هي ، على العكس ، تناقضات الامبرياليات البورجوازية وصراعات المصالح التي تلغم الكتلة الاطلسية . لكن الاتحـاد السرفياتي كان قـــد اخذه الهلع : صواريخ على باريس ! متطوعون الى مصر ! وهـا هو يذكر بأن قواتـه تستطيع ان تبلغ المنش في ثمـــانٍ واربعين ساعد . اين هي لهجـة خروتشيف الحانية عندما قال لغي موليه : « سووا مشاكلكم في الجزائر . **سووها بسرعة ؛** لن نزعجكم » ؟ وعبر هـذا المنظور المتشائم لم يكن فشل « الخطط » في اوروبا الوسطى يقلق النيوستالينية بقدر ما كان يقلقها الهيجان الاجتماعي : إذا كان الاقتصاد المجري اعرج فسوف يُقوّم – هذا شيء ليس بذي بال – من الأعلى ، عن طريق السلطة . لكن لا بـد اولاً من سحق التمرد . لا لإنقاذ الاشتراكية

=ساحقة : فهي شرط موائم لمفاوضات نزع السلاح . ولقد كانت حرب كورية رائزاً بالنسبة الى الحكومة الأميركية كما بالنسبة الى الحكومة الروسية : فالسكان قد أسفروا عن عدائهم لها . ولقد فاز ايزنهاور في الانتخابات لأنه وعد بوقف القتال . وفي حـال التفاهم ليس من المستحيل تحويل صناعات الحرب : وهذا ما يمكن ان يتترجم من كلا الجهتين في بذل المعونات للبلدان المتخلفة .

مكتبة الفكر الجديد

في المجر : انما لإنقاذها في الاتحاد السوفياتي . لا خوفاً من المهاجرين الفاشيين ولا حتى من الاشتراكيين – الديموقراطيين ، وانما بسبب الانعكاسات التي يمكن ان تكون لانتصار المتمردين على الرومانيين والتشيكيين ولا سيما على الألمان . إذ يكفي ان ينجح متمردو بودابست حتى تثور المانيا الشرقية . فإذا ما تدخل الجيش الاحمر ، عبر جنود بون خط الحدود . وآنذك يندلع قتال عالمي . وهذا القتال تخشى النيو – الستالينية أو تزعم انها تخشى من اندلاعه في الشرق الاوسط ، لكنها ترى ان الموقف انما يهدد بالانفجار في اوروبا . ان الحرب ، في نظر الحكام السوفييت ، انما ستندلع في اوروبا نتيجة لتفكك كتلتهم بالذات . وبدلاً من ان يواجهوها مع بلدان تابعة متمردة ، يفضلون ان يضربوا . وسيان عندهم ان يقضوا لمدة خمسين عاماً على حظوظ الاشتراكية في المجر اذا ما كان هذا المثال الدامي كفيلاً بشل سائر البلدان « التابعة » من الرعب .

قيل انهم أرادوا ان ينقذوا الحظ العالمي للاشتراكية . وانا اعتقد ذلك . لكن الاشتراكية الحقيقية غير قابلة للانفصال عن الممارسة الواقعية للبشر الواقعيين الذين يناضلون معاً ضد أرباب العمل والشرطة ، وأحياناً ضد الدولة وعساكرها . بل انني ما ازال مغرقاً في التجريد : فهي ليست حتى بحركة ، انما هي بشر سائرون يتجمعون ويدرب بعضهم بعضاً ، ويتنظمون ويتبدلون اذ يتنظمون ، يصنعهم التاريخ ويصنعون التاريخ . عملهم يقوم على حاجاتهم وحاجاتهم حقيقة كأنفسهم . لكن الاشتراكية التي اطلق باسمها الجنود السوفييت النار على الجماهير في المجر ، لا اعرفها ، ولا استطيع حتى ان اتصورها : فهي غير مصنوعة من قبل البشر ولا من أجلهم ، ولا تعدو ان تكون أكثر من اسم يعطى لشكل جديد من الاستلاب . لقد زُعم ان الاتحاد السوفياتي كان يدافع في بودابست عن مصالحه القومية : وهذا صحيح وغير منصف معاً . فبالنسبة الى الاتحاد السوفياتي ، البلد الاشتراكي ، لا تتميز المصالح القومية أبداً عن مصالح الاشتراكية : وهكذا أيضاً كان طهراني انكلترا الجديدة لا يميز ازدهاره المادي عن البركة الإلهية ويحمل السلاح ليدافع في آن واحد عن الله والملكية الخاصة .

مكتبة الفكر الجديد

بيد ان هذا لا يدين **كل** سياسة سوفياتية . بل على العكس : ان المساعدة المقدمة بلا مقابل ، عبر منظور الانفتاح ، الى الصين والى البلدان المتخلفة ، تقيم علاقات اشتراكية بين الامم في الوقت الذي توسع فيه منطقة النفوذ الروسي . لكن حين يعود الاتحاد السوفياتي الى سياسة الانكماش ، فإن الاشتراكية والقومية تصبحان ، على السواء ، من دواعي المصلحة العليا . ولا يعود الهدف إنقاذ بشر ومكاسب عمالية والمستقبل العيني لتشريك سائر الى الامام ، الحفاظ بالقوة على مواقع تستطيع ، عبر منظور حرب عالمية ، ان تقوي ساعد الأمة السوفياتية وجيوشها وصناعة تسليحها . ولا بد بد ، بالطبع ، من ان يعيش الاتحاد السوفياتي ، لا بد من ذلك **من اجل قضية الشيوعية** : إن اليساريين كافة سيقرون بذلك . لكن ينبغي أيضاً ان يظل اشتراكياً . اما داعي المصلحة العليا الذي قد يتذرع به اليوم ، فإننا لن نستطيع ان نجد فيه سوى احالة مبهمة إلى اشتراكية مستقبلة . وبالمقابل فإن نضال الجماهير العيني يُغرق في الدم باسم تجريد محض يطرح نفسه على أنه أساسي ويرمي الى التفاهة والخصوصية بجميع البشر الذين من لحم وعظم حتى وان كانوا عمالاً ، حتى وان كانوا شيوعيين . إننا من الذين يقولون : الغاية تبرر الوسائل،لكن مع اضافة هذا الاستدراك الضروري: **ان الوسائل هي التي تحدد الغاية** . إن الاتحاد السوفياتي ليس امبريالياً ، والاتحاد السوفياتي مسالم ، والاتحاد السوفياتي اشتراكي : هذا صحيح . لكن حين يطلق قادته ، لإنقاذ الاشتراكية ، جيش الشعب على بلد حليف ، وحين يأمرون جنودهم ، تلك الكائنات المجردة ، بإطلاق النار على عمال ما عاد في طاقتهم تحمل بؤسهم ، وحين يقررون ما سيعملونه ، بدون ان يأخذوا بعين الاعتبار متطلبات الموقف العينية، غير آبهين إلا بالانعكاسات التي يمكن ان تكون لعملهم هذا **في مكان آخر** ، في بلدان أخرى ، وأخيراً في العالم قاطبة ، فإنهم يجعلون من الاشتراكية وهماً وخيالاً ، ويحولون الاتحاد السوفياتي غصباً عنهم وغصباً عنه الى أمة كاسرة . لقد قدم عمال جميع البلدان صدورهم لنيران الجنود مراراً لا تحصى في التاريخ بحيث يستحيل عليهم ان يقبلوا بأن تذبح قوات نظامية الشعب

مكتبة الفكر الجديد

اينما كان ومهما تكن الذريعة : والمصفحات السوفياتية انما اطلقت النـــار ، في بودابست ، باسم الاشتراكية على بروليتاريات العالم كافة . والحال ان الاشتراكية اذا لم تحدد طبيعة المشاريع التي تزعم انها تحافظ عليها ، وإذا ما ساد الاعتقـاد بأن حمايتها ممكنة بطرائق تشبه أعمال القمع التي كانت تقوم بها القيصرية ، فإنها تصبح موضوعاً حيادياً وسلبياً ، حداً من حدود إحالة مثالية يمكن استبداله ، اينما كان وفي أي زمن كان ، بأي تجريد كان . والحكام لا يجهلون ذلك طالما انهم يكذبون على شعبهم : وهذا اعتراف صريح بأنهم لا يريدون الاعتماد على استحسان الشغيلة السوفييت وبأنهـــم سلكوا سلوك البيروقراطيين الاستبداديين لا سلوك المفوضين من قبـــل الأمـــة : انهم بانتهاكهم سيادة المجر قـــد سرقوا سيادة السوفييت .

كل شيء واضح : لقـــد اراد اللاستالينيون أن يتابعوا في أوروبا الوسطى سياسة ستالين في الوقت الذي باتت فيه هذه السياسة مستحيلة نتيجة موقفهم في الاتحاد السوفياتي ونتيجة تصريحاتهم الخاصة . وقد أدت هـــذه التناقضات ، وسوء نيتهم ، وأنصاف تنازلاتهم ، ادت في النهاية الى مـــا هو أسوأ وصوبت رأي الستالينيين . وعندما استلم هؤلاء السلطة من جديـــد مؤقتاً ، اندفعوا في سياسة مغامرة ، كسلى ، دموية ، قائمة على احتقار الانسان والحياة الانسانية . وقد اصطنعوا عودة الحرب الباردة ليقيموا قوتهم على الخوف . ومن وجهة النظر هذه يأخذ التدخل الروسي في المجر كل معناه : فهو عملية موضعية في إطـــار حرب عالمية لما تندلع بعد . والحال ان الحرب تعلق كل شرعية ، سواء أكانت اشتراكية ام لا : وعلى هذا فإن التبرير الوحيد لضربـــة بودابست هو حتمية الحرب ، وما الدم المسفوح في المجر إلا ساقية على حساب سيول الدم التي ستسيل عما قريب .

لكن الدم لن يسيل . فلا الاميركان ولا الروس يريدون الحرب الساخنـة . والحرب الباردة قد ولى أوانها . والنيو – ستالينية تسير بعكس اتجاه التاريخ . وهي تجـد تبريرها الوحيد – والظاهري علاوة على ذلك – في الديموقراطيات

مكتبة الفكر الجديد

الشعبية التي قادها ستالين الى شفا الهاوية . امـا في غير الديموقراطيات الشعبية فإن كل شيء ينقضها : المجتمع الروسي الجديـد ، وجود صين شيوعية ، موقف الغرب بالذات. ان هذه الواقعية المجردة والحانقة غير واقعية بالمرة : فقد أساءت الى سمعة الاتحاد السوفياتي في نظر العالم من غير ان تتوصل الى إخضاع المجر . إن علينا ان ندينها لأن الوقائع تدينها وان نعارضها بالسياسة الوحيدة المتوائمة مع الواقع اليوم ، السياسة التي تجعل من الانسان مقياس كل شيء والتي تحـارب جميع الاستلابات ، حتى عندما تتجمل نفاقاً باسم « الاشتراكية » ، السياسة التي تفضل في جميع الأحوال التفاوض على العنف والحلول العاقلة على المجازر، السياسة التي ترفض ان تتخذ موقفاً على اساس الحرب القادمـة وتريد ان تهيىء للسلم بأفعال سامية ، السياسة التي ستجرؤ اخيراً على إعادة السيادة للشعب في الاتحاد السوفياتي والسيادة القومية للبلدان « الدائرة في فلكه» وسياسة الثقة والانفتاح: هذه هي على وجـــه التحديد السياسة التي كان يمكننا ان ننتظرها بعـد المؤتمر العشرين . ان الظروف تفرضها : انها تدعى هنـــا **دمقرطة** وهنـاك **لاستلنة** ، لكن مهما يكن اسمها فلا وجود لطريق آخر . ان الاتحاد السوفياتي يقف امـام اختيار ذي حدين يمكنه ان يرجئه بواسطة بضع مجازر لا ان يتملص منه : فإما ان يصفي بيروقراطيته الستالينية ويعيد النظر من تلقاء نفسه في صلاته مع جميع الديموقراطيات الشعبية ، واما ان انتفاضاتها ستلقي به في أعمال قمع محليـة ستؤدي في النهاية على نحو عبثي الى إشعال تلك الحرب العالمية التي لا يريدها احد والتي تكون تلك الأعمال قد زعمت انها تحول دونها .

كتب ميرلوبونتي في « الاكسبريس » : « نستطيع ان نتكلم بإنصاف عن الاتحاد السوفييتي ، لكن فقط اذا ما قبل بأن يعاود الدخول الى صف التاريخ ، واذا لم نؤمن به ايماناً لا باعتباره **الخير** ولا باعتباره **الشر** ، واذا مـا تخلينا عن الاصنام » ان هذا الكلام يبدو جلياً . لكن لا بد ايضاً من ان نعرف الى اين يقودنا . والحـال انه يقول ايضاً : « ان الموقف الوحيد العادل اذن هو ان نرى الشيوعية من خـــلال النسبية ، كواقعة لا تتمتع بأي امتياز ، كمشروع ينخره

مكتبة الفكر الجديد

تناقضه الذاتي ، مشروع يتحسس هـذا التناقض ويتوجب عليه ان يتجاوزه ».
وانما حول هذه النقطة لا نستطيع ان نكون على اتفاق معه : يقيناً لقـد اشرنا هنا بالذات الى ان بنـــاء الاشتراكية « تنخره تناقضاته الذاتية » ، ولو توقفت حركة النخر هذه لتوقف التاريخ . لكن صحيح ايضاً ان هذه التناقضات تتولد بدءاً من المشروع نفسه وان هذا المشروع مستعصٍ على الفهم خـارج اهدافه . انه يريد ان يعطي البشر كافة العدالة والحرية . وهذه النية الاساسية ليست هي التي تستطيع ان تسلخه عن التاريخ ، لأنها ، على العكس ، انما تريد ان تتحقق بالتاريخ وفيه . لكننا لا نحتاج الى اكثر من ذلـــك لنميزها جذرياً عن جميع السياسات التي ترمي الى توكيد او الاستمرار في هيمنة طبقة واحدة على مجمـوع المجتمع . ان كل أمة اشتراكية مشروع فريد يرمي الى بناء عالم بالوسائل التي في متناوله : اننا ننتظر شيئاً من الصين الشعبية اذا لم نرَ فيها اولاً واذا لم نجـــد في ابسط تفاصيل وجودها الجهـــود المركز لستمئة مليون إنسان في سبيل حذف البؤس والجوع . في أي ديموقراطية بورجوازية نستطيع ان نجد هذا الاندفاع نحو المستقبل ، هذا العمل الواعي والمثابر ، هذه الوحدة الحية ؟ بالطبع لا مجال لتوحيد الاتحاد السوفياتي بالخير ولا تصريحات البرافدا بالحقيقة المطلقة : فلا شيء يمكن ان يحل ، في الشرق كما في الغرب ، محل تلك التقريبات المتتالية وتلـــك الانتقاضات وتلـك الحوارات التي تسمح – ببـــطء وتدريجياً – باستخلاص الحقيقة . لكن سواء أشئنا أم أبينا فإن البناء الاشتراكي يظل **متميزاً من حيث** اننا لا نفهمه الا اذا عانقنا حركته وتبنينا اهدافه . وبكلمة واحدة ، اننا نحكم على ما يفعله باسم ما يريده ، وعلى وسائله باسم غايته ، في حين اننا نقيّم جميـــع المشاريع الأخرى على اساس ما تجهله ، او على أساس ما تهمله ، او على أساس ما ترفضه . وهـذا الامتاز يفسر امتيازاً آخر : ان الوحيدين الذين يستطيعون ويتوجب عليهم أن يحكموا هم الذين يساهمون ، في الشرق والغرب ، في حركة الاشتراكية . ان ميرلو – بونتي يبدو وكأنه يرجع ضمنياً الى وكر نسر يمكن منه تقييم تطور الأنظمة الشعبية وتطور الديموقراطيات الرأسمالية معاً . وهـذا

مكتبة الفكر الجديد

ما ينبغي أن نجيب عليه بقولنا: اما ان وجهة النظر المتعالية هذه غير موجودة، وإما انها الاشتراكية بعينها ، لا كمبدأ مطلق ، محلق فوق المعترك ، بل كواقع تاريخي ، عيني ، إيجابي وشامل . لكن امتيازات هذا المشروع اللامحدودة يجب ان يكون ثمنها صرامة قضاته البالغة ، اي صرامة صناعها بالذات . ان استنكار الاستعمار البورجوازي ليس إلا ضياعاً للوقت : فنحن نعرف ما طبيعة هـذا النظام ولا نجهل من هو السيد بورجو ، وكل شيء واضح للغاية ومنذ زمن بعيد بحيث ان الغضب يبدو لي على الاقل اختيارياً . وبالمقابل حين تعرض السياسة السوفياتية الاشتراكية للخطر وتناقض مبادئها واهدافها ، وحين تكون الوسائل التي تستخدمها تنذر بتدمير الغايات التي تنشدها ، فإننا نحتفظ لها بكل استنكارنا وليس القصد من هذا الاستنكار محاربة عدو وإبعاد نظام : بل ينبغي ان ندين منهجاً معيناً والحكام الذين يطبقونه . ان عظمة مشروعهم وعبء مسؤولياتهم يجردانهم **في جميع الحالات من جميع الظروف المخففة** . ان نذالات المعمرين والاستغلال الرأسمالي قد امكنها ان تدفع ببشر وأمم الى اليأس : وقد كونت البروليتاريات والشعوب المستعمرة ضدها آمالها ، والجرائم والمجازر لن تبدل في هذه الحقيقة شيئاً . لكن حين تطلق الدبابات الروسية نيران مدافعها على مباني بودابست ، وحين تحول الاشتراكية ، كما يقول سيزير ، الى كابوس ، وحين يعتقل بوليس الدولة الشبيبة الحرية والعمال وينفيهم ، فإن أمل البشر – أملهم الوحيد – يكون قد وضع من جديد موضع تساؤل . لقد روى لي صديق فرنسي ان شاباً سوفياتياً بدأ بالقبول بطيبة خاطر بالانتقادات وبالاعتراف بعيوب النظام . لكنه سأل بعد هنيهة مغتاظاً : « وانتم ؟ ألديكم شيء آخر تقدمونه لنا ؟ » . وأدلى صديقي بالجواب الذي كنا سندلي به جميعاً : « لا شيء . ليس لدى الغرب شيء يقدمه » . لكن ينبغي ان نضيف اليوم : « وانتم ، ايها الروس ، اذا توصلتم الى اقناعنا بأن هجيتكم في بودابست ليست إلا مرحلة عادية من مراحل البناء الاشتراكي ، فلن يعود لدى انسان في العالم شيء يقدمه . لأي كان » . وانني لأرى فعلاً ان ميرلو – بونتي يستنكر

مكتبة الفكر الجديد

قليلاً التدخل السوفياتي : اذا كان الاتحـــاد السوفياتي يعادل في القيمة انكلترا الرسمالية لا اكثر ولا اقل ، فعندها لا يبقى أمامنا فعلاً سوى ان نزرع حديقتنا ونعتني بها . لكن اذا أردنا ان نحتفظ بالأمل ، يجب ان نفعل العكس بالضبط : أي يجب أن نعترف ، عـــبر الأخطاء والفظائع والجرائم بامتيازات المعسكر الاشتراكي الجلية التي لا مراء فيها وان ندين بالقدر نفسه من القوة السياسة التي تعرض هذه الامتيازات للخطر .

٢ – « أكان وقتاً مناسباً ... »

ها هوذا الاتحاد السوفياتي مداناً ! ان البعض سيبتسم : « لو تعرف كم هو لا يأبه بذلك ! » . أجل ، انني أعرف ! اننا في باريس بضع مئات من الألوف ممن يعتبرون ضربة السويس قرصنة وممن لن يهضموا بيسر ضربـــة بودابست . فهل يحسب لنا حساب ؟ ألا يكفي جزء لا أكثر من صاروخ بولغانين ليغرقنا جميعنا معاً في صمت ازلي ؟ فكيف نزعم ، بعد هـذا ، ان احتجاجاتنا ليست مثالية الطابع ؟

ومع ذلك أنا لست واثقاً انها تظل بـلا مفعول . بالطبع نحن لا نستطيع شيئاً على الاتحاد السوفياتي : انما علينا ان نضع ثقتنا في شغيلته ، في طلابه ، في أولئك الذين يناضلون ، في قلب الجهاز ، من أجـــل إقصاء الستالينية . لكن يوجد في فرنسا حزب لن يفلت مثلنا من الصواريخ الموجهة ، وحماسته ستمحي عن وجه البسيطة مع احتجاجاتنا . انه يوجه من قبل مكتب سياسي هنـــأ السوفياتيين على مبادهتهم الموفقة ، واعلن أحد اعضائه مؤخراً انه يشعر « بملء الراحة » لتلك المجازر النموذجية . ان هذا الحزب يخصنا ، ونحن نعرفه حق المعرفة ، ولقد كنا ، الى حـــدٍّ ما ، رفاق طريقه : وانمـــا عليـــه يتوجب علينا ونستطيع ان نؤثر . وهذا بالضبط ما يقودني من جديـــد الى مراسليّ . ويبدو انني اغظت احدهم عميق الاغاظة . انه تقدمي . وهو لم يغتظ لأنـه لا يوافق على رأيي ، بل انه لا يكتم عني انه يشاطرني اياه : لكن الشجاعة اتيحت

مكتبة الفكر الجديد

له على الاقل ليلزم الصمت ويبدي أسفه لأن هذه الشجاعة لم تتح لي : « أكان وقتاً مناسباً ؟ ان الهستيريا المعادية للشيوعية في أوجها ، وجرائم حكومتنا تجردنا من الحق في ادانة أي كان . ان مهمتنا واحدة وحيدة : ان نتحد ضد حرب الجزائر » . يا سيدي ، اذا لم يكن هذا هو الوقت المناسب ، فقل على الفور ان الوقت لن يأتي أبداً . افترض ان الروس غزوا في الغد بولونيا ونفوا غوملكا : ان الهستيريا المعادية للشيوعية ستبلغ درجة من العنف يصبح من الواجب معها الالتفاف حول الحزب اكثر من أي وقت مضى .

واذا ما اغارت طائرات الميغ ، بعد غد ، على بوخارست ؟ لسوف تقوم القيامة على الفور ، وأعتقد انك ستتسجل في الحزب غير آبه بكونك ستموت في الغد من الغيظ المكظوم .

انني افهمك : تلك الصرخات ، تلك المشاعل ، أولئك الحرّاقون ، أشداق السحلة تلك ، كل تلك السادية المكشوفة ، الاستنكار النبيل الذي أبداه السيدان تكسييه – فينيانكور وبياجي ، انني اوافقك على ان هذا كله يبعث على الاشمئزاز . وانا أعرف أيضاً ان اوساط السلطة ارادت ان تستفيد من الفرصة لتحل الحزب الشيوعي ، وانها ما تزال تفكر بذلك ، وان رئيس حكومتنا سيحاول ، فيما اذا ضايقه شغب اليمين ، ان يرد عنه استكلابه بأن يرمي اليه بعظمة عداء الشيوعية . لقد قالها بورديه وكثيرون منا يكررونها : ان السيد موليه سيجد اليسار بأكمله في ذلك اليوم ينتصب في وجهه . لكني اصارحك بكل وضوح ، بعد هذا ، اننا لن نؤخذ بشانتاج الفاشية . تذكر : لقد انضم بعض المثقفين الشيوعيين الى احتجاج معتدل ضد التدخل السوفياتي في المجر . وبعد الفتنة ، اتهمهم قادة الحزب الشيوعي بأنهم ساهموا – « عملياً » بالطبع لا بـ « النية » – في إضرامها . ان هذا أيضاً ، وايم الحق ، يبعث على الاشمئزاز . فلقد استخدم الموتى والجرحى الشيوعيون ضد رفاقهم . لقد اخطأ الاتحاد السوفياتي مئة مرة ، وقد أقر زعماؤه بذلك علناً ، ومع ذلك اذا لم تقبل بكل حماسة بأخطائه الجديدة فأنت قاتل موضوعياً . يقيناً ، انها مجرد كلمات

مكتبة الفكر الجديد

ليس إلا : فموقعو العريضة لم يشنقوا . لكن الحزب ليس في الحكم : تذكر سلانسكي ، راجك ، كوستوف . لقد بدأت ادانتهم في غالب الاحيان على أساس النتيجة العملية ، ثم جاءت النية بعد قليل ، وتلتها الاقرارات ، ثم الحبل . بيد ان جميع الناس يعلمون ان عصابات السيد بياجي كانت في حالة تأهب : فهل تعتقد حقاً ان هؤلاء الاوباش الشجعان كانوا ينتظرون ، ليبدؤوا عملهم ، بركة ثلاثة مناضلين من اقصى اليسار يجهلون حتى اسماءهم ؟ هل رأيتهم يندفعون الى القتال وهم يصيحون : « ج. ف. رولان معنا » ؟ حين كنا نفضح حرب الهند الصينية كنا نطعن الجنود الفرنسيين في الظهر . وحين ندين العدوان السوفياتي نفتح الباب للفاشية ونرشد القتلة الى أخيار المناضلين . ان الطريقة هي هي : مهما تكن الحقيقة ، يوجد هناك دوماً شيء اهم بكثير يجب ان يؤثر عليها : معنويات الجيش أو الأمة ، وحدة حزب ، شرف الأسرة ، وبكلمة واحدة المقدس . وواجب الوطني والمواطن والمناضل ان يروج الاكاذيب المفضوحة : ان عليه ان يحتفظ بها على لسانه كما لو انها قربانة ، لينقلها من ثم الى جاره بتقوى مصطنعة . ما الفائدة من ذلك ؟ من حين الى آخر تنفجر البالوعة — تقرير خروتشيف على سبيل المثال — ويتلقى هؤلاء المروجون المباركون البراز كله دفعة واحدة . ترى أمن الافضل تقسيطه ؟

ثم ان هذه القلاقل ، صدقني ، لن تتكرر : ان تظاهرة فاشية قد تسقط أمواتاً وتلحق الأذى بمبانٍ ، لكنها لا تستطيع ان تزعزع حزباً : فلقد شاهد غيرها ، وهو يعرف ، على العكس ، كيف يستفيد منها . اذ أن نتيجتها رص المناضلين صفوفهم وتناسيهم خلافاتهم . ولقد فهم اليمين بسرعة أنه يسير في الطريق الخاطىء . فقد وجهت الصحف في البداية ابتسامات جميلة لتلك الشبيبة الفرنسية المعتزة بنفسها التي كانت تحاصر قبضة من الرجال المحاصرين في مبنى مفرق شاتودون . لكن اسرعت تصحح موقفها في اليوم التالي : ان « الفيغارو » نفسها قد أعلنت أسفها لاندفاع أولئك « الطلاب » وحميتهم الفرنسية . والجمعية الوطنية ؟ بأي غالبية : ٤٥٣ صوتاً ضد ٨١ ! ومع ذلك لم يكن الحب هو الذي

مكتبة الفكر الجديد

يلهب مشاعرها ، انما كان النواب يقولون فيما بينهم : « لا نجعل منهم شهداء ، فسوف يفرقون من تلقاء انفسهم » . اذن ؟ لمَ ألزم الصمت ؟ تقول ان حرب الجزائر يجب ان تكون شاغلنا الأوحد الدائم : هـذا صحيح . لكن الحزب يرد لليمين تهذيبه . فلقد خدمه اليمين بعنفه ، وهو يخدمه بأكاذيبه الجـديرة بالرثاء : فمن يجد أن من الطبيعي ان يطلق جنود روس النار على عمال مجريين ، بأي حق يبدي استنكاره حين يطلق جنود فرنسيون النار على فلاحين عرب ؟ لقد توقعت الاعتراض ، وكتبت لي : « لا نستطيع المقارنـة ... ليس الشيء واحداً » . بالطبع ، ليس الشيء واحداً : لكن لم يعد المقصود هنـا حتى ولا الحقيقة ، انما أكلمك عن فاعلية حملة . ان الخطيب الشيوعي الذي سيرد أمـام جمهور شعبي على مناقضيه اليمينيين: « لا نستطيع المقارنة ، ليس الشيء واحداً ! » انت تعرف حق المعرفة ان الجمهور سيصفر له وسيكون قد خسر الجولة . هذا هو السبب في ان الطريقة الوحيدة لمساعدة الحزب الشيوعي على استعـادة حظوته ، ان كان ذلك ما يزال ممكناً ، هي معارضة اكاذيبه بالحقيقة طالما ان ذلك واجب حتى يقتنع المناضلون جميعاً . منـذ بضعة اشهر ، في بودابست ، وقفت صحفية مجرية تفضح الرفاه المهين الذي يرتع فيه كبار الموظفين . وقـد اعادت الصحافة الانكليزية نشر المقال وغضب راكوزي : أتسعى كاتبته الى الفضيحة ؟ أتريد ان تغذي الدعاية الامبريالية ؟ فـأجابت بكل بساطة : « الفضيحة انما هو ترفكم ، لا ما اقوله عنه » . وهذا ما سأرد به بكل طواعية على السادة فاجون وستيل وغويو : صحيح انني اجـد أكاذيبهم فاضحة وانني اصرح بذلك ، لكني لا اكشف شيئاً لأحد : فكل انسان يستطيع ان يشتري « الاومانيته » وان يصدر حكمه وهو على بينة من أمره . آه ! لو زعمت ان السيد ستيل اشترك ذات مساء ، في زقاق مظلم من أزقة مونمـارتر ، في جريمة اغتيال ، اكون قد افتريت افتراء مجانياً يمكن ان يلحق به الأذى : لكن جميع الناس يعلمون ، من مقالاته بالذات ، انه ذهب الى بودابست ، وانه رأى هناك الديموقراطية المجرية تغتال ، وانه صرح بسروره بذلك . فما الداعي اذن لأن

مكتبة الفكر الجديد

أحرج ؟ انني لا استطيع ان اقول عنه شيئاً اسوأ مما قاله ، ولا ان افعل شيئاً أخبث من ان ادعو الناس الى قراءته. حين يكذب الحكام السوفييت على شعبهم، لا استطيع ان اعـــذرهم لكني استطيع أن افهمهم : فهم في المعترك . انهم مرتبكون بصراعاتهم الداخلية، تشلهم ايديولوجيتهم ، واقعون في فخ « تهدئة» تتطلب باستمرار اعمال عنف جديدة : وفي هـــذه الظروف ، وحتى لو انتصر محطمو الستالينية على حين بغتة ، لا بد من وضع المسؤولين في السجن أو متابعة الأكاذيب لتجنب تفكك الجهاز . لكن حين ينشر اندريه ستيل بكل اطمئنان شعوذاته في تلك الاعمدة نفسها التي هذر فيها آخرون على راجك والمعسكرات والاطباء المجرمين ، وحين يعود من جديد ، بعـــد تلك التكذيبات والاهانات الكثيرة ، وبعد اعادة الاعتبار لكثيرين من الابرياء الذين لطخهم ببصاقه ، الى نفس تلك اللهجة المدعية للمعصومية المطمئنة وللتفاؤل المبـارك ، فإن القارىء يجد نفسه مرغماً على القول في داخله : « انه ليس في المعترك ، هو . انهم ليسوا في المعترك ، القادة الفرنسيين » . انني أعرف وأؤيد الصداقة الوثيقة التي تربطهم بالروس : لكنهم ، عند التحليل الأخير ، غير مسؤولين إلا أمام جمـاهير بلدهم العاملة . ومما يجعل المرء لا يجد لهم أي عذر البتة انه ليس هناك أي شيء يمنعهم من قول الحقيقة وان كل شيء يرغمهم على قولها . اننا لا نسألهم بالطبع ادانـــة عنيفة للتدخل السوفياتي . كلا، لكن فقط أن ينيروا رأي مناضليهم وناخبيهم، وأن يفسروا ، وأن يتراجعوا ، وألا يلطخوا أنفسهم على الفور بدم لم يسفكوه. أي حنق دفع بهم الى أن يجعلوا من أنفسهم متواطئين في تلك الجريمة البعيدة في حين كان في مقدورهم بكلمة واحدة أن يتبرأوا منها ؟ أكان واجباً أن يجروا معهم إلى المأزق المناضلين الذين وضعوا ثقتهم فيهم ؟ أكان من الضروري حقـاً اهانة الضحايا قبل أن يعرفوا شيئاً ؟ أما كان في مقدورهم أن يتجنبوا اطـلاع جميع الناس على فاقة ماركسيتهم وفقر معارفهم إلى درجة أثاروا معها استنكار مؤرخي حزبهم بالذات ؟ عجباً ! لقد أُرهموا طوال عشر سنين بأن الحبة قبة ، وبعد ذلك أفهموهم بغتة ، ذات يوم ، أنهم سخروا منهم . لكنها كانت أمثولة

مكتبة الفكر الجديد

لاتجدية ، فهم لم يتعلموا شيئاً ولم ينسوا شيئاً . وبالأمس أيضاً ، تعهد القادة السوفييت بأن يجعلوهم يأخذون حذرهم : فغداة بوزنان راح خروتشيف يتكلم عن الفاشية والامبريالية ، ونسب القلاقل الى عملاء الاجنبي ، لكن الحكومة البولونية كذّبت ذلك على الفور ، وأصمت الصحافة الروسية آذانها دون ذلك ، ولم تتخل عن أطروحتها ، وفي النهاية امتنعت عن ذكر أي شيء . كان ذلك كتجربة عامة للمأساة المجرية : فقد كانت الأدوار ووجهات النظر معروفة مقدماً ، وكان جميع الناس يستطيعون أن يتوقعوا ، إذا ما تمردت بودابست ، ان ينوّه خروتشيف بوجود فدائيين فاشيين وصلبان معقوفة في المجر ، وأن يكشف ناجي للعالم ان الشعب بأسره يدعم العصيان . لكن لم يكن لهذا كله من تأثير : ففي اليوم الموعود رأى المكتب السياسي للحزب الشيوعي الفرنسي عصا تتقدم وفي رأسها حبة ، فإذا بأعضائه يصيحون صيحة رجل واحد : « يا للقبة الجميلة ! » وترددت أصداء هذه الصيحة في مئة وثمانين الف حنجرة . لهذا السبب أقول لمراسلي : أجل ، انه الوقت المناسب ، المناسب جداً ، بل لعل الأوان قد فات أيضاً ! فحتى تصل الامور الى هذا الحد ، وحتى يتكرر الخطأ من جديد بعد أن فضح عشر مرات ، ويعلن عن أنه هو الحقيقة ، بالرغم من استحالة تصديقه ، فلا بد أن يكون الحزب الشيوعي الفرنسي مريضاً وأي مرض ! وإذا لم يسرع لبتره ، فإن القرح سيمتد وينتشر . ألا فلتنشرح صدور السادة دوسيه وبيدو وتكسييه — فينيانكور ! لكن صدور اليساريين لن تنشرح : فالحزب الشيوعي ، بما يناله من أصوات ، يظل حزب فرنسا الأول : فإذا ما لحقه النتن ، نقل عدوى الجدري الى اليسار بأكمله .

وبالفعل ، ماذا تستطيع أن تفعل التجمعات والفئات غير الشيوعية ؟ اذا اتحدت **بدونه** ، تكون قد حكمت على نفسها بالعجز . واذا اتحدت **ضده** ، تكون قد فتحت الباب للفاشية . يبقى حل ، حل واحد : وحدة العمل **معه** . والحال ان سياسته تجعل وحدة العمل هذه مستحيلة . ذلك أنه ما من أحد يجهل في النهاية ان **جبهة اليساريين المشتركة** لن تتحقق أبداً ، مهما تكن أهمية

مكتبة الفكر الجديد

التشكيلات الصغيرة ، بدون تفاهم دائم بين الحزبين العماليين الكبيرين . وهذا ما لم نكفّ عن ترديده هنا منذ عشر سنوات ، وهذا ما سنستمر في ترديده . ان الجبهة الشعبية هي وحدها التي تستطيع أن تنقذ بلدنا : فهي وحدها التي تستطيع أن تشفي أورامنا الاستعمارية ، وأن تحرر الاقتصاد من إسار المالتوسية ، وأن تزرقه بدم جديد ، وأن تنظم تحت إشراف العمال إنتاجاً كثيفاً لترفع مستوى الحياة الفرنسية . وهي وحدها التي تستطيع أن ترسي أسس ديموقراطية اجتماعية ، وان تسترجع السيادة القومية ، وأن تحطم الكتلة الاطلسية ، وأن تضع القوة الفرنسية في خدمة السلم العالمي . هذه السياسة ، الوحيدة التي تخدم جميع مصالح فرنسا ، الوحيدة التي تستطيع أن تجنبنا الانتفاضات الدموية والفاشية وربما الحرب الأهلية ، لا يملك أي من الحزبين ما فيه الكفاية من القوة ليطبقها وحده بدون الآخر . لكن هناك ما هو أدهى وأمر : ان أياً من الحزبين لا يستطيع بدون الآخر أن ينجو بنفسه من الازمة التي يجتازها . لقد شاخت بنية الحزب الاشتراكي الفرنسي إلى درجة لا بأس بها منذ عشر سنوات : فالعمر الوسطي لنوابه والعمر الوسطي لمناضليه بالذات لا يكفّ عن الارتفاع . والحزب الشيوعي يشيخ هو الآخر، لكن بصورة أبطأ . فعدد المنتسبين اليه من الشباب يتضاءل ، والجهاز على مستوى القمة لا يتجدد . ولقد كانت الاصابة بمرض تصلب الشرايين هي مآل المنافسات والكراهية المتبادلة والمعارك التي يقتل فيها الأخ أخاه بين هذين الحزبين غير المحصنين ضد الأذى . ولقد بلغ انحطاطهما درجة بات معها كلاهما مجرمين (حكومة السيد غي موليه تندفع في حرب عدوانية الى جانب المحافظين الانكليز ، وقادة الحزب الشيوعي يوافقون علناً على اعتقال العمال وتهجيرهم) وكل منهما يستغل جرائم الآخر ليبرر جرائمه . والحال أنه عندما يندفع أحدهما صائحاً « السويس ! » والآخر « بودابست ! » ، فمن الجائز أن يتمكنا من خداع مناضليهما ، لكنهما يسيئان الى حظوة اليسار بأسره بتبادلهما هذه التهم والتجريمات . ولا مفر من الاقرار بأن حزبينا الكبيرين هما أكثر أحزاب العالم

مكتبة الفكر الجديد

مدعاة لاحتقار الناس : فممثل الحزب الاشتراكي الفرنسي ، السيد كومـــان ، غادر تحت التصفير والاستهزاء اجتماعاً دولياً للاحزاب الاشتراكية ـ الديموقراطية . وقد استقبل السيد ستيل بتجهم في بولونيا ، وبتجهم أكبر أيضاً في بودابست . وفي مؤتمر الحزب الشيوعي الايطالي استقبل السيد ديكلو ببرود . وهـــذا الانخطاط يعبر عن أنخطاط البلاد : فالفئات الاجتماعية قـد تحجرت وتنضدت بعضها فوق بعض في فرنسا المخنوقة من قبل أرباب عمل تبنّوا المالتوسية مـدة طويلة من الزمن ، ولا شيء يتبدل ، ولا شيء يتحرك . وفي حين ان انقـلابات الانتاج الصناعي في البـلدان الأخرى تحدث تحولات ديموغرافية عميقة وتحدث هذه بدورها تبدلات عميقة في العالم العمالي تجـــد الاجهزة النقابية والمنظمات السياسية نفسها مضطرة معها الى التبدل بهدف التلاؤم ، نلفي الجمود الاقتصادي عندنا قد أحدث قطيعة عميقة في قلب البروليتاريا بالذات . والسياسيون والقادة النقابيون يستغلون هذه القطيعة بدورهم : فمنهـــا يعيشون ، ووجهات نظرهم المغرضة والمبتورة تعكسها . انهـــا ليست أخطاء فريق فحسب : فالاخطاء والكراهية المتبادلة تعبر عن تناقضات جامدة ثابتة . ومع ذلك فإن هذا اليسار المحطوم ، المشلول ، الذي يغرق نصفه في العزلة وينتهـــج نصفه الآخر سياسة اليمين ، أقول ان هذا اليسار هو الذي نضع فيـــه أملنا الأخير . ويكفي أن يهوي أكثر قليلاً حتى تصعد الفاشية . ويكفي أن ينهض ويتحـــد ويتجاوز تناقضاته الداخلية ، حتى تدب الحياة في فرنسا . ان علينا أن نراهن عليه مهما حدث : الجبهة الشعبية أو الخمول ، لا مفر من الاختيار .

انما هنا يستأنف مراسلي الكلام : « أو تعتقد حقاً اننا سنساهم في اعـادة لصق هذين النصفين المتباعدين بأن نضرب كالصم فوق رأسيهما معاً ؟ » . أجل ، أعتقد ذلك . إنه يقول : « إذا كان لا بـد أن نضرب ، فلنضرب الحزب الاشتراكي : فنحن نعلم ان قادته لا يريدون الوحدة . لكن الحزب الشيوعي ؟ ماذا يقول يومياً ؟ انه لا بـد من جبهة متحدة ! أنظر إليهم : من توريز الى مناضل القاعدة ، يمدون اليد لغي موليه ولدانييل مـاير وللاكوست . أليس

مكتبة الفكر الجديد

هذا بالضبط ما تتمناه ؟ » . كلا : ليس تماماً . انني أرى ان الحزب الشيوعي ينادي بالوحدة لكنه يتصرف بطريقة تصبح معها مستحيلة . لننظر الى ذلك عن قرب .

لقد انتهج الحزب الشيوعي ، منذ الانتخابات ، السياسة نفسها باستمرار . وخلاصة القول ان هدفه كان ان يدرك ، على الصعيد القومي ، الاهداف التي ينشدها الاتحاد السوفياتي في الميدان الدولي . فالمطلوب هو التطمين والمساهمة في الانفراج وتوسيع مناطق النفوذ الشيوعي عن طريق تحقيق جبهة مشتركة بين الاحزاب العمالية . والتحرر الواقعي للمجتمع السوفياتي من الستالينية هو الذي املى هذه السياسة على الاتحاد السوفياتي : فهي تعبر عن « ذوبان الجليد » وعن حاجة تلك الدولة الكبيرة للانفتاح . لكن ما كان ممكناً ان يكون لها معنى في فرنسا إلا اذا ترافقت بتحطيم واقعي للستالينية في الحزب ، أي بدمقرطة وانفتاح حقيقي ، وبكلمة واحدة ، ان ما كان يجب ان يتبدل انما هي بنية الحزب الشيوعي الداخلية ، وعلاقته بالجماهير ، وصلاته بسائر الجماعات السياسية والاجتماعية . كان يجب ان يعطي وان يأخذ ، ان يعطي ليأخذ ، وان يكون واثقاً بما فيه الكفاية في نفسه – بما في ذلك الميدان الثقافي – ليأخذ ويتمثل . ومن سوء الحظ ان الحزب احتفظ ببنيته الستالينية وبقيادته الستالينية : فكانت سياسة الانفتاح متناقضة مع ريبته العميقة وموقفه الانكماشي . ان الحزب الشيوعي ليس اليوم لا حزب جماهير ولا حزب اطارات تماماً . ان هذه التشكيلة ، التي تضم ١٨٠٫٠٠٠ مناضل ، فضلت ان ترضي صفوفها وان تترك الطبقة العاملة في الخارج بدلاً من ان تتوسع كالحزب الشيوعي الايطالي . فمنذ ١٩٤٨ راهن القادة الشيوعيون على الحرب : إن عدوانية الكتلة الاطلسية ستتزايد يوماً بعد يوم ، وعشية الصدام ستحل الحكومة الفرنسية الحزب . ولهذا ارادوا ان يظلوا على اهبة الاستعداد ، عصبة سريعة ومدربة ، لن تربك نفسها بأعداد كبيرة من الحزبيين ، وستنتقل بدون عقبات الى السرية . وقد تمت ستلنة الاحزاب الشيوعية وتخفيض اعدادها في فرنسا وأوروبا الوسطى بين

مكتبة الفكر الجديد

عروض مارشال الأولى وادانة تيتو الثانية . وكانت نتيجة هذا الانكماش ، هنا شأنها هناك ، ان انفصل الحزب عن الجماهير : فقد فقد وسيلة التأثير عليها إذ جردها من وسيلة مراقبته . إن خمسة ملايين ناخب يصوتون له كل أربع سنوات ، لكن هذه الاقتراعات لا يمكن ان تعتبر رقابة : فهؤلاء الناخبون يعطون اصواتهم « للحزب الأكثر تطرفاً يسارياً » ، الشيء الذي لا يعني البتة انهم يوافقون على سياسته كلها : إن الانتخاب هو دوماً ، الى حدّ ما ، تسوية . ونتيجة هذا التحول مزدوجة : فبقدر ما حوّل الحزب أولاً الى حزب « تبعي » ، حوله أيضاً ، بارادته أو رغماً عنه ، الى حزب برلماني . انه لا يحقق انتصاراته في المعمل ولا في الشارع : انما في الغرفة السرية ، يوم الانتخابات . وقوته تميل الى التطابق مع عدد نوابه فقط ، وعمله يبدو وكأنه محروم من الفاعلية على غير الصعيد البرلماني . لكن مناورات الاحزاب الأخرى في الواقع ، ولا سيما الخيانة الاشتراكية ، ادت على الفور الى تجريده من قوته : فهما تكن الغالبية للوهلة الأولى ، تشكل على الفور غالبية أخرى هدفها تجميد الأولى . علامَ حصل ؟ ان المانيا يعاد تسليحها ، والقتال يدور في الجزائر ، والاسعار ترتفع . لقد حرك العماليون نصف انكلترا ضد الحملة الفرنسية – البريطانية . فماذا فعلنا نحن ؟ ماذا فعل النواب الشيوعيون المئة والخمسون ؟ ماذا فعل الحزب بملايين اصواته الخمسة ؟ نستطيع ان نقول إنه جمدها . انه يرين بثقل ضخم على الحياة السياسية لكن هذا يعني فقط ان اصحاب الغالبية يقررون التصويت وهم **آخذون دوماً وجوده بعين الحساب** . ومن جهة ثانية ادت اهميته الجلية الظاهرة وعزلته السرية الى الابقاء على دكتاتورية المكتب السياسي والى تعزيزها : إن اندفاع الجماهير المباغت قد يخلخل الاطارات أو يجعلها تنفجر ، لكن هذا النظام الصغير المتحجر ، غير الفعال وغير القابل للرقابة ، لا يمكن ان يتبدل لا بعمله ولا برد فعل الآخرين . وكان من المحتم ان يدفع به هذا الوضع الى البحث عن التحالف الاشتراكي على الصعيد النيابي ، لأن اصوات الحزب الاشتراكية ، بانضمامها الى اصواته ، ستمنحه فاعلية واقعية بدون ان يعدل بنيته : وبالمقابل

مكتبة الفكر الجديد

كان الاتحاد على مستوى القـــاعدة سيقوده الى الانفتاح ، وإلى السماح للآخرين بالدخول اليه حتى يسهل عليه الدخول اليهم بدوره ، والى استبدال الحـــدود الدقيقة التي تفصله عن العالم بمنطقة انتقالية رجراجة بما فيه الكفاية يمتزج فيهـا الاشتراكيون والشيوعيون في نوع من اللاتمايز. ولا اعتقد ان هناك مجالاً للكلام، كما فعل هرفيه ، عن الانتهازية اليمينية والانتهازية اليسارية : فهذان المفهومان لم يعد لهما نفس المعنى تماماً منذ موت ستالين : انمـا سأقول بالاحرى ان بنية الحزب الشيوعي كانت متناقضة تناقضاً فاضحاً مع سياسته : وبالنتيجة كان لا بد حتماً ان تظل هذه السياسة عاجزة وغير واقعية .

واستفاد المؤتمر الرابع عشر من المؤتمر العشرين السوفياتي ليعطي شكلاً نظرياً لخط السلوك الذي تبنـــاه المكتب السياسي . فالفصل الخامس من الموضوعات يلح على « إمكانيات التحويل السلمي للاقتصاد الرأسمالي الى اقتصاد اشتراكي » . لكن إذا كان الحزب قد أنكر التمرد المسلح والحرب الاهلية ، فليس ذلك فقط كي يأتي الانفراج **الداخلي** ليدعم الانفراج الدولي ، بل ايضاً لأن هذا التبدل النظري يسمح باستبدال وحـــدة القاعدة بوحدة القيادة . وبالفعل ، ان تحالف البروليتاريا والطبقات المتوسطة « سيحول البرلمان نفسه من اداة للدكتاتوريـــة البورجوازية الى أداة بيد الارادة الشعبية » .

لقد انتُقدتْ هذه الموضوعـة كثيراً . لكن من الخطأ ان تعتبر إصلاحية . والواقع انه ليس المقصود الحصول ، بفضل الانتخاب العـام ، على سلسلة متصلة من تحسينات ستؤدي بصورة غير محسوسة الى اختفـــاء الرأسمالية : فالجبهـة الشعبية ، التي ستحملها إلى السلطـة أصوات الفلاحين والعمال المثقفين ، ستحقق بالجبر التحويل الجذري للمجتمع . والثورة ، بوصفها انتقالاً مفاجئاً من نظام آفل الى بداية نظام ، ستتحقق عند استلام السلطة . وكل ما هنالك انها تكون قـد فقدت طابع العنف . كما انني لا أعتقد ان الموضوعة متناقضة ، كما قيل ، مع قرار المؤتمر الثاني للأممية الشيوعية . وبالفعل جـــاء في ذلك القرار : « ان الشيوعية ترفض ان ترى في البرلمانية شكلاً من أشكال مجتمع المستقبل . وهي تعتبر أن

مكتبة الفكر الجديد

هدفها إلغاء البرلمانية . ولا مجال لاستخدام المؤسسات الحكومية البورجوازية إلا بهدف تدميرها » . والمؤتمر الرابع عشر لا ينكر ذلك : إنما هو يحدد ان البرلمانية قادرة ، في الشروط الراهنة ، على أن تصبح وسيلة تسلّم السلطة . لكنه حرص على ألا يقول مـــا ستفعله الجبهة الثورية بالسلطة عندما ستستولي عليها . ولا شيء يثبت ان فعلها الأول لن يكون إلغاء البرلمان .

اما الشيء الاقل طابعاً نظرياً والاخطر بكثير فهو ان الموضوعات الجديدة تضفي صفة شرعية على ممارسة الحزب الشيوعي الضارة : « طالمـــا ان أصوات فئاتنا البرلمانية تختلط في الجمعيـــة الوطنية ، فلمَ لا نسهل مهمتها بالعمل معاً في البلاد[1] ؟ » . فكما نلاحظ من هذا النص المدهش ، ليست وحدة المصالح او الشروط العميقة هي التي تفرض النضال في سبيل إعادة تجميع الحزبين اليساريين الكبيرين . ولا يقال للعامل الاشتراكي انه من نفس طينة رفيقه الشيوعي وانه ، أشاء أم أبى ، يخوض النضال نفسه . كلا لا يقال له ذلك ، لكن طالما ان الفئات البرلمانية تصوت بالطريقة ذاتهـــا ، فإن العمال الذين انتخبوا هـــذه الفئات سيستفيدون ، مهما تكن بالأصل خلافاتهم في وجهات النظر ، من كل عمليـــة تجمُّع . ان التصاهر على مستوى القمـــة هو الذي يبرر التقارب على مستوى القاعدة، وليس هذا من الماركسية في شيء . ثم أن الحجة معدومـــة الفاعلية : ولا سيما في فرنسا حيث يرتاب العامل تقليدياً بنائبه . لكنها مرغوبـــة **لعدم فاعليتها بالذات** : لأن كل المقصود إتاحة الفرصة امام تجمع انتخابي يفسح المجال امام ارسال غالبية يسارية الى الجمعيـــة الوطنية . والوسط الحقيقي للتقارب إنما هو البرلمان نفسه . والهدف من كل هذه الاعتبارات النظرية إرغام الحكومة الاشتراكية على القبول بالدعم الشيوعي رسمياً . وهذا ما يفسر ان توريز أمكنه ان يقول مؤخراً انه من الواجب « جر الحزب الاشتراكي في مجموعه الى وحدة العمل . ان من الممكن ، على مستوى القاعدة ، ان تجري محاولات لفصل اليسار الاشتراكي عن حزب السيد موليه . أما في الجمعية الوطنية فإن السيادة لموليه :

---

١ – المؤتمر الرابع عشر : نداء الى الرفاق الاشتراكيين.

مكتبة الفكر الجديد

على جماعته وعلى البلاد . ان « الحزب الاشتراكي في مجموعه » هو موليه بعينه . والتفاهم إنما يجب ان يتم معه .

وانما معه ، على وجه التحديد ، لن يتفاهم الحزب الشيوعي ابداً . ويجب ألا يخامرنا الشك في ذلك : ان نزعة عداء الشيوعية لدى الاشتراكيين هي على اوضح واشد مـــا تكون لدى الفئة البرلمانية . ففي المعـامل ومكاتب الادارة يرتبط الشغيلة اولاً برابطة العمل والمطالبات . اما الفئة البرلمانية ، المنغلقة على ذاتهـا ، فمفصولة عن الفئة الشيوعية بهوة سحيقة . فالخوف هو المهيمن . والحقد كذلك . فحين يفكر أحد نواب الحزب الاشتراكي الفرنسي بالنكبات الرهيبة التي منيت بهـــا الأحزاب الاشتراكية ــ الديموقراطية في الديموقراطيات الشعبية ، يقفّ الشعر على رأسه . ثم يأخذه الحنق حـين يفكر بأن زملاءه من الحزب الشيوعي يعتبرونه مجرد خائن ، وبأن ابتساماتهم وغمزاتهم تخفي ازدراء لا يلقي سلاحـه ابداً . لكن هذه المشاعر الكبيرة لن تكون بذات بال لو لم تكن هنـاك ايضاً الصغيرة . فالمنافسات الانتخابية لها اهميتها البالغة : في كل مرة اتحد فيها الحزب الشيوعي والحزب الاشتراكي ، كان ذلك في صالح الحزب الشيوعي . وإن للحزب الاشتراكي إقطاعاته وهو يريد ان يحتفظ بهـا . والنتيجة هي ان سياسة الحزب الشيوعي تشبه باليه ظريفة ورتيبة : الوحش يجري خلف الجنية ولا يدركهـــا ابداً . والحزب الشيوعي يداري غي موليه وغي موليه لا يريـد ان يعرف عن ذلك شيئاً . انه يرفض الأصوات الشيوعية او يأخذها بملاقط . ولقـد صوت له الحزب الشيوعي على سلطات خاصة : وسرعان مـــا استدارت الحكومة نحو اليمين وشكرته . ان الحقـــد والخوف من الوقوع في ايدي النواب الشيوعيين يسلخانه عن اليسار ويجذبانه نحو « الحركة الجمهوريـة الشعبية » ونحو المستقلين . انه يخون ، كما يقول دوفرجيه . فهل سيفضح الحزب هـذه الخيانة ؟ بالمرة : فلا بد ، أليس كذلك ، من ترك احد الأبواب مفتوحاً . ان « الاومانيته » تتشكى بكآبـة : ففي عشية الانتخابات كانت تأمل في غـــد آخر . والفئة البرلمانية تستنكف حين تكون واثقة من ان موليه سيحرز الغالبية . وصحيح ان الحزب

مكتبة الفكر الجديد

يتكلم عن الجزائر : لكن باعتدال . وحتى لا يخسر ماء وجهه ، تزمجر صحافته قليلاً . لكن من المتفق عليه ألا يثير الحزب شغباً . وحركة انصار السلم ، التي كانت كبيرة النشاط ايام السيد بيدو وحرب فييتنام، قد سقطت خارج المعترك : لا حملة قومية ، لا مهرجانات ، لا « ايام » . ومناضلوها يتشكون ، وبعضهم يستقيل : فلا يُثنى . اما بالنسبة الى الطبقة العاملة فإن نتيجة هذه السياسة وربما هدفها هي ان معنوياتها قد تحطمت تماماً : فلا شيء يشبه اضرابات عمال ميناء مرسيليا او المظاهرات من اجل تحرير هنري مارتن . ان العمال متقززون من حرب الجزائر لكنهم متروكون بلا شعارات ، بلا تعليمات . ان الحزب الشيوعي يحصد ما زرعه : فهو عندما يحتاج الى الجماهير لا يجدها البتة . وفشل المظاهرات المضادة ، في ١٣ تشرين الثاني ، لا يعني فقط ولا حتى على الأخص ان عمال الاتحاد العام للشغل يدينون التدخل السوفياتي[١] . إنما هو دليل على نوع من ضلال وافتقاد الى اتجاه : ان الطبقة العاملة متروكة لقوى التكتيل المميعة . والفرنسيون اليساريون ، الحيارى ، لا يعرفون ماذا يقولون . ان بعضهم يفكر : « إذا كان غي موليه يفعل حرب الجزائر تلك ، وإذا كان توريز يغض النظر عن ذلك ، فقد تكون عادلة ، بعد كل شيء ؟ » . كذلك فإن اشتراكيين ، اناساً شرفاء ومتورعين من الحزب الاشتراكي ، يقولون عندما يقرأون « الاومانيته » : « نسمع جعجعة ولا نرى طحناً » . وهذا يطمئنهم : فلو كانت هناك حركة شعبية لشجعتهم ، ولربما أرغمتهم على معارضة الحكومة . اما ذلك العنف اللفظي ، الذي سرعان ما يتأكله الصمت ، فإنه يمنحهم ضميراً راضياً بتكاليف قليلة . واثناء ذلك يضيع ٥٠٠,٠٠٠ شاب وقتهم في الجزائر ، إن لم يضيعوا صحتم او حياتهم ، والاقتصاد منهار ، والعمال عاطلون عن العمل ثلاثة أيام في الاسبوع . تلكم هي نتيجة باليه اليساريين تلك ، التي يريد أحد الحزبين ان يعانق فيها الآخر فيتجنبه هذا بوقوفه الى يمينه .

ومع ذلك جاء ، منذ حوالي شهرين ، بضعة نواب اشتراكيين اشمأزوا من

---

١ ـ ان تراجع الاتحاد العام للشغل في الانتخابات النقابية هو علامة واضحة على استهجانهم.

مكتبة الفكر الجديد

شعبذات غي موليه ، جاءوا من تلقـــاء أنفسهم ليطرحوا فكرة جبهة شعبية جديدة . وانما آنذاك قدم قادة الحزب الشيوعي خدمة تذكر لرئيس الحكومة: فقد وافقوا بكل خفة على مجزرة بودابست . والحق ان السيد غي موليه ما كان يأمل في كل هذا المغنم . لكنه استفاد كل الاستفادة من حظه وحرك بشيء من المهارة « الهستيريا المعادية للشيوعية » . ومن أخذوا بالأمر قبل غيرهم انمـــا هم نفس اولئك الذين كانوا يفكرون ، بالأمس ، بالتقـارب من الحزب الشيوعي . ولقد جن جنون اولئك الاشتراكيين : من الفرح لأنهم نجوا بجلودهم ، ومن الحنق لأنهم ركبوا مجازف مميتة . بل اعتقد ان من بينهم « سادة ناضجين » زحفوا الى السفارة السوفياتية . فهل أدرك المكتب السياسي ولو بصورة ناقصة انه قضى لعدة سنوات على حظوظ جبهة متحدة ؟ وهل آمن قط بوجود هذه الحظوظ ؟ لست انا الذي سيقرر ذلك .

انت يا من يسألني إذا كان الوقت مناسباً للكلام ، أنظر إلى هـــذا الحزب الشنيع الذي يحـــاصر ويجمد خمسة ملايين صوت ، ويثبط همة الطبقة العاملة ، ويهجر العمل الجماهيري الى المناورة البرلمانية ، ويفضح برخـاوة حزب الجزائر ليداري – بلا جـــدوى – الاشتراكيين ، ولا يتردد في الوقت نفسه في تبرير ريبتهم بتصريحات غير عاقلة عن أحداث المجر . قل لنفسك ان موقفه لم يعـــد حتى موقف الخضوع غـــير المشروط للاتحاد السوفياتي ، وان قادته يزوّرون ويشوهون النصوص السوفياتية او يرجئون نشرها ؛ وانهم يخفون او يقللون من شأن التقدم الذي تحققه اللاستالينية حتى في الاتحاد السوفياتي ويحيّون عالياً كل سياسة مستلهمة من شبح ستالين . فكر بـــأن هؤلاء القادة انفسهم ما عادوا يكتفون بالقبول بقرارات الاتحاد السوفياتي وانما يتباهون بأنهم يؤثرون عليها ، وانهم يعتمدون على أكثر فئـــات الجهاز تمسكاً بالستالينية ويساهمون بالتالي في تعزيز نفوذها ، وبالنتيجة في إبطاء الدمقرطة في كل مكان ، وتذكر أخيراً ان كل تلك الأخطاء وكل تلك الأغلاط وكل تلك التدميرات انما كان هدفها ونتيجتها تحجير بعض البنى الرثة المهترئة داخـــل الحزب الشيوعي ، وهي بنى كانت

مكتبة الفكر الجديد

مناسبة لزمن الحرب الباردة لكنها تحكم عليه اليوم باللافعالية ، وَزِنْ تلك الاخطاء التي يمكن أن تكون قاتلة وقل لي ان لم يكن الوقت مناسباً ، مناسباً جداً ليفضح أنصار الجبهة المتحدة جهاراً العقبات التي تؤخر تكوينها . افهمني : من الواجب ايضاً التأثير على الحزب الاشتراكي . لكن الموقف الاشتراكي محدد بسياسة الحزب الشيوعي : فلن يتخلص أبداً مناضلو الحزب الاشتراكي الفرنسي من الخوف الذي يتأكلهم طالمابقي الحزبُ الشيوعي ذلك المسخَ ما قبل التاريخي، الرهيب والعاجز معاً . ذلك ان خيانتهم – وهم يعرفون ذلك جيداً – هي التي تحكم عليه بالعجز ، وإذا ما اقتربوا منه عادت اليه على الفور قدرته على الأذى . انهم يشعرون بأنهم نسبيون : فحزبهم لا يملك سوى ثلاثة ملايين ناخب ، ثم ان أحداث أوروبا الوسطى على الأخص تجعلهم يعتقدون بأنهم سيؤكلون . ولن يكون في الامكان تبديد مخاوفهم ونفورهم إلا بمقدار ما نؤثر اولاً على الحزب الشيوعي . لقد كان نظام الطوائف في الهند يولد تناقضات مستعصية على مختلف مستويات المجتمع لكن غاندي كان يرى ان لا فائدة من أخذها جميعاً بعين الاعتبار . وانما كان يفكر بأنه « لا بد من إيجاد أس البناء وتركيز الجهود كافة عليه وحده » . ونحن نعرف انه اكتشف ذلك الأس بدون مشقة : فقد كان بكل بساطة طائفة المنبوذين . وكذلك لا بد أولاً ، لتحطيم التحجر الذي يهدد بتحويل اليسار الفرنسي الى نظام طوائف ، من التأثير على منبوذي مجتمعنا المتكبرين ، على الشيوعيين غير القابلين للمس فليتغيروا اولاً ، ويكون كل شيء قد أنقذ .

١ً – كان الحزب الشيوعي سيجرد دعاية السيد موليه المعادية للشيوعية من كل حجة لو انه أطلع قراء « الأومانيته » وزودهم بالمعلومات على شكل واسع ونزيه ، ولو انه قدم لمناضليه ، بدلاً من ان ينسخ حرفياً الصيغة السوفياتية ، الوسيلة لتكوين الرأي ، ولو ان الناطق بلسانه ، السيد فاجون ، بذل جهده حقاً لتحليل الموقف في المجر، بدلاً من أن ينشر على نحو اخرق ازدراءه بالجماهير . سيقال انني أحلم ، وان هذا لم يكن في المستطاع ، وان الاتحاد السوفياتي ما كان

مكتبة الفكر الجديد

سيسمح به . هذا صحيح . او بالأحرى ، هو صحيح في فرنسا . أفلم يقل توليياتي بالأمس : « ان ما لا نستطيع ان نقبله هو العودة الى النظام الماضي – التدخل في شؤون الأحزاب الداخلية . . . التحريض على الانشقاقات في الأحزاب الأخرى او في مجموع الحركة العمالية – دونما اي اهمية لمن يقترح ذلك . . . اننا ضد العودة الى اي شكل من اشكال التنظيم المركزي (في المجـــال الدولي[1]) » . ثم لا بد للمرء من معرفة ما يريده : الجبهة الموحدة او الخضوع غير المشروط للاتحـــاد السوفياتي . وعلى كل حال يستحيل الجري وراء كلا الارنبين معاً. ومن العبث أن ينفصل الحزب عن الاتحاد السوفياتي او ان يقطع صلته به . لكن لا يقل عن ذلك عبثاً أن يخضع له بلا تحفظ . لقد كان الاتحاد السوفياتي ، في ظل ستالين ، هو الحقيقة : وهو لم يعـــد كذلك اليوم . فالمؤتمر العشرون قـد كشف تحت بديهيات الستالينية الزائفة كومة من الأكاذيب والأخطاء والأغـــلاط. فكيف يمكن بعد ذلك ان يطالب حزب شقيق ان ينكر المعصومية على ستالين ليسلم بها لخروتشيف ؟ بيد ان الاتحاد السوفياتي ليس هو الخطأ ايضاً : انما هو أمة تصنع نفسها ، تتخبط في تناقضات الاشتراكية ، يرى زعماؤها احياناً الى أبعد بكثير مما نرى نحن واحياناً اخرى اقل بكثير مما نحن نرى . لقد انقضى اوان الحقائق المنزلة والكلمات الانجيلية : ان حزبـــاً من الأحزاب الشيوعية لا يستطيع ان يعيش في الغرب إلا اذا اكتسب الحق في التمحيص الحر . ولا يتكلم احـد عن التيتوية : فالحزب الشيوعي الفرنسي غير قادر عليها بعد . انما القصد ان نطرح مبدأ : ان الحزب الشيوعي غير مسؤول إلا أمام الطبقة العاملة في بلاده . وان عليه ان يتقيد بذلك . وينجم عن هذا بالضرورة بالنسبة الى الاتحاد السوفيـاتي الإلزام بمعاملة الأحزاب الغربية معاملة الند للنـــد . فلو شرح القادة الفرنسيون للقادة السوفييت ان الجبهة الموحدة تستلزم هذا الثمن ، أفمـا كان الأخيرون

---

١ – خطاب ٩ ايلول ١٩٥٦ في المؤتمر الثامن للحزب الشيوعي الايطالي . كل ما هنالك ان الحزب الشيوعي الايطالي لم ينفصل قط عن الجماهير : فأعضاؤه المليونان يمنحانه قوته وحياته ، وهو يلقى عندهم دعماً ورقابة . اما الحزب الشيوعي الفرنسي فيظل معلقاً في الهواء .

مكتبة الفكر الجديد

سيتشجعون على اعادة النظر في علاقاتهم مع حزبنا الشيوعي ؟ وذلك الارتخاء الذي اصاب الروابط الدولية ، ذلك التخلي عن « المركزية » ، ألا يسير في خط سياسة نفوذ وانفتاح ؟ الإعلام الصحيح (وهذا لا يعني « الموضوعي ») والتقييم السليم والمخلص ، والمساواة في العلاقات مع الاتحاد السوفياتي : ان هذا كله مترابط . وبدون هذا الشرط الأول ، يظل اليسار الفرنسي ميتاً والحزب الشيوعي متحجراً كمومياء .

٢ – تظل الجبهة الموحدة غير قابلة للتحقيق ما دام الحزب الشيوعي يعاند في البحث عنها في القمة عن طريق تفاهم الفئات البرلمانية . إن الجبهة لن تتحقق إلا على مستوى القاعدة، هذا اذا كانت ستتحقق ذات يوم. لكن كما بينت آنفاً، يظل الحزب الشيوعي عاجزاً ، طالما انه يحتفظ ببنيته المرصوصة بوصفه جماعة مضطهدة ، مهددة بالحل ، تتهيأ لدخول الحياة السرية ، اقول يظل عاجزاً كل العجز عن تحقيق ذلك الامتزاج الكبير الذي سينتج ذات يوم الوحدة . إن حواجزه وسدوده المحكمة الاغلاق[1] تؤدي اليوم الى فصل المناضلين الى جماعات متنافرة من عمال وبورجوازيين صغار ومثقفين : وهذا التباين في التكوين والمصالح والبيئة يستلزم ويبرر سلطة الجهاز الدكتاتورية . ويأتي انعزال الفئات المتباينة ليسهل الأمور على هذه السلطة. إن من الواجب تحطيم بنى الريبة هذه ، ومضاعفة الاحتكاكات بين المناضلين اذا كانت هناك رغبة في الوصول ذات يوم الى اعادة الاتصال بين المناضلين والجماهير . ان تنظيم الحزب الشيوعي ، المتلائم تماماً مع العمل السري ، عاجز بمفرده عن تأمين العمل الواسع والحي لحزب معترف به رسمياً . وبقدر ما يحتمل ان يحل الاضطهاد ذات يوم محل التسامح

---

١ – المثقفون بعيدون عن كل احتكاك مع العمال . فالطلاب يناضلون في خلايا الطلبة ، والاساتذة في خلايا التجهيز، وحضور ضارب الطبل أو خادم المطعم لا يمكن ان يعتبر على كل الاحوال احتكاكاً مباشراً مع البروليتاريا الصناعية . والكتاب الذين يعيشون عادة في مراكز بورجوازية يعاشرون البورجوازيين الصغار في خلية الحي . والمسؤولون يستفيدون عن طواعية من الريبة التي يوحي بها المثقفون للعمال اليدويين . وحتى في جلسات حركة انصار السلم يعارض « قاطع الشعرة الى اربع » بـ « المناضل الذي يقوم بالدعاية من باب الى باب » .

مكتبة الفكر الجديد

الرسمي ، فإن هذه البنية المقفصة المسرودة يجب ان تبقى. لكن يجب ان توازَن بمضاعفة الاحتكاكات والاتصالات. وان الاتهام الرهيب بـ « النشاط الانقسامي » يعزز انفصال الحزب الداخلي ، وهو الذي يغذي الارهاب الذي يحظر التواصل بين البشر وجريان الافكار . اننا نستطيع ان ندين ، كما فعل لينين ، النشاط التكتلي بشرط ان تتوفر لدى « الاتجاهات » الوسيلة للتعبير عن نفسها في اجهزة الحزب . لكن لا مجال للشك اليوم في ان الاتجاهات تصبح تكتلات وانقسامات لأنها لا تستطيع التعبير عن نفسها في الاطار التأسيسي للحزب الشيوعي . ان التكتلات لا يمكن تجنبها إلا بتشجيع النقد والمناقشات **على جميع المستويات** . ان المناضل في هذا الحزب الجماهيري ، المضطرّ الى التزام الصمت داخل الكتل المتكونة ، المدان إذا ما عبر عن افكاره في خارجها ، يجد نفسه في الواقع وحيداً كل الوحدة حيال القيادة وانعزاله يعكس انعزال الحزب الشيوعي . وإذا كان الحزب يريد ان يستعيد دعم الجماهير العمالية ، فلا مناص من ان يقبل برقابتها . وطالما ان عناصر القاعدة لن تتصل فيما بينها إلا بواسطة القمة ، فإن الحزب الشيوعي سيبقى مغلقاً . وإذا كان يريد الالتحام بالجماهير ، وان يعيد إليها الوحدة وان يستعيد الحياة عن طريقها ، فلا معدى من ان يخفف من انضغاطه . وهذه العملية بالذات ، المستندة الى سياسة انفتاح ، هي ما يمكننا تسميته بالدمقرطة . وليس الوقت مناسباً الآن لتحليل الشكل الذي يمكن للحزب الشيوعي ان يقبل على اساسه بانبعاث الاتجاهات : لكن على فرض ان القادة انفسهم أرادوا تشجيع الاتجاهات ، فإن تحجر البنى وتعظمها لن يسمحا لها بالتعبير عن نفسها . إذن فهذه المسألة البالغة الأهمية منوطة بالتعديلات التي يتوجب على الحزب ان يدخلها على تكوينه بالذات إذا كان يريد ان يعود من جديد حزباً جماهيرياً وان يفرض عن طريق القاعدة تلك الجبهة الموحدة التي يعاند الحزب الاشتراكي في رفضها .

المساواة في العلاقات مع الاتحاد السوفياتي ، صحة الإعلام ، الدمقرطة ، استئناف التماسّ مع الجماهير وتعبئتها ، وضد حرب الجزائر **اولاً** : هذه هي

مكتبة الفكر الجديد

شروط الضرورية لانبعاث الحزب الشيوعي ، وكيما يحقق الحزبان العماليان كبيران جبهة مشتركة . وانا لا أفرق بين الشيئين . فلكل « يسار » مشاكله : مشكلتنا هي مشكلة الاتحاد العمالي . وكما ان من التجريد ان ننظر الى الحزب شيوعي من خارج هذا الموقف العيني ، كذلك فإن من منتهى التجريد ان نظر إليه بدون ان نأخذ بعين الاعتبار روابطه مع الاتحاد السوفياتي . اما من جهتنا نحن فها قد مضت اثنتا عشرة سنة ونحن نتناقش مع الشيوعيين . في البدء منف ، ثم بمودة . لكن هدفنا كان دوماً واحداً : ان نساهم بقوانا الزهيدة في حقيق اتحاد لليسار الذي يستطيع وحده ان ينقذ بلادنا . واليوم نعود الى لمعارضة : لسبب بسيط وهو انه لا وجود لموقف آخر . فالتحالف مع الحزب شيوعي بوضعه الحالي ، وبالوضع الذي يريد ان يلبث عليه ، لا يمكن ان يؤدي لا الى إحباط آخر حظوظ الجبهة المتحدة. إن برنامجنا واضح : ان عمليه تحطيم ستالينية مستمرة عبر مئة تناقض وعبر صراعات داخلية ومجازر ، واللاستلنة ي السياسة الوحيدة الفعلية التي تخدم في الوقت الراهن الاشتراكية والسلم تقارب الأحزاب العمالية : ولسوف نحاول ، بطاقاتنا كمثقفين ، وقرائنا من لمثقفين ، ان نساعد على تحرير الحزب الشيوعي الفرنسي من الستالينية .

« الأزمنة الحديثة » الأعداد ١٢٩ – ١٣٠ – ١٣١
تشرين الثاني – كانون الأول ١٩٥٦ – كانون الثاني ١٩٥٧ –

مكتبة الفكر الجديد

عندما يقرع البوليس ثلاث مرات ...

الحرية في خطر . فالحقد الأعمى المتأجج في صدور المقاومين والمنفيين وأبناء المنفيين قد ثار على « ملكة قيصرية » وعلى أمرأتين مسكينتين السيدتين روبيه – جانسكي وكوسيا اللتين اضطرتا الى مواجهة الأوباش بمفردهما ، وقد تخلى عنهما الجميع وحتى القوة العامة . وبالفعل ، لقد استسلم المحافظ في النهاية للشارع . وقد عبّر السيد ماركابرو في « آر » عن انفعاله الديموقراطي . وأدانت « الفيغارو »، باسم حقوق الانسان، هذ الاستقالة الجديدة من جانب الحكومة . وقد شاهد ج. غوتييه المسرحية وأعلن أنه يضمن اخلاقيتها . وفي مقابلة صحفية تعلمنا السيدة كوسيا أنها أفلست : فهي قد رهنت مجوهراتها حتى تستطيع، في النهاية ، أن تلعب دوراً تحبه .

لا شيء جديد ، كما نرى . انه التهريج المعتاد ، واننا لنتعرف أصحابنا ، وهم أسرى أدوارهم حتى الموت ، لكنها أدوار مسلية للغاية هذه المرة . والشيء الجديد – ليس جديداً للغاية – هو أن يساراً معيناً ، اليسار الذي نحن منه ، اليسار الذي نحبه ، صعد إلى خشبة المسرح ليمثل دور الكهل المخدوع . ألا ما أشد حرجه ، هذا اليسار ! فها هوذا من جديد حبيس نصلي مقص كبير صُنع خصيصاً من أجله : لا حرية لأعداء الحرية – الحرية للجميع ، حتى لأعداء الحرية .

أعتقد انني قرأت جميع المقالات التي كتبت حول هذه القضية : إنها تؤلف حتى – وبما فيها – الاكسبريس كتلة واحدة ، وبدءاً من الاكسبريس يتدبر كل

مكتبة الفكر الجديد

واحد أمره على حد استطاعته . ان الديموقراطيين المتصلبين في « كانار آنشينيه » قد كتبوا من جديد ، ومن دون علمهم ، مقال ماركابرو . أما الديموقراطيون المرهفون فقد أحتموا بالحساسية : « أواه ! كلا ، بدون عنف ! لكن أولئك المنفيين ، وأبناء المنفيين أولئك ، فلنفهم على كل الأحوال ان من الواجب أن نفهمهم » . يا للحجة الكئيبة . ان أمثال سكابان [1] من اليمينيين ينظرون ويقطبون وجوههم : فلا الألم ولا الجدارة يمكن أن يبررا التآمر على الحرية .

انهم على حق ، كل الحق . لكن بشرط واحد ، هو ان **تكون هذه الحرية موجودة** . هذا هو جوهر المشكلة . ان ذلك المقص مقص زائف ، وذلك المقلب السكابانى مقلب قديم : لكنه ما يزال صالحاً طالما اننا ما زلنا نؤخذ به . أنه يبدأ بضربة الشمولية : « أنتم الذين أعلنتم احتجاجكم عندما منعت مسرحية فايان ، احتجوا بالقدر نفسه حين تمنع مسرحية كاتب فاشي أو اعترفوا بصراحة ان عندكم وزنتين ومقياسين » . وفي تلك اللحظة المحددة تبدأ عملية إظهار الأشباح : فاليمين إذ يسألنا في منتهى اللطف أن نطبق مبادئنا بالذات يقنعنا بأن الديموقراطية حقيقة واقعة وانه يكفي أن نتفاهم لنحافظ عليها . وفي كل ذلك الجدال يبدو الخصوم وكأنهم يتفقون حول نقطة محددة : ان أي كاتب مسرحي يستطيع ، بشرط أن يملك حداً أدنى من الموهبة وأن يتقيد ببعض النصوص العامة جداً — والمقبولة تماماً — من القانون ، أقول يستطيع ، مهما يكن شأنه ، أن يعبر عن نفسه بحرية على المسرح الفرنسي . فإذا لم ينل الاعجاب ، لم يذهب الناس لمشاهدته ، هذا كل شيء . يقيناً ، تقع أحياناً قلاقل وتقوم ضجة : لكن اليقظة الديموقراطية التي تبديها « كانار » و« الفيغارو » المتحدتان كفيلة في النهاية بإعادة الهدوء .

أما فيما يتعلق بالشمولية ، فليس لدي ما أقوله هنا سوى انها غير متحققة في أي مكان ، ولا حق في فكر الشموليين ، وان مهمتنا أن نحققها عبر

---

١ — « ألاعيب سكابان » — مسرحية مشهورة لموليير ، بطلها سكابان أصبح مضرب المثل في المخاتلة والمكر البارع . « هـ. م. »

مكتبة الفكر الجديد

خصوصيات تتصارع ولا تتفاهم إلا لتنفيها : وفي كل مرة نعمل أو نصدر حكمنا كما لو أن ملكوتها قد بدأ ، نكون مخدوعين ومذنبين. وعلى كل الاحوال، نكون قد أخذنا مكاننا في السقف ، فوق المعترك . أما حرية التعبير فتلك قضية أخرى : فما دام البعض يزعم انها مهددة ، فلعل هناك بعض الفائدة من التساؤل عما إذا كانت موجودة .

يستطيع المرء، في كتاب ، ومع بعض التحفظات، وبركوب المجازفة أحياناً، أن يقول ما يريده . أو أن يقول ذلك بشكل تقريبي . وعلى كل ، فإن المؤلف يكون أكثر حرية كلما كان الموضوع ألصق بالتكنيك أو كلما كان العمل أغلى ثمناً . لكني لن أقول الشيء نفسه عن المجلات والمنشورات الدورية . أما الصحف فهي أسيرة أو محاصرة ؛ فصحف المعارضة ، المهددة يومياً بمصادرة باهظة التكاليف ، واقعة تحت رحمة حكومة تستغل ضائقتها المالية لتقودها الى الافلاس . واذا كان هذا لا يكفي ، فإن قانون « رفع معنويات الأمة والجيش» يسمح بإيقاف أيّ كان ، في أي وقت ، ولأي سبب . وتجاه هذه الصحافة العاجزة المفروضة عليها الأقامة الجبرية ، تتمتع إذاعة الدولة والسينما بالغبطة الوديعة التي تحل أحياناً على الأغبياء : فلحماية هؤلاء من أغراءات الحرية وتجاربها ، ثم اجتثاث أدمغتهم منذ حداثتهم الأولى . وتريدون بعد ذلك أن يكون المسرح حراً ؟

انني أعترف بأنه أقل خطراً من وسائل الأعلام الجماهيرية : ذلك ان سعر المقاعد ينتخب الزبائن . وهذه الغربلة الأولى توفر ازعاجات كثيرة على البوليس إذ تبعد عن المسارح ثلثي سكان باريس . ولقد كان من الممكن مع ذلك ، قبل ثلاث أو أربع سنوات ، تقديم اعمال مستقلة على بعض المسارح المرتجلة بفضل وجود بعض الفوضى . لكن اليوم لم يعد هناك شيء من هذا : فمسارح النوكتامبيل وبابل وغيرها قد اغلقت أبوابها : وبفضل ذلك قامت الحكومة بعملية مثمرة : فهي تحتكر ، في « مسرح الآليانس فرانسيز » ، المؤلفين الشباب عن طريق اشخاص وسطاء . وهذا معناه انهم واقعون في قبضتها .

مكتبة الفكر الجديد

ومن يتنحنح ، تقاطع مسرحياته . ولقد كانت باريس لن تسمع حتى لو مجرد سماع بمسرحية فينافيه « الكوريون » : لكن الحظ شاء لنا ان تضيع رسالة موجهة من وزير إلى آخر .

ان النظام اليوم قد اكتمل ، ولم يحتج الأمر الى أكثر من رسالة واحدة ليوقف على الفور انتاج واحدة من خيرة المسرحيات لواحد من خيرة مؤلفينا. ان الصدفة التي اتاحت ذات يوم لجورج آرنو تقديم « أنعم الاعترافات » على المسرح، قد جرى اتخاذ جميع الاحتياطات حتى لا تكرر . ان كل شيء محاصر ، مرصود ، مراقب : فمن أقصى باريس الى اقصاها ، ومن مسرح إلى مسرح ، يتحاور اليمين مع نفسه أمام جمهور يميني . انني افهم بلا مشقة ان يدافع عن حرية التعبير : فهذه الحرية انما هي حريته ، وهي مبنية على الصمت المفروض علينا ، لكني لن افهم بالسهولة نفسها ، بالمقابل ، ان ندافع نحن عن هذه الديموقراطية . لكن المشكل ان هناك قضية جونيه . فهل نستطيع ان ندافع عن « الشرفة » اذا لم ندافع عن « ملكة قيصرية [1] » ؟ حسناً ، فلننظر الى الأمر عن قرب أقرب . وسوف نرى ان كان سراب الشمولية الخادع سيقاوم .

ان « ملكية قيصرية » تعالج موضوع بيرينيس وتيتوس . وبعبارة أخرى موضوع امرأة يهودية ورجل « آري » . وفيها يعرض شخص يدعى بولن بكل لقناعة المرغوبة موضوعات الفاشية واللاسامية . وبالطبع هناك من يجيب عليه، أن الاقتناع السريع غير مرغوب فيه : لكن ماذا يثبت هذا ؟ ان التحاور لا بد منه في المسرح. وقد قصت الادارة بعض العبارات من النص . لكن ماذا؟ هل يكفي هذا لتغيير روح مسرحية كهذه ، كتبت في مثل ذاك الوقت ، من قبل رجل كذاك الرجل ، وحول موضوع كهذا الموضوع ؟ لقد احتج مواطنون روابط . وهنا يثور استنكار بيير بريسون ويقذف بحبره كالسبيدج ليسوّد كل

---

١ – « الشرفة » مسرحية لجان جونيه . اما « ملكة « قيصرية » فهي للكاتب الفرنسي نازي روبير برازياك الذي اعدم عام ١٩٤٥ لتعاونه مع المحتل النازي « ه . م »

مكتبة الفكر الجديد

شيء : « لقد دفع برازياك الثمن » . ان هذه الكلمات ليس لها اي معنى بالنسبة إلي . ومع ذلك أسلّم له بنقطتين : فبرازياك لا يحمل وزر الإثم الأكبر ، كما لا بد لنا من الاعتراف بأن عقوبة الاعدام كانت اقسى مما ينبغي اذا ما نظرنا اليها على الضوء المعمي لبعض الجرائم التي ظلت بلا قصاص .

وقد أدين ، من جهة أخرى ، لنشاطه كصحفي لا لأنه كتب « ملكة قيصرية » . لكن ما دخل برازياك هنا ؟ أهو الذي اراد ان تمثل مسرحيته ؟ ترى لو كان أفلت من الملاحقات مثل « ديا » ، ولو كان استفاد ، بعد عشر سنوات من عفو عام ، او لو كان في السجن لكن حياً ، فمن يعرف ما كان سيكون الآن ، وكيف كان سيقيّم سلوكه الماضي وتآليفه ، وهل كان سيرحب بتمثيل مسرحيته ؟ أن يكتب المرء في عام ١٩٤٠ ان اليهوديات ، أبدينات كن ام نحيفات ، لسن إلا قملاً ، فهذا شيء شنيع [1] . لكن يمكن الدفاع على الأقل عنه بأن الابادة المنهجية لليهود كانت في بدايتها بعد ، وبأن ذلك الشاب الوصولي والمجرد انما كان يردد شعارات من غير ان يتصور نتائجها كافة . لكن أن تُقدم في عام ١٩٥٧ – حتى مع حذف الجملة – مسرحية تسفر عن مثل هذه النيات بعد ان لم نعد نجهل شيئاً عن المعسكرات النازية وعن المصير الذي كان محفوظاً فيها « للقمل » فهذا تحدٍ مقصود ، صريح للغاية ، لا دخل فيه للمؤلف الحقيقي ، مهما كان مذنباً ، سوى انهم استعاروا اسمه . واولئك الذين اخذوا على عاتقهم ، من حول السيدة كوسيا ، مسؤولية تنفيذ « عملية برازياك » وبعث ذلك الصوت الميت في الوقت الذي اصبح فيه أكثر إجراماً من أي زمن سبق ، هل يعتقدون انهم ارادوا ان يخدموا قضية شهيد؟ ام قضية الفن الخالص؟ ان برازياك هو آخر همومهم : والدليل انهم لوثوا شرفه للمرة الثانية إذ

---

١ – ثمة ملاحظة تفرض نفسها هنا بالنسبة الى القارىء العربي. ان استنكار سارتر للاضطهاد النازي لليهود يجب ألا يصدمه البتة . فالشعب العربي كان بعيداً دوماً عن اللاسامية ، وهو لا يستطيع إلا ان يستنكرها ، وقد استنكرها فعلاً . ان اليهود ليسوا أعداءنا لأنهم يهود ، انما هم اعداؤنا بقدر ما يتبنون الصهيونية . وان استنكاراً للموقف النازي من اليهود لا ينسينا ان الصهاينة هم الورثة الحقيقيون للنازية .
« ه . م »

مكتبة الفكر الجديد

جعلوا ابناء واخوة اليهوديات البدينات والنحيفات اللواتي قضين في غرف الغاز يدينون مسرحيته . ان عملية برازياك ليس لها إلا هـــدف واحد : سبر الرأي العام . ان انشقاقات اليسار وطفيليته معروفة : لكن هذا غير كاف . فالمطلوب ايضاً معرفة ما اذا كان لا يصبو إلا الى الموت بسلام ام ما اذا كان ما يزال قادراً بعد على الانتفاض – ولكم من الوقت . لقد أدان هذا اليسار برازياك وحكم عليه بالموت : فليُبعث اذن ، وإذا ما جاء ، في قلب باريس ، ليرتقي اضواء المسرح في كل مساء ، بكل عناد الشبح ، وليمدح العرقية والفاشية ، وإذا ما لزم القضاة القدامى الصمت ، واذا ما صفقت له البورجوازية ، أجروا عملية سبر ثانيـــة وثالثة ، اكثر تطرفاً قليلاً ، وأكثر دموية قليلاً ، لينتقلوا من ثم الى أمور اكثر جدية . لكن شاءت صدفة الحظ التي ينبغي **على كل اليسار** ان يهنىء نفسه عليها، ان تتوقف العملية . وقرر القائمون بها ان المسألة لما تنضج بعد .

لقد احتج **مواطنون** . فماذا فعلت السلطات العامة ؟ لقد جرت العـادة في مثل هذه الحالات ان يصدر قرار بالمنع ، لا لشيء إلا لأن المحتجين يكونون عادة من اليمين . اذن فقد منعت المسرحية . لكن من غـــير ان تمنع . وجرت مساومات ، وتم الوصول الى اتفاق : انها ستقدم بالتناوب مع مسرحيات أخرى سيحضر الجمهور بناء « على دعوات خاصة » . ونحن نعرفها منذ زمن طويل ، خدعة الدعوات الخاصة تلك : فجميع الناس سيدعون ، وسيدفعون بالطبع . ستثناء المحتجّين . وعندما قدمت المسرحية لأول مرة على هذا النحو الحميمي ، كان هناك خمسون من رجال الشرطة يتجسسون على المتفرجين ويراقبـــون لجوار . ان المرء ليسره ان يعلم ان مدير البوليس يحمي حرية التعبير .

وفي الوقت نفسه – أو تقريباً – كان يحميها أيضاً « مسرح الأوفر » حيث كان السيد فابر – لوث يقدم اثنتين من مسرحياته . لقد واجه السيد فابر – لوث بض المتاعب في الماضي ، اقول ذلك لأنه لم يكتم الأمر قط ولأنه تحدث عنـه طولاً في كتبه . وهذا ما دفع به، على ما اعتقد ، الى طلب العون من الشرطة: ي مساء حفلة الافتتاح ، كانت سيارة محملة برجـال الشرطة تعسكر في شارع

مكتبة الفكر الجديد

مجاور ، وكان بعض المفتشين المتنكرين في إهاب بورجوازي يراقبون المسرح . وهذا ما يسمى الاستعداد لكل طارىء . تلكم هي ديموقراطيتنا : إن مدير البوليس يحمي مسرحيات برازياك وفـــابر – لوث من شطط سكان باريس واستهجانهم . ألا فليهنئه أجلاف الديموقراطية : فهـو يرغمنا على ان نكون احراراً وعلى ان نتحمل بحرية التعبير الحر عن المذاهب الفاشية .

منذ بضع سنوات دلفت زمرة من فدائيين الى مسرح كان يقـدم مسرحية لفايان . ولم يكن هؤلاء الرجال الغلاظ والمسلحون على عجلة من امرهم ، وانهالوا بالضرب على الممثلين . وكان البوليس يقوم بأعمال الدورية في الشوارع المتاخمة . وقد دخل الى القاعة بعد رحيلهم وتابع عملهم : وفي مثل لمح البصر وجـد المتفرجون انفسهم على قارعة الطريق . وفي اليوم التالي منعت المسرحية . هـل تعتقدون بأنه كانت هناك امكانية لحل وسط؟ وبأن البوليس كان سيغض الطرف عن « حفلات خاصة » ؟ لقد كانت باريس بعد تلك الحادثة بقليل ، في عهـد وزارة لانيل ، تنتظر الباليه الروسي . ولم يحتج الأمر حتى الى تظاهرة : فقد أفهمت الحكومة **انه من الممكن ان تحدث مظاهرة** . ولم تتح للباليـه الروسي فرصة تقديم حفلات خاصة : فقد طرد خارج البلاد ، هذا كل شيء .

لكن لمَ نذهب بعيداً ؟ فلنتكلم بالاحرى عن جونيه . ان مسرحيته جميلة . وقد مثلت في انكلترا ، وتمثل أو ستمثل في برلين الغربية ووارسو وستوكهولم ونيويورك . في كل مكان ، باستثناء فرنسا . ومع ذلك كان قد وجـد ممثلته : فماري بل ، التي ربما كانت اعظم فنانينا ، تحبّ « الشرفة » وتود لو تمثلهـا . كما التزم بإخراجها بيتر بروك ، المخرج الانكليزي الشهير . وأخيراً ، كان قد وجد ضامناً ، السيد لارس شميدت ، ومسرحاً : فقد قدمت له السيدة بيريو « مسرح انطوان » وكانت التجارب على وشك ان تبدأ . لكن المشكل ان القصة تشتمل على مدير بوليس وعلى ماخور ، والأول في الثاني . كما نرى فيهـا أيضاً اسقفاً مزيفاً ، وقاضياً مزيفاً ، اما الخلفية فعبارة عـن تمرد (في بلد خيالي) . إن المكان والحبكة لدى جونيه ليسا إلا وسيلة للتعبير عن الصلة الغريبة التي توحـد

مكتبة الفكر الجديد

الإنسان بنفسه ، بصورته ، بقرينه ، بحركاته ، بالآخر . وما يعطي المسرحية اهميتها انما هي رقصة الانعكاسات المنهكة لا الظروف المبهمة لتمرد يبعث على الاطمئنان بالاصل لأنه ينتهي بالفشل .

أعمل « يساري » ؟ نعم ولا: فهو لا يستلهم أي تصور سياسي أو اجتماعي، انما هو تمرد ، هذا كل شيء ، أغير اخلاقي ؟ بالتأكيد : لكن بالنسبة الى الذين يحبون « ملكة قيصرية » أو « لا يرون فيها شيئاً يصدم » . أفاضح ؟ أجل ، كتلك الحياة اللعينة التي نعيشها جميعاً . وعلى كل ، لم يكن أحد قد قرأها بعد : غير ان المسرح ثرثار ، وكلمات الاسقف أو الماخور ، مدير البوليس أو الثوري، تتناقل وتصل أخيراً الى من يجب ان تصل اليه . وانما ههنا تبدأ القصة . ان روح ضامن وروح ممثلة انما هما قصبتان لا حول لهما ولا قوة، تحاول كل منهما عبثاً ان تسند ضعفها بضعف الأخرى . وان نفحة واحدة تكفي للاطاحة بهما . ولقد نُفخ على روح السيد لارس شميدت وعلى روح السيدة بيريو . فقد هُمس في اذن الأول : « انت سويدي ، واذا ما كانت المسرحية فاضحة ، فلن تقدم بعدها أية مسرحية أخرى في باريس » ، وهذا شيء مسلٍ للغاية عندما نفكر بمديري مسارحنا وبتعلقهم بمال الآخرين من حيث اتى. اما الأخرى فقد قيل لها بكل بساطة : « ان جميع مقاعدك ستحطم ، وسوف يشير اليك علية القوم في باريس بالبنان » .

وعندما تملّك الاضطراب هاتين الروحين ، اضافوا بتغافل : « ان مدير البوليس رجل يحسن النصيحة ، فلمَ لا تحملان اليه المخطوط ؟ انه سيعطيكما رأيه بصورة غير رسمية » . مَن هم هؤلاء الذين نرمز اليهم بواو الجمع ؟ انني اعرفهم ، واستطيع ان اسميهم ، لكن ليس لهذا من اهمية . اذن فقد أُرسل المخطوط الى مدير البوليس . من دون علم المؤلف ، بالطبع ، وفي غياب المخرج. واجاب مدير البوليس باعتدال كبير بأنه لا يملك صلاحية الحكم على المسرحية وبأنه لا يملك الحق ولا الرغبة، علاوة على ذلك ، في ان يمارس رقابة مسبقة على « الشرفة » .

مكتبة الفكر الجديد

بيد انه يستطيع ، باسم تجربته القديمة ، ان يتنبأ ، بدون ان يخشى الخطأ ، بأن اضطرابات خطيرة ستقع من الحفلة الأولى ، وسترغمه ، بالرغم عنه ، على ايقاف التمثيلية . ويمكننا ان نتساءل لمَ اثارت تلك المظاهرات المحتملة انفعال مديرية البوليس الى هذا الحد في الوقت الذي ابدت فيه هدوءاً كبيراً امام التظاهرات الواقعية التي احدثتها « ملكة قيصرية » . إلا ان ذلك الرأي شبه الرسمي ليس ، على كل حال ، إلا بداية مناورة أوسع نطاقاً : فقد كان لا بد من نشر ذعر « مسرح انطوان » وتراجعه لنقلها كالنزلة الوافدة الى جميع المسارح الباريسية . وهنا تأتي المقابلة التهريجية التي اجرتها صحيفة « باري – بريس » التي تكفلت بنقل عدوى الجرثومة : ونحن لا نعرف اذا كانت السيدة بيريو متواطئة في تلك العملية او ضحية لها ، لكن نص جان – فرانسوا ديفي واضح على كل حال :

« قالت مديرة مسرح أنطوان ... بحزم : « لقد عدلت عن تقديم « الشرفة » ... **ولهذا فان باريس لن ترى ابداً افضح مسرحية** كتبتها ريشة جان جونيه ، الشاعر واللاأخلاقي المحترف ... ولقد تنفس خير اصدقائها الصعداء ، لأنهم **كانوا يخشون ما هو أسوأ** » . وتلي ذلك قصة مدير البوليس والرأي شبه الرسمي الذي اعطاه مدير مكتبه . ان التحذير واضح : لا تقدماها **ابداً** ، وقد أعذر من أنذر . وينتهي المقال بتلخيص مغرض لـ « الشرفة » هدفه المفضوح إحداث تظاهرات . عمل جميل . فقد انحنت القصبتان ، لكنهما عاودتا الانتصاب : فقد فهم الضامن والمديرة على حين بغتة انهما ذهبا ضحية خداع محكم. إذن فقد انتصبا من جديد . وبنفس الصوت الحازم صرحت السيدة بيريو للصحفيين انها ستقدم « الشرفة » وتلكم هي اكثر لحظات القصة عبثاً : فقد ركض ذانك التعيسان نحو الانتحار لخنقهما من وقوعهما ضحية الخداع ، وقررا ان يقدما على مسرح انطوان التمثيلية التي نفّرا منها الرأي العام . ومن حسن الحظ ان كل شيء كان متوقعاً . فقد كانوا ينتظرونها هنا . ففضيحة برازياك لا بد ان تعطي أكلها ، أليس كذلك ؟ وقد أدلى مستشار بلدي يدعى السيد

مكتبة الفكر الجديد

روبير كاستيل بهذا التصريح لـ « الفيغارو » التي ضمنته في المقـــال الذي كرسه غوتييه لبرازياك : « لقـــد صرح لي السيد جونوبرييه أنـــه نصح السيدة بيريو بالعدول عن تقديم هذه المسرحية . والحال اننـا علمنا ان « الشرفة » ستقدم في الوقت الذي منع فيـه تقديم « ملكة قيصرية » . المسألة إذن لا تحتاج لأي تعليق » (الفيغارو — ٢٠ تشرين الثاني ١٩٥٧) . ان النقاط قـــد وضعت على الحروف هذه المرة : ١ً — ان نصيحة مدير البوليس هي أمر . ٢ً — غني عـن البيان اننا لن نسمح أبداً بتقديم جونيه .

وعلى الفور طار السيد لارس شميدت الى السويد . لقد لامـــه البعض على ذلك . لكني أتساءل لماذا : إذ لا يحق لأحد ان يطلب من انسان ان تكون لديه الشجاعة والمال معاً ، أللهم إلا في تلك الحالة الخاصة التي تصبح فيها الشجاعة الوسيلة الوحيدة للدفاع عن المـال . اما في هـــذا الظرف فقد كان الخوف خير دفاع . وقد رحل بروك مشمئزاً ، ومصرحاً بأنه لن يخرج أية مسرحية بعـد الآن في فرنسا ما لم يحصل على الحق في إخراج « الشرفة » . أما ماري بل فهي على عادتها صامدة لا تتزعزع : انها ستمثل المسرحية أينما كان ، وفاء منها لنفسها ولجونيه . لكن الشر وقـــع وانقضى الأمر : فمدير البوليس ، والشاعر الذي يدير مكتبه ، وأحد المستشارين البلديين ، و « الفيغارو » و « باري — بريس » قد خلقوا عن عمـد عصاباً هوسياً لدى مديري المسارح . لقد ماتت « الشرفة » ودفنت .

هل تريدون مقارنة القضيتين الآن ؟ لقد جرى ، في بلد كئيب ، مشلول ، يشهد خـاملاً صعود الفاشية ، وفي قلب باريس ، جرى تنظيم تحدّ موزون بعناية ، نتائجه ستكون سياسية . ووجدت جماعـــة من المقاومين والمنفيين القدامى ما فيه الكفاية من القوة لمعارضته . ان كثيرين منهم اعضاء في روابط وجمعيات ، هذا صحيح . لكنهم ، **قبل كل شيء** ، مواطنون ، ورد فعلهم مدني وخاص في آن واحد . وقد سلمت لهم الحكومة ظاهرياً ، في حين انها تشجع ، في الواقع متابعة التمثيلية تحت شكل معدل بعض الشيء . لقد نجحت هـــذه

مكتبة الفكر الجديد

التظاهرات وبرهنت ، بالرغم من كل شيء ، على وجود حـدود لسلبيتنا . لكن لا بد من الاعتراف – وهذا شيء منعدم الأهمية بالاصل – بأنها لم تبلغ هدفهـا المباشر : فتقديم « ملكة قيصريـة » مستمر وسيستمر . ان استهجان هؤلاء المواطنين لا حساب له في نظر وزرائنا . انهم فرنسيون من الدرجة الثانية .

ومن الجانب الآخر تحاول الحكومة وتنجح بمساعدة الصحافة الكبيرة ، في ضربة المعلم تلك بصدد مسرحية عنيفة لكن جميلة وخالية من المضمون السياسي: اعني فرض الرقابة المسبقة المقنعة . والنتيجة تفقأ العيون : « ملكة قيصريـة » تمثل ، و « الشرفة » لن تمثل . سيقال : ماذا لو توفرت الجرأة لدى احدهم ؟.. وسأقول : لو توفرت هـذه الجرأة لأحدهم لمـا كان مدير مسرح . لقد كادت السيدة روبيه – جانسكي تقدم « الشرفة » : وفي حالة الخطر ، كانت ستكون وحيدة في العالم . لقد حدثها قلبها بأن تقدم « ملكة قيصريـة » : وهي ، من وجهة نظرها ، قد أحسنت صنعاً ، ونحن نعلم انها ليست وحيدة . امـا عن قضية جونيه ، فمهما تكن منتنة في حد ذاتها ، إلا ان عواقبها ستكون اشد إنتاناً ايضاً . فالارهاب سيعبر عـن نفسه لدى المديرين ولدى بعض المؤلفين في الرقابة الذاتية . وستجد أخيراً البورجوازية مسرحها الحقيقي : ثرثرة بلهـاء تخفي صمتاً مطبقاً .

أين هي ، حرية التعبير تلك ؟ إذا أردتم أن تجدوها ، فابحثوا حيث تقف سيارات البوليس : حـول « مسرح الأوفر » وحول « مسرح الفنون » . ان السيد فابر – لوث حر ، وليست هي خطيئة إنسان إذا كانت تمثيليته قـد اختفت بحرية عن لوحات الاعـلان . والسيدة كوسيا حرة . وجونيه ليس كذلك . ولو كانت هناك مسرحية عن حرب الجزائر ، مسرحية « يسارية » ، فهل تعتقدون أن مؤلفها سيكون حراً في تقديمها على المسرح ؟ وانكم ستكونون أحراراً في الذهاب للاستماع اليها ؟ إذا كنتم ترون بأنه لا يمكن إصدار حـكم كهذا إلا بناء على التجربة ، فإنني ألفت نظر المديرين ، وليس في لفت النظر من ضرر ، الى ان هذه المسرحية موجودة ، وإلى أنها رائعة ، وإلى أنها ظهرت في

مكتبة الفكر الجديد

مجلة « اسبري ». أنها : « الجثة المطوقة » لكاتب ياسين . فلننتظر إذن مصيرها. وبالمقابل فإن من يتمنى أن يروي في ثلاثين مشهد الحيـاة البطولية للكولونيل بيجار ، فليس عليه إلا أن يتلفن الى مديرية البوليس ويتصل بمسرح انطوان حتى يُسوّى كل شيء بسرعة . أفي الأمر إذن ما يدعو الى دهشة بالغة ؟ إن المسرح في أيدي البورجوازية الكبيرة . وعليه أن يخدمها أو يغطس . والحال أن هذه البورجوازية هي التي تزداد فاشية يومـاً بعد يوم : فكيف سيفلت من الرقابة المثلثة التي تمارسها عليه : رقابة الحكومة ورقابة الصحافة ورقابة محفظة النقود ؟ في كل مرة تدافع فيها الصحافة أو المستشارون البلديون أو النواب عن حرية التعبير ، يتحتم أن تدور هذه الحرية لمصلحة اليمين المتطرف . وبالفعل ، ان الثرثرات العادية لا تحتاج الى حرية . إذ ماذا ستفعل بها ؟ اما المسرحيـات اليسارية ، فبأية حرية تطالب ؟ ان العدد الذي يكتب منها يتضاءل يومياً ، وعما قريب لن يعود يخطر ببال احد ان يكتبها : أمن الممكن المطالبة بحرية من أجل العدم ؟ وحـين تكون مثل هذه المسرحيات موجودة من قبيل الصدف ، فإن المـدير يرفضها بحرية . ذلكم هو السبب الذي يحتم علينا ان نتحرر من فخ الشمولية : إن القتال من أجـل حرية المسرح يعني النضال في آن واحد ضد احتكار اليمين ومن أجل المسرحيات اليسارية ، من أجـل « الشرفة » وضد « ملكة قيصرية » كما يعـني ايضاً – وقبل كل شيء – النضال من أجل حرية المتفرج . ان حرية المسرح الحقيقية ستبدأ في الوجـود يوم تُنتزع من الأيدي البورجوازية لتعطى للجميع .

« فرانس اوبسرفاتور » ١٩٥٧ .

مكتبة الفكر الجديد

نزع الصفة العسكرية عن الثقافة

لست بحاجة لأن أقول لكم انتم ما الثقافة ، وما تعنيه بالنسبة الى كل فرد ، وحتى بالنسبة الى أكثر الناس جهلاً . كما لن اندفع هنا في تأملات فلسفية . انما سأقول لكم فقط ما قاله شاب سوفياتي أمامي اثناء مناقشة عامة عن الشعر : « انني رجل تكنيك وبحاجة الى الشعر لأؤدي مهنتي التكنيكية على الوجه الصحيح » . ومؤكد ان التكنيك ثقافة في حد ذاته : لكن هذه الكلمة التي اجدها طبيعية للغاية وجميلة جداً في آن واحد تدل على ان جميع اشكال الثقافة متكاملة، وعلى أن الدقة العلمية تتطلب من كل فرد حضور دقة أخرى ، أصعب ، وتوازن الأولى ، هي الدقة الشعرية . ان غيري مؤهل أكثر مني للكلام عن الفساد الذي عانته الحرب الباردة في ميدان التكنيك والعلم ، وكيف زيفت اهدافها الواقعية وحرّفتها ، وكيف يهدر الذكاء والمال حتى يكتشف البحاثون داخل كل كتلة ما كانوا سيكتشفونه بيسر أكبر بمساعدة بحاثي الكتلة الأخرى .

انني لا اريد تجاوز ميداني . اعني الشعر والادب والى حد ما الفنون . ان ذلك التكنيكي الشاب بحاجة ، كما ترون ، الى القصائد ، فهو يتجرعها، واذا صح القول يستهلكها . والمسؤولية الحقيقية ، بالنسبة الينا نحن رجال الثقافة ، تكمن ههنا : ان علينا ان نحول بينه وبين أن يتجرع قصائد مسمومة . ذلك انها ثقافتنا ، الثقافة التي ننتجها اليوم **بأنفسنا** ، التي تسري ببطء في الاجيال التي تتلونا . ولا جدوى من القول بأن آثار الماضي الكبيرة يمكن ان تستخدم

مكتبة الفكر الجديد

كترياق : فهي بالتأكيد تستطيع ذلك لكن بشرط ألا تزيفها دعاية حربية ، بشرط ألا تستخدم كما لو انها آلة حربية ضد البشر الذين هم في الجانب الثاني من الخندق .

إن الثقافة هي ، على حد علمي ، الوعي المتطور دوماً ، وعي الإنسان لنفسه وللعالم الذي يحيا ويعمل ويناضل فيه . وإذا كان هذا الوعي صحيحاً ، واذا لم يزيف عمد ، فإننا سنخلف ، رغم اخطائنا وجهالاتنا ، تراثاً له قيمته بالنسبة الى من سيأتي بعدنا . لكن اذا ما انطنا عملنا بمقتضيات الحرب ، جعلنا من أطفالنا ، الذين سيستهلكون حقائق مسمومة ، فاشيين أو يائسين . ألا فلنأخذ حذرنا من ذلك ، لأنه خطر ينذر بشرٍ مستطير : فعدد الذين يطلق عليهم عندنا اسم « ذوي القمصان السود » او « الهوليغانس[1] » في البلدان الأخرى هو في تزايد مستمر . اننا نستطيع ويتوجب علينا ان نقول لهؤلاء الشبان – مهما تكن جرائمهم – اننا مسؤولون عنهم واننا لم نعرف ان نعطيهم ، في الاعوام الخمسة عشر الماضية ، ذلك الوعي الصاحي لأنفسهم ولطبقتهم وللاستلابات التي يشكون منها ، واننا تركنا أعمال العنف تلك عارية ووحشية لأننا لم نستطع ان ننير الطريق امامها ونوجهها .

انتم تعرفون تلك الشعبذة : يزعمون انهم يدافعون عن الثقافة بينما ، في الواقع ، يجندونها . يعلنون في كل مكان انهم يحاربون لإنقاذها بينما هي خاضعة كل الخضوع ، في الحقيقة ، للمصالح الحربية . إن الخدعة بسيطة : فهم يتلاعبون بالصفتين المتناقضتين – وهو تناقض خصب عندما يتطور بحرية – اللتين تحددان معاً كل ثقافة : الخصوصية القومية والشمولية الكامنة على الأقل . إن عمق أثر من الآثار يتأتى من التاريخ القومي ، من اللغة ، من التقاليد ، من الاسئلة الخاصة ، والمأساوية في غالب الاحيان ، التي يطرحها العصر والمكان على الفنان من خلال

---

١ – يمكن ان نترجم هذا المصطلح بالصعاليك . والمقصود بهم أو بذوي القمصان السود الشبان العصريون المتمردون الذين اخذ تمردهم طابع عنف مطلق ضد قيم المجتمع . وقد جسدهم مارلون براندو في فيلم « المتوحش » . «ه.م.»

مكتبة الفكر الجديد

المجتمع الحي الذي هو مندمج به . من يستطيع ان يفهم ميكييفيتش بدون ان يكون مطلعاً على وضع بولونيا في القرن التاسع عشر ؟ ان ما نسميه ، نحن سكان حوض البحر الابيض المتوسط ، بأبهة كبيرة « الحضارة اليونانية – اللاتينية » ، ليس إلا خصوصيتنا وصلة القربى بين لغاتنا سواء أكانت ايطالية أم اسبانية أم فرنسية : ولقد شعرت اثناء رحلة قمت بها مؤخراً الى الاتحاد السوفياتي ، بأن الجمهور حساس أولاً بصفة معينة يستشعرها الاجنبي استشعاراً من غير ان يستطيع دوماً تحديدها : اعني المظهر **الروسي** الخالص لكتاب ، لإخراج مسرحي ، لتمثيل ممثل .

بسبب هذه الخصوصية يتجه كل عمل نحو الشمولية . لقد قلنا بما فيه الكفاية عندنا ، في اواخر القرن الماضي ، ان تولستوي وتشيخوف ودوستويفسكي لا يفهمهم « اللاتين » وان « روحهم سلافية » . لكن لا بد من الاقرار اليوم ، وبعد مضي ستين عاماً ، ان لجميع الناس في فرنسا روحاً سلافية ما دمنا قد استقبلنا بالترحاب هؤلاء المؤلفين الكبار واتخذنا من كتاباتهم تراثاً لنا . وهذا يعني ان المظهر **الروسي** الصرف لأثر معين تابعه فرنسي على ضوء التقاليد والاهتمامات الفرنسية، يكشف لقارئه مظاهر من نفسه أو من بلاده كانت مجهولة حتى ذلك الحين أو غامضة . كذلك فإن الاميركان قد « اعطونا » فوكنر ، اعطوه لنا نحن « اللاتين » ، لكننا – وهذا هو المظهر المتمم والمعكوس للشمولية – اعدناه اليهم على أحسن ما يرام . لقد ساعدنا ، رجل الجنوب ذاك المتسلط عليه وسواس المشكلات العرقية ، ساعدنا على فهم انفسنا فهماً افضل . لكننا إذ فهمنا انفسنا عن طريقه ، كشفنا مظاهر من عمله ما كان في وسع الاميركان ان يعرفوها . وهذا ما يجعلنا نفهم عبارة اندريه جيد المشهورة : « يصبح الإنسان شمولياً كلما اغرق في الخصوصية » . بشرط ان نفهم « الخصوصية » بمعناها القومي والتاريخي بالطبع ، لا بمعنى مذهب ذاتي مثالي .

بيد ان التكتيك الحربي ، في زمن الحرب الباردة ، يقوم على الفصل بين مظهري العمل هذين ليعارض احدهما بالآخر . فبدلاً من انتقال جدلي يحول

مكتبة الفكر الجديد

الخاص الى عام ، تبدأ الثقافة بتوكيد خصوصيتها (فهي يونانية – لاتينية ، أو اوروبية ، او غربية) . ثم تقرر بعد ذلك ان هذه الخصوصية ليست شيئاً آخر سوى الشمولية لسبب بسيط هو انه لا وجـــود إلا لثقافة واحدة ، أما في أي مكان آخر فالسيادة للبربرية . وهذا يعني في النهاية رفض الشمولية باسم الشمولي. وهكذا يستطيع المذهب الإنساني البورجوازي ان يكون في الوقت نفسه ، ومن قبيل الترف ، عرقياً . انه يقول : البشر جميعـــاً اخوتي ، ثم يضيف على حدة : لا بشر إلا البورجوازيون . وبدءاً من هنا تقوم المناورة على تزييف الآثار الكبيرة بمساعدة النقاد والصحف التابعة . انظروا الى كافكا : ماذا فعـــل به النقاد ؟ لقد لغموا كتبه بأمل ان تنفجر بين الجمهور السوفياتي . لقد بدأوا الاعـــلان عن ان البيروقراطية عيب لازم في الاشتراكية – وكأن هذه الرذيلة ليست ملازمة للمجتمعات الصناعية كافة – ثم جعلوا من كافكا فاضح البيروقراطيين. ولم يبق بعد هـــذا إلا ان يُرسل ، اذا أمكن القول ، الى الروس ، بأمل أن يتعرف كل قارىء بلده في عالم « القضية » .

وما كان هذا ليكون بذي بال لولا ان هذا العدوان المتعمد يحدث في الاتحاد السوفياتي رد فعل انعكاسياً دفاعياً هو في الوقت نفسه ، وبالرغم من انه مفهوم تماماً ، رد فعل انعكاسي حربي . فيقال في الاتحاد السوفياتي : ما دامت هـــذه الكتب تشتمنا ، فلسنا بحـــاجة البتة إلى ترجمتها . والنتيجة : لقد كتب كافكا « القضية » منذ نصف قرن من الزمن تقريبـــاً ، ومع ذلك فإن جمهور هذا البلد الكبير ، الواقف في طليعة التقدم الاجتماعي والعلمي والتكنيكي ، يجهل في غالب الأحايين حتى اسمه . ان هذا المؤلف يعـــاني من نكبة مزدوجة : فهو في الغرب مزيف ، محرف ، وفي الشرق يحيطون وجوده بالكتمان . لكننا ، بالمقابل ، نحن الذين نشكو ، في كل مكان ، من الأذى الذي نلحقه به : فنحن نشوهه في الغرب والشرق بأهوائنا المتحزبة ولا نستفيد في أي مكان من شموليته الحقيقية ، اي من القيمة التي سيأخذها بالنسبة الى كل فرد اذا ما تركناه يشيخ في العقول والقلوب بكل حرية ، وكما يقول ماركس بصدد مسألة أخرى ، بدون اضافة اجنبية .

مكتبة الفكر الجديد

انني استشهد بروائي ، لكني استطيع ان أبين من خلال أمثلة مأخوذة من العلوم الانتروبولوجية الخسارة الفادحة التي تعود بها هذه النزعة الحربية الثقافية على الانسانية قاطبة. لقد أُكتشفت وطُبقت في الغرب الرأسمالي تقنيات جديدة – الآلانية والمناهج السوسيولوجية والتحليل النفسي . ولا مجال للشك البتة في ان بعضها قد اخترع **على وجه التحديد ضد الماركسية** . فهل هذا معناه ان كل شيء مزيف فيها ؟ كلا ، بالطبع : فطالما انها ناجعة ، وطالما انها تخدم ارباب العمل ، فلا بد ان تكون مشتملة على بعض الحقيقة . وهذا يعني ان الماركسية هي وحدها القادرة على دحضها ، وعلى تمييز الحبة الصالحة من الزوان ، وعلى تمثل ما هو صحيح ، وعلى الاغتناء بالتالي وخوض النضال الايديولوجي المظفر . لكنها ، اي الماركسية ، لمعرفتها بالمقصد الاولي للبحاثين ، تظل متخذة موقف الحذر ، وتستبعد ، وتحرّم ، في حين ان حيويتها الهائلة كانت تسمح لها بقلب هذه التقنيات ضد الذين كانوا وراء اختراعها . والنتيجة ان الثقافة شُطرت شطرين : فهناك حقيقتان هامدتان تصطفان جنباً إلى جنب ، وتدين كل منهما الأخرى ، مع انهما كلتيهما ناقصتان ولو بمعنى متباين للغاية .

ان النضال الايديولوجي بالنسبة الى العقيدة الماركسية في هذه المرحلة التاريخية يكمن في أخذ كل شيء وحله في ذاتها وتحويله . لكن هذا يستلزم بالضرورة ان تتخلى هذه القوة الكبيرة ، التي يمكن ان تصبح غير قابلة للمقاومة ، عن موقف الريبة حيال كل ما لم يولد منها مباشرة ، اي في النهاية حيال ذاتها . وبعبارة أخرى ، ان المطالبة بوحدة الثقافة تعني المطالبة بها من خلال تناقضاتها الحية ، ولا تعني البتة التخلي عن النضال الايديولوجي . ان الحرب هي التي تقتل النضال الايديولوجي لأنها تستبدل المواجهة بالانفصال والادانة المتبادلة . لقد تكلم السيد خروتشيف هنا بالذات عن تعايش الأنظمة ، وصرح بحق ان هذا التعايش لا يمكن إلا ان يكون تنافساً على جميع المستويات ، لكن بشرط ان يكون هذا التنافس سلمياً . انني اطبق ما قاله لنا على الثقافة واستنتج انه من الواجب ان تكون **تنافسية** ، وان وحدتها التركيبية تنطوي

مكتبة الفكر الجديد

في كل حالة على تنافس سينتهي ولا بد ، في رأيي ، لصالح الماركسية .

لنعد إلى كافكا . انه سيقدم لنا مثال تنافس ثقافي حقيقي . وقد سألت احد اصدقائي السوفياتيين : لمَ لا تترجمونه ؟ فأجابني : سيُشرح قريباً في نشر بعض آثاره الصغيرة ، لكن نقد الغرب ، كما تعرف ، قد شوهه كثيراً الى حد انه يبدو للكثيرين وكأنه عدونا اللدود. واجبت : ولماذا لم تكتب ، من جهتك ، مقالات نقدية ماركسية للمطالبة به ؟ فعلى هذا الصعيد ايضاً كنتم ستربحون ، لأن مناهجكم تذهب في التفسير إلى ابعد مما تذهب اليه مناهج النقاد الغربيين . او انها ستذهب بالأحرى الى ابعد بكثير بعد ان تأخذوا من مناهجهم ما هو صحيح فيها وتلفظوا ما هو باطل فيها . وبكلمة واحدة ، ان التنافس الثقافي الحقيقي يكمن في إلغاء جميع جمارك وحواجز الثقافة ،ومن ثم توجيه هذا التحدي السلمي : لمن ينتمي كافكا ، ألكم ام لنا ، اي من منا يحسن فهمه اكثر من الآخر؟ ومن منا يستفيد منه اكثر من الآخر ؟

كلا : اننا نعرف ، نحن رجال الثقافة – وانني اخاطب جميع الذين يستمعون إلي – انه ليس علينا ان **ندافع** عن الثقافة . **فالدفاع** عنها يعني في الحقيقة استخدامها لتبرير الحرب . وبالفعل ، ضد من سندافع عنها إن لم يكن ضد البشر ؟ لكن أيصنعها أحد غير البشر ؟ انني من الذين يفضلون حياة انسانية على كاتدرائية شارتر . لأن الكاتدرائية ، اذا ما متنا من أجلها ، لن تصنع بشراً آخرين يحلون مكاننا . ولأن البشر ، إذا ما بقي عدد منهم على قيد الحياة واذا ما انهارت الكاتدرائية ، قادرون على بناء كاتدرائية أخرى كما يثبت ذلك مثال وارسو . ان الثقافة تُصنع من قبل البشر ومن أجل البشر . والدفاع عنها ضدهم انما يعني تحويلها الى صنم ، واستلاب الانسان نتاجه . وإذا ما تدخل المدفع بدوره ، وارسل قنابله اليونانية – الرومانية على المدافع الآسيوية ، فإننا لنخشى ، في النهاية ، ألا يبقى هناك ، في آنكور أو في أثينا ، سوى حجارة شلتها القصف .

ان الثقافة ليست بحاجة الى **الدفاع عنها** . لا من قبل العسكريين ولا من

مكتبة الفكر الجديد

قبل السياسيين . واولئك الذين يزعمون انهم المدافعون هم في الحقيقة ، أشاؤوا أم أبوا ، مدافعون عن الحرب . ان جنود الامبريالية حين يدافعون عن البارثيون ، فإن البارثيون هو الذي يدافع ، في الواقع ، عن الامبريالية . كلا ، ليس علينا ان نحمي الثقافة ، انما الخدمة الوحيدة التي تنتظرها ، يتوجب علينا ، نحن المثقفين ، ان نقدمها لها : إن علينا ان نحررها من الطابع العسكري .

كيف ؟ ليست مهمتي أنا تبيان ذلك . انما هي مهمة الجميع : ان جميع الانتروبولوجيين ، جميع الكتاب ، جميع الفنانين يعرفون ذلك الانشطار الثقافي المتجاوب كل التجاوب مع انشطار الذرة . ومن واجبهم هم ان يمنعوا الانفجار . من واجبهم هم ان يبحثوا عن الوسائل الكفيلة بأن تعيد الى عالم الأفكار والاشكال وحدته ، تناقضاته الخصبة ، تنافساته السلمية ، وعند التحليل الأخير قوته الخلاّقة . وهنا كما في سائر المجالات ستقدم لنا البلدان التي تحررت من الاستعمار او التي تناضل ضد الامبريالية معونة ثمينة . فالمشكلات الثقافية في تلك البلدان مختلفة : فهي لا تخوض حرباً ايديولوجية ، واذا كانت تقاتل فإنما ضد ثقافة الدول ـ الأم السابقة التي فرضت عليها في غالب الأحيان لغتها وأفكارها . وليس هدفها طرد تلك الثقافة والعودة بكل بساطة الى تقاليدها القديمة ، بل هدفها ان تخلق من الماضي السابق لاستعمارها وضده ومما تراه ذا قيمة في فنون وافكار الدولة التي تضطهدها ثقافة ثورية وعصرية تتوطد مع توطد وحدتها القومية .

ان هذه البلدان ستكون أهم حلفائنا ، على وجه التحديد لأن المشكلة الثقافية لا تنطرح عليها من الزوايا نفسها .

* * *

اني أعتقد ان اجتماعاً عالمياً لرجال الثقافة من أجل نزع التسلح الثقافي هو خير وسيلة ، مهما يكن شكله ، لتعود الى الثقافة وحدتها التي فقدناها ، عن طريق اتحاد جميع رجال الثقافة ضد الحرب . ان هذا الاجتماع الذي أطرح

مكتبة الفكر الجديد

فكرته على « المؤتمر » يمكن أن يتخذ أشكالاً متباينة : فمن الممكن أن يكون مؤتمراً هو الآخر – لكن ألم يصبح عدد المؤتمرات أكبر مما ينبغي ؟ كما يمكن ان يكون لقاء محدوداً بين عدد من الافراد – لكن ما من أحد منا هنا يؤمن بأهمية « الشخصيات » . ماذا يبقى أمامنا إذن ؟ ما اقترحه فيجوريلي هذا الصباح : فقد تمنى أن يشكل كتاب أفريقيا وأميركا وآسيا ، في اقطارهم وفي قاراتهم ، روابط عضوية شبيهة برابطتنا ، واعرب عن أمله ، علاوة على ذلك ، بأن تنتدب كل رابطة بما في ذلك رابطة الكتاب الاوروبية ، عـــدداً صغيراً من أعضائها للالتقاء مع مندوبي الروابط الأخرى . وصحيح ان هؤلاء الرجال لن ينتدبوا بالمعنى الدقيق للكلمة ، لكنهم سيكفون عن ان يكونوا ممثلي أنفسهم لا غير : انهم سيشعرون بالمسؤولية ازاء قارتهم .

ومن الممكن ، بواسطة هذا التداول ، إرساء أسس برنامج يُعرض كاقتراح على جميع الأمم : إلغاء كل تدابير الانعزال الثقافي ، نشر الآثار الهامة – سواء أكانت معاصرة أم لم تكن – في جميع اللغات ، تحت إشراف رجـال الثقافة الذين يتوجب عليهم في كل حالة ان يأخذوا على عـــاتقهم مسؤولية اقتراح المؤلفات على الناشر ، وكذلك مسؤولية تفسيرها للجمهور ، بمقدمات أو مقالات نقدية ، تبعاً للعقيدة المعترف بها ، وبهدف إيصالها الى العدد الأكبر ، وأخـيراً موائد مستديرة (بين الكتاب والفنانين ، بين النقاد والنقاد الفنيين) واتصالات خاصة ، مع التزام الجميع بالدفاع عن كل فرد . اننا نواجه تياراً يصعب الوقوف في وجهه : ان الحرب الباردة لم تسبب قتلى كثيرين ، لكنها جمّدت الثقافـــة العالمية . لكن اذا ما اتحد حقاً ، ولأول مرة في التاريخ ، رجالُ الثقافة ، فإني كلي قناعة بأننا واصلون سريعاً الى ذوبان الجليد .

(مقتطفات من خطاب ألقي في موسكو أمام المؤتمر العالمي لنزع التسلح العام والسلم) .

مكتبة الفكر الجديد

مناقشة حول النقد بصدد « طفولة إيفان »

بعث جان بول سارتر ، وكان يومذاك في إيطاليا ، بالرسالة المنشورة أدناه إلى أليكاتا ، بصدد مقال نشر في « البونيتا » حول الفيلم السوفياتي « طفولة إيفان » . وقد قرر أليكاتا ان ينشر تلك الرسالة التي ظهرت في « اليونيتا » في ٩ تشرين الأول ١٩٦٣ .

ولما كانت النسخة الأصلية قد ضاعت في إيطاليا ، فإننا ننشر ترجمتها .

عزيزي اليكاتا

عبرت لك في عدة مناسبات عن تقديري لمعاونيك الذين يهتمون بالأدب أو بالفنون التشكيلية أو بالسينما . انني أرى ان الصرامة والحرية تتعايشان لديهم ، الشيء الذي يمكنهم ، بصورة عامة ، من طرق لب المشاكل ، وفي الوقت نفسه من فهم العمل من خلال تفرده وطابعه العيني . وأستطيع أن أوجه التقريظ نفسه الى صحيفتي « إلى بيزي » و « بيزي سيرا » : فليس هناك أي تمذهب يساري ولا أي شخص متمذهب .

هذا هو السبب الذي أود من أجله ان أعبر عن أسفي . ما الداعي ، ولأول مرة على حد علمي ، لأن يصبح بالامكان توجيه تهمة التمذهب الى المقالات التي كرستها « اليونيتا » وسائر الصحف اليسارية لـ « طفولة إيفان » الذي هو من اجمل الأفلام التي اتيح لي ان اشاهدها في الأعوام الأخيرة ؟ ان لجنة تحكيم « الوسام الذهبي » قد منحته ارفع مكافأة : لكن هذا العمل يصبح شهادة غريبة

مكتبة الفكر الجديد

على « غربية » الفيلم ويساهم في تحويل تاركوفسكي الى بورجوازي صغير مشبوه ، إذا كان اليسار الإيطالي ينظر اليه في الوقت نفسه بعين غير راضية . والحق ان مثل هذه الأحكام المتشككة تسلم ، بدون مبرر واقعي ، الى طبقاتنا المتوسطة فيلماً عميقاً في روسيته وثوريته يعبر بصورة نموذجية عن حساسية الأجيال السوفياتية الفتية . لقد رأيته ، من جهتي أنا ، في موسكو ، في عرض خاص ، ثم في عرض عام مع متفرجين من الشباب ، وفهمت ما يمثله بالنسبة الى هؤلاء الفتيان الذين لم يتجاوزوا العشرين من العمر ، الوارثين للثورة ، والذين لا يشككون فيها لحظة واحدة ويأخذون على عاتقهم باعتزاز مهمة متابعتها : واني لأوكد لك أنني لم أجد في استحسانهم للفيلم أي شيء يمكن وصفه بأنه رد فعل « بورجوازيين صغار » . غني عن القول ان الناقد حر في إبداء جميع التحفظات بصدد عمل يتوجب عليه أن يقيّمه . لكن أمن العدل إبداء هذا القدر من الريبة إزاء فيلم استأثر – وما يزال – في الاتحاد السوفياتي بمناقشات متحمسة ؟ أمن العدل الانتقاد ، بدون أخذ هذه المناقشات ولا دلالتها العميقة بعين الاعتبار ، كما لو ان « طفولة إيفان » ليس إلا مثالاً عن الانتاج الجاري في الاتحاد السوفياتي ؟ انني أعرفك بما فيه الكفاية ، يا عزيزي أليكاتا ، لأعلم انك لا تشاطر نقادك رؤيتهم التبسيطية . ولما كان تقديري لهم صادقاً حقاً ، فإنني أسألك أن تطلعهم على هذه الرسالة التي قد يتسنى لها – على الأقل – أن تفتح من جديد المناقشة قبل فوات الأوان .

لقد تكلم البعض عن نزعة تقليدية ، وفي الوقت نفسه عن تعبيرية ورمزية بالية . فاسمح لي بالقول إن هذه المعايير الشكلية هي نفسها بالية . صحيح ان الرمزية تسعى الى الاختباء لدى فيلليني ولدى انطونيوني[1] . لكن النتيجة الوحيدة لسعيها هذا هي انها تزداد سطوعاً . ولقد كان من الواجب أن نتكلم هنا عن الوظيفة الرمزية لأي أثر كان مهما كان مغالياً في النزعة الواقعية . لكن ليس لدينا متسع من الوقت . وبالأصل ، إن ما أراد النقاد ان يلوموا

---

١ – من كبار المخرجين الايطاليين العالميين . « ه. م. »

مكتبة الفكر الجديد

عليه تاركوفسكي انما هو بالأحرى **طبيعة** رمزيته : أما أن تكون رموزه تعبيرية أو سيريالية ، فهذا ما لا أستطيع أن اقبل به ! أولاً لأننا نلغي هنا التهمة التي توجهها حتى في الاتحـــاد السوفياتي ، نزعة اكاديمية معينة هي في سبيلها الى الزوال ، الى المخرج الشاب . ففي نظر بعض النقاد هناك ، وفي نظر خير نقادكم هنا ، يبدو أن تاركوفسكي قد تمثل بسرعة الطرائق البالية في الغرب ، وانـــه يطبقها دونما تمييز . أنهم يلومونه على أحلام ايفان : « أحلام ! لقـــد كففنا ، نحن في الغرب ، منذ زمن بعيد، عن استخدام الأحلام ! ان تاركوفسكي متأخر: فمثل هذه الطريقة كانت صالحة في فترة ما بين الحربين ! » . ذلكم هو مـــا تكتبه أقلام مأذونة .

لكن تاركوفسكي في الثامنة والعشرين من العمر (لقد قـــال لي ذلك بنفسه ، وليس في الثلاثين كما كتبت بعض الصحف) ، وكن على ثقة من انـــه لا يعرف السينما الغربية تقريباً . ان ثقافته هي بالأساس وبالضرورة سوفياتية . وهو لـــن يربح شيئاً ، بل سيخسر كل شيء ، إذا أراد ان يشتق من الطرائق البورجوازية « معالجة » تنبع من الفيلم نفسه ومن المادة التي عليـــه ان يعالجها . ان إيفان مجنون ، مسخ . انه بطل صغير . وفي الحقيقة انـــه اكثر ضحايا الحرب براءة وتأثيراً في النفس : فهذا الطفل ، الذي لا نستطيع ان نمنـــع أنفسنا من الشعور نحوه بالحب ، قد صنعه العنف ، فاستبطنه . لقد قتله النازيون عندما قتلوا أمـــه وذبحوا سكان قريتـــه . ومع ذلك فإنه حي . لكن **في مكان آخر** ، في تلك اللحظة القاضية التي رأى فيها قريبه يسقط . لقـــد رأيت ، انا نفسي ، بعضاً من الشبان الجزائريين المهلوسين الذين نحتتهم المجـــازر على صورتها . فبالنسبة إليهم لم يكن هناك أي فرق بين كابوس الهجود والكوابيس الليلية . كانوا قـــد قُتلوا ، فهم يريدون ان يَقتلوا وان يُقتلوا . لقد كانت استماتتهم البطولية حقداً وهربـــاً من قلق لا يطـــاق قبل كل شيء . كانوا ، إذا قاتلوا ، يهربون من البشاعـــة الى المعركة . وكانوا ، إذا ما جردهم الليل من سلاحهم وعادوا في سباتهم الى حنـــان عمرهم ، يشهدون ولادة البشاعة مجدداً ويحيون من جديـــد الذكرى التي يريدون

مكتبة الفكر الجديد

سلوانها . هكذا هو إيفان . واعتقد ان علينا ان نثني على تاركوفسكي لأنه أظهر لنا ، بأحسن ما يمكن ، كيف انه لا فرق ، بالنسبة الى هـذا الطفل التائق الى الانتحار ، بين الليل والنهار . وعلى كل الأحوال ، انه لا يعيش معنا . ان ثمة تطابقاً وثيقاً عنده بين الاعمال والهلوسات . لنرَ الى العلاقات التي حافظ عليها مع الراشدين : كان يعيش وسط العساكر ، فيأويه ضبـاط ـ اناس شجعان طيبون لكن « طبيعيون » لا تقضّ مضاجعهم طفولة مأساوية ـ ويهتمون به ، ويمحضونه حبهم ، ويريدون بأي ثمن ان يعيدوه الى « الحـالة السوية » ، وان يرسلوه الى المؤخرة ، الى المدرسة . كان الطفل يستطيع ، ظـاهرياً ، كما في أقصوصة شولوخوف ، ان يجد بينهم أباً يحل محل الأب الذي فقده . لكن فات الأوان : انه لم يعد بحاجة حتى الى اهل. وإن ما هو اعمق ايضاً من هذا الحرمان شناعة المجزرة التي رآهـا ، تلك الشناعة التي حكمت عليه بالعزلة والوحدة . وينظر الضباط في النهاية الى الطفل بمزيج من الحنو والذهول والريبة المؤلمة : فهم يرون فيه ذلك المسخ الأمثل ، الجميل للغاية والكريه تقريباً ، الذي جـذّره العـدو ، والذي لا يؤكد نفسه إلا في حوافز إجرامية (السكين على سبيل المثال) ، والذي لا يستطيع ان يقطع أواصر الحرب والموت ، والذي هـو بحاجة الآن الى ذلك العـالم المنكوب ليحيـا ، والذي يتحرر من الخوف وسط المعركة ، والذي سيفترسه القلق في المؤخرة . إن الضحية الصغيرة تعرف ما هي بحاجة إليه : الحرب ـ التي خلقتها ـ والدم والانتقام. ومع ذلك فإن الضابطين الاثنين يحبانه . اما هو فكل ما يمكن قوله هو انه لا يبغضهما . ان الحب بالنسبة إليه طريق سُدت الى الأبد . وليس في كوابيسه ولا هلوساته شيء من المجانية . انها ليست مشاهد من البسالة ولا حتى سبراً لأغوار « ذاتية » الطفل : فهي تظل موضوعية تماماً ، ونظل نحن نرى ايفان من الخارج ، تماماً كما في المشاهـد « الواقعية » . والحقيقة ان العالم بأسره ، بالنسبة الى هـذا الطفل ، هلوسة ، وان هذا الطفل نفسه ، المسخ والشهيد ، هو في هـذا العالم هلوسة بالنسبة الى الآخرين . ولهذا يدخلنا القسم الأول من الفيلم بمهارة في العـالم الحقيقي والكاذب

مكتبة الفكر الجديد

الذي هو عالم الطفل والحرب ، واصفاً لنا كل شيء بدءاً من جري الطفل الواقعي عبر الغابة حتى موت أمه الكاذب (لقد ماتت حقاً ، لكن الحدث – الذي لن نعرفه ابداً لأنه مدفون في اعماق الأعماق – كان مختلفاً : فهو لا يعود ابداً الى السطح إلا عبر مشاهد مسجلة تخفف قليلاً من عريه الفظيع) . أجنون ؟ أواقع ؟ كلا الشيئين معاً : ففي الحرب يكون الجنود جميعهم مجانين . وهذا المسخ الطفل شهادة موضوعية على جنونهم لأنه اكثرهم جنوناً . إذن ليست المسألة لا مسألة تعبيرية ولا رمزية ، إنما هي طريقة معينة في السرد يتطلبها الموضوع بالذات ، ويسميها الشاعر الشاب فوزنيسنسكي « السيريالية الاشتراكية » .

ان فهم معنى الفكرة بالذات كان يقتضي استيعاب نيات المؤلف على نحو اعمق : الحرب تقتل من يصنعها ، حتى ولو بقي على قيد الحياة من بعدها . وبمعنى اعمق ايضاً : ان التاريخ، بحركة واحدة وحيدة، يطالب بأبطاله ويخلقهم ويدمرهم إذ يجعلهم غير قادرين على الحياة بدون ألم في المجتمع الذي ساهموا في صنعه .

لقد اثنى النقاد على فيلم « رجل المقاومة » في الوقت الذي نظروا فيه بعين الريبة الى « طفولة ايفان » . وقد وجهت التقاريظ الى مؤلفي الفيلم الأول ، الذي يستحقها بالاصل ، لأنهم اعادوا إدخال التعقيد في البطل الايجابي . وهذا صحيح : فقد نسبوا اليه عيوباً – حب الكذب على سبيل المثال . واشاروا في الوقت نفسه الى اخلاصه للقضية التي يدافع عنها والى ما فيه من نزعة اصيلة من « إنية الذات » . لكني ، من جهتي لا أجد في هذا شيئاً جديداً حقاً . ذلك ان الافلام الجيدة التي قدمتها لنا الواقعية الاشتراكية قد صورت لنا دوماً ، بالرغم من كل شيء ، ابطالاً معقدين ، فيهم تلوين وغنى ، وتغنت بجدارتهم مع اشارتها في الوقت نفسه الى بعض نقاط ضعفهم . والحق ان المشكلة ليست الموازنة بين رذائل البطل وفضائله وتحديد مقاديرها ، بل طرح البطولة نفسها على بساط البحث . لا لرفضها ، بل لفهمها . و « طفولة ايفان » يسلط الضوء في آن واحد

مكتبة الفكر الجديد

على ضرورة هذه البطولة وعلى التباسها . فالطفل لا يملك فضائل صغيرة ولا يشكو من نقاط ضعف صغيرة : انه جذرياً ما صنع التاريخ به . لقد أُلقي به رغماً عنه في الحرب ، فهو بأسره مصنوع من قبل الحرب . لكنه اذا كان يخيف الجنود الذين يحيطون به ، فهذا لأنه لن يستطيع ابد ان يعيش في السلم . إن العنف الذي فيه، والذي ولد من القلق والفظاعة ، يشد من عضده ، يساعده على الحياة ، ويدفع به الى المطالبة بمهام استكشافية خطرة . لكن إلامَ سيؤول بعد الحرب ؟ اذا قيضت له الحياة ، فإن الحمم البركانية المتأججة الكامنة فيه لن تبرد ابداً . أفلا يوجد هنا ، بالمعنى الدقيق للكلمة ، نقد هام للبطل الايجابي ؟ فالفيلم يظهر لنا هذا البطل على حقيقته، متألماً وعظيماً ، ويرينا المنابع المأساوية او الجنائزية لقوته ، ويكشف لنا عن ان نتاج الحرب هذا ، المتلائم كل التلاؤم مع المجتمع الحربي ، محكوم عليه من هنا بالذات بأن يصبح غير قادر على الحياة اجتماعياً في عالم السلم . هكذا يصنع التاريخ البشر : انه يختارهم، يمتطي صهوتهم، ويجعلهم ينفقون تحته . ووسط رجال السلم ، الذين يرتضون الموت من أجل السلم ويحاربون من أجل السلم ، يحارب هذا الطفل المحراب والمجنون من اجل الحرب. وانما لهذا على وجه التحديد يحيا في وحدة لا تطاق بين العساكر الذين يحبونه .

بيد انه لا يعدو ان يكون أكثر من طفل . إن هذه الروح المحزونة تحتفظ بحنو الطفولة ، لكنها ما عادت تستشعره ، وما عادت قادرة على الاخص على التعبير عنه . أما اذا استسلم الطفل لذلك الحنو في احلامه ، وراح يحلم من خلال سلوان الاعمال اليومية العذب ، فيمكننا ان نكون على ثقة من ان هذه الاحلام ستتحول حتماً الى كوابيس . إن صور السعادة اللامتناهية البساطة تخيفنا هي نفسها في الختام : فنحن نعرف النهاية . ومع ذلك فإن ذلك الحنو المكبوت ، المحطم ، حي في كل لحظة. فلقد اهتم تاركوفسكي بأن يحيط به ايفان : انه العالم، العالم بالرغم من الحرب ، بل ، واحياناً ، بسبب الحرب (اقصد هنا تلك السماوات الرائعة التي تخترقها قذائف نارية) . والحقيقة ان غنائية الفيلم ، وسماءه المحروثة ، ومياهه المطمئنة ، وغاباته التي لا يحصى لها عدد ، هي حياة ايفان

مكتبة الفكر الجديد

بالذات ، هي الحب، والجذور التي كُتب عليه حرمانها ، هي ما كانه ، ما يزال عليه من دون ان يستطيع تذكرها ، ما يراه الآخرون فيه ، ومن حواليه ، وما يستطيع هو ان يراه . انني لا أعرف شيئاً يثير شجن النفس كذلك المشهد الطويل : عبور النهر ، الطويل ، الوئيد ، المزق : ان هذه العذوبة الكئيبة الرهيبة قد تسربت الى الضباط الذين يرافقونه بالرغم من قلقهم وشكوكهم (أمن العدل تعريض طفل الى كل هذه المخاطر ؟) . لكن الطفل ، المتسلط عليه وسواس الموت ، لا يلحظ شيئاً ، ويثب الى الأرض ، ويختفي : لقد ذهب باتجاه العدو . ويستدير الزورق نحو الضفة الأخرى . ويخيم الصمت وسط النهر: لقد سكت المدفع . ويقول احد العسكريين للآخر : « هذا الصمت إن هو إلا الحرب ...

وفي تلك اللحظة بالضبط ينفجر الصمت : هتاف وصراخ : انه السلم . وجنّ جنون الجنود السوفياتيين من الفرح واجتاحوا مستشارية برلين وارتقوا السلالم جرياً . ويجد أحد الضابطين – هل مات الآخر ؟ – في أحد المخابىء بعض السجلات . لقد كان الرايخ الثالث ببروقراطياً : ان لكل مشنوق صورة واسماً على قائمة . ويرى الضابط الشاب في أحد السجلات صورة ايفان . شُنق في الثانية عشرة من العمر . ووسط فرح أمة دفعت غالياً ثمن حقها في متابعة بناء الاشتراكية ، يمثل – بين كثير غيره – هذا الثقب الأسود ، لسعة الإبرة العضالة هذه : موت طفل في الحقد واليأس . انه ما من شيء سيعوض عن هذا الموت ، ولا حتى الشيوعية المستقبلة . لا شيء : ان الفيلم يظهر لنا هنا ، دونما وساطة ، الفرح الجماعي وتلك النكبة الشخصية المتواضعة . لا شيء ، حتى ولا أم تجمع في شخصها بين الألم والاعتزاز : ميتة عقيمة . ان مجتمع البشر يتقدم نحو أهدافه ، والأحياء سيحققون هذه الغايات بقواهم الذاتية ، ومع ذلك فإن هذا الميت الصغير ، هذه القشة الزهيدة التي كنسها التاريخ ، تظل أشبه بسؤال بلا جواب ، لا يلحق الأذى بأحد ، لكنه يظهر لنا كل شيء تحت ضوء جديد : ان التاريخ مأساوي . كان هيغل يقول ذلك . وكذلك ماركس،

مكتبة الفكر الجديد

الذي كان يضيف بأنه يتقدم دوماً من اسوأ جوانبه . لكننا في الآونة الأخيرة لم نعد نقول ذلك تقريباً ، انما كنا نلح على التقدم متناسين الخسائر التي لا يمكن أن يعوضها شيء ، ولقد جاء فيلم « طفولة ايفان » ليذكرنا بهـــذا كله بصورة نفاذة ، عذبة ، انفجارية . طفل يموت . وانها لتكاد تكون « نهاية سعيدة » ، في الوقت الذي ما كان فيه بوسعه أن يبقى على قيد الحيـاة . واعتقد ، بمعنى ما ، ان المؤلف ، ذلك الشاب الصغير السن ، قـــد اراد ان يتكلم عن نفسه وجيله . لا لأن أولئك الرواد القساة والمعتزين بأنفسهم قـــد ماتوا . بل على العكس تماماً ، لكن لأن طفولتهم حطمتها الحرب ونتائجها . ولقد كان بودي لو أقول : هي ذي « الاربعمئة ضربة [1] » السوفيـــاتية ، لكن لكي أظهر الفروق على نحو أوضح. طفل يعيش في تمزق بسبب أهله: تلكم هي التراجيديا – الكوميديا البورجوازية . آلاف من الاطفال قضت عليهم الحرب وهم أحياء : تلكم هي إحدى التراجيديات السوفياتية .

وبهذا المعنى يبدو لنا الفيلم روسياً نموذجياً . والتكنيك روسي بالتأكيد ، بالرغم من أنه مبتكر . ونحن ، في الغرب ، نعرف كيف نقدر الايقاع السريع والتشنجي لغودار [2] ، وبطء انطونيوني الهيولي . لكن الشيء الجديد هو ان نرى هاتين السرعتين لدى مخرج لا يتتبع خطى أحـــد هذين المخرجين ، مخرج اراد أن يعيش زمن الحرب في بطئه الذي لا يطاق ، وأن يقفز ، في الفيلم نفسه، من عصر الى آخر بسرعة التاريـــخ التشنجية (أفكر بوجـــه خاص بالتضاد المدهش بين مشهدي النهر والرايخستاغ) ، من غير ان يطور الحبكة ، تاركاً الشخصيات للحظة معينة من حياتها ، ليرجع اليها في لحظة أخرى ، أو في لحظة موتها . لكن ليس هذا التعارض في الايقاعات هو الذي يعطي الفيلم طابعـــه النوعي المميز من وجهة النظر الاجتماعية . فتلك اللحظات من اليـأس التي تدمر

---

١ – فيلم فرنسي مشهور من اخراج فرانسوا تريفو . بطله طفل تدفع بـــه حياة والديه البورجوازية الى الجريمة والتشرد ... والانتحار . « هـ. م. »

٢ – جان لوك غودار : من كبار المخرجين السينمائيين الفرنسيين . « هـ. م. »

مكتبة الفكر الجديد

الانسان ، قد عشناها نحن أيضاً في العصر نفسه وإن بعدد أقل . (انني لأذكر طفلاً في سن ايفان علم عام ١٩٤٥ بموت أبيه وأمه في غرفة الغاز وبترميدهما ، فصب على فراشه وقوداً ، واضجع فوقه ، واضرم النار فيه ، وأحرق نفسه حياً) . لكننا لم نملك لا الجدارة ولا الفرصة لننطلق في بناء عمل عظيم . وكثيراً ما عرفنا الشر . لكننا لم نعرف قط الشر الجذري في قلب الخير بالذات ، وفي اللحظة التي يدخل فيها في صراع مع الخير نفسه . وهذا ما يأخذ بألبابنا هنا : بديهي ان ما من سوفياتي يستطيع أن يقول في نفسه أنه مسؤول عن موت ايفان : فالمجرمون الوحيدون هم النازيون . لكن ليست المشكلة هنا : فمن حيث أتى الشر ، فإنه عندما يخترق الخير بلسعات حمته التي لا يحصى لها عدد ، يكشف النقاب عن الحقيقة المأساوية للانسان والتقدم التاريخي . وهل من بلد مهيأ للتعبير عن ذلك كالاتحاد السوفياتي ، البلد الوحيد الكبير الذي فيه لكلمة التقدم معنى ؟ وبالطبع لا مجال لنستنتج من ذلك أي مذهب تشاؤمي كان . ولا أي مذهب متفائل سهل . انما فقط ارادة الكفاح دون أن يغيب عن الانظار الثمن الذي لا مناص من دفعه . انني أعلم ، يا عزيزي أليكاتا ، انك تعرف خيراً مني الشقاء والعرق ، وغالباً الدم ، الذي يكلفه أبسط تغيير يراد إدخاله على المجتمع . واني لواثق انك تقدر بقدر ما أقدر هذا الفيلم عن خسائر التاريخ الجافة . والتقدير الذي اكنه لنقاد « اليونيتا » يحثني على أن أطلب منك اطلاعهم على هذه الرسالة . وسأكون سعيداً إذا ما أتاحت هذه الملاحظات القليلة الفرصة للرد علي ولفتح النقاش من جديد حول « ايفان » . ان مكافأة تاركوفسكي الحقيقية يجب ألا تكون « الوسام الذهبي » ، بل يجب أن تكون الاهتمام ، وإن الجدالي ، الذي سيثيره فيلمه لدى اولئك الذين يناضلون معاً من أجل تحرير الانسان وضد الحرب .

مع كل صداقتي

« الآداب الفرنسية » – العدد ١٠٠٩ – ٢٦
كانون الاول – ١ كانون الثاني ١٩٦٤ .

مكتبة الفكر الجديد

فهرست

عملية « كاتابا »	٥
النزعة الاصلاحية والاصنام	١٣
رد على بيير نافيل	٢٥
شبح ستالين	٤٧
عندما يقرع البوليس ثلاث مرات ...	١٧٧
نزع الصفة العسكرية عن الثقافة	١٨٩
مناقشة حول النقد بصدد « طفولة ايفان » .	١٩٧

مكتبة الفكر الجديد

هذا الكتاب

يشكّل هذا الكتاب آخر حلقة صدرت من سلسلة «مواقف» للكاتب العبقري جان بول سارتر. وهو يضمّ مجموعة من الدراسات البارعة التي تتناول عدداً من القضايا اليسارية والماركسية بروح من الموضوعية والعمق أصبحت الميزة الرئيسية لفيلسوف الوجودية الكبير.

وقد أثارت دراسة، شبح ستالين، لدى صدورها عاصفة من النقد والردّ والتأييد والاستنكار، شأن جميع مقالات سارتر الرئيسية. وقد حلّل فيها الكاتب قضية تدخّل السوفيات في المجر عام ١٩٥٦، فشجب هذا التدخّل واعتبره ضربة قوية للفكرة الشيوعيـــة، كما أنه استنكر استنكاراً شديداً حملة قناة السويس واشتراك فرنسا فيها ودفاع الشعب العربي عن حقه في استثمار القناة.

ان سارتر، في هذا الكتاب، يضيف موقفاً جديداً من مواقفه المشرفة في الدفاع عن الحق والحرية، ويضرب مثلاً آخر من الالتزام الأدبي المسؤول.

مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر الجديد
07-06-2017

هذا الكتاب

يشكّل هذا الكتاب آخر حلقة صدرت من سلسلة « مواقف » للكاتب العبقري جان بول سارتر . وهو يضمّ مجموعة من الدراسات البارعة التي تتناول عدداً من القضايا اليسارية والماركسية بروح من الموضوعية والعمق أصبحت الميزة الرئيسية لفيلسوف الوجودية الكبير .

وقد أثارت دراسة « شبح ستالين » لدى صدورها عاصفة من النقد والردّ والتأييد والاستنكار ، شأن جميع مقالات سارتر الرئيسية . وقد حلّل فيها الكاتب قضية تدخّل السوفيات في المجر عام ١٩٥٦ ، فشجب هذا التدخّل واعتبره ضربة قوية للفكرة الشيوعيـة ، كما أنه استنكر استنكاراً شديداً حملة قناة السويس واشتراك فرنسا فيها ودفاع الشعب العربي عن حقه في استثمار القناة .

ان سارتر ، في هذا الكتاب ، يضيف موقفاً جديداً من مواقفه المشرقة في الدفاع عن الحق والحرية ، ويضرب مثلاً آخر من الالتزام الأدبي المسؤول .

٣٥٠ ق. ل — ٤٥٠ ق. س — ٧٠٠ مليم